

مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



ISSN 2311-5181

مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Liban - Tripoli: Branche Abou Samra P.O. Box 8 - jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com



العام الخامس - العدد 45 - سبتمبر 2018

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سرور طالبي / المشرفة العامة

المؤسس ورئيس التحرير: د. جمال بلبكاي

jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com

ISSN 2311-5181

هيئة التحرير:

- أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
د. بغداد باي عبد القادر (المركز الجامعي غليزان، الجزائر)
د. تيقان بوبكر (رئاسة جامعة التكوين المتواصل، الجزائر)
د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر)
د. طراد طارق (جامعة خنشلة، الجزائر)
د. طوال عبد العزيز (جامعة الجلفة، الجزائر)

رئيس اللجنة العلمية: أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)

اللجنة العلمية:

- أ.د. ودان بوغفالة (جامعة مصطفى اسطمبولي، مُعسكر، الجزائر)
د. أحمد جلول (جامعة حمة لخضر، الوادي، الجزائر)
د. بوجليدة حسان (جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر)
د. بحري صابر (جامعة سطيف 2، الجزائر)
د. خويلد محمد الأمين (جامعة الجلفة، الجزائر)
د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)
د. شلّالي لخضر (المركز الجامعي آفلو، الأغواط، الجزائر)
د. علّة المختار (جامعة الجلفة، الجزائر)
د. فكروني زاوي (جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر)
د. نجوى نايف عبد النّبي شكوكاني (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
د. هاني إسماعيل رمضان (جامعة غيرسون، تركيا)

أعضاء لجنة التحكيم الاستشارية لهذا العدد:

- أ.م.د. جمال الدين محمد مزكي (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).
د. إبراهيم إسماعيل عبده محمد (جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية).
د. أسماء سالم علي عربي (الجامعة الأسمرية، ليبيا).
د. العربي حجاج (جامعة الطارف، الجزائر).
د. اليسع حسن أحمد (جامعة طرابلس، ليبيا).
د. أيمن عايد (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).
د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر).
د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون).
د. نوال زغينة (جامعة باتنة 1، الجزائر).

التدقيق اللغوي:

- أ.م.د. ميعاد جاسم السراي (الجامعة المستنصرية، العراق).
د. بشري سعدي (جامعة مولاي اسماعيل، المغرب).
أ. المهدي سُلطاني (جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر).

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصلية للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

ISSN 2311-5181

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة ، أو مؤتمر في الوقت نفسه ، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
 - عنوان البحث.
 - اسم الباحث ودرجته العلميّة، والجامعة التي ينتمي إليها.
 - البريد الإلكتروني للباحث.
 - ملخّص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12.
 - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكونَ البحثُ خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائيّة.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
 - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن ، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
 - اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
 - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني ، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة:

social@jilrc-magazines.com

الفهرس

الصفحة

- 7 • الافتتاحية
- 9 • شرف المرأة في الثقافة الجزائرية بين الثابت والمتغير (رصد لمحددات تمثل القيمة)، الباحثة خديجة مختارية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
- 25 • التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات: أحد محددات الموهوبين فيها لدى تلاميذ الثالثة متوسط ، د.عقيل بن ساسي/جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر.
- 39 • العنف وسبل مواجهته:محاولة في سوسيولوجيا العنف في المجتمع التونسي، د.عادل بوزيد/جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.
- 49 • الاضطرابات اللغوية وتأثيرها على مهارتي الفهم والتذكر اللغويين، أ.د.عز الدين الزياتي/جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، أ.د.التهامي الحايبي/المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، الفنيطرة، المغرب.
- 65 • الدور المتجدد للأب في الطفولة المبكرة من منظور علم النفس المعاصر وعلاقته بالصحة النفسية للطفل، د.بن عبد الله محمد/جامعة وهران 2.
- 83 • المنشط السياحي في مواجهة التغير الاجتماعي والثقافي الناجم عن السياحة الجماهيرية في الجنوب الشرقي التونسي، د.محمد الفاضل الحاج الساسي/جامعة تونس
- 101 • المقابلة أداة لفهم الواقع الاجتماعي الجزائري:ما بين الضرورة الإستيمولوجية ومجال لوجهات النظر؟ د.ناصر بودبزة/جامعة قاصدي مرباح ورقلة.
- 117 • الأمراض الاجتماعية في البلاد التونسية في الفترة الحديثة: الصراع بين الساحل والداخل (المركز و التخوم) د. عبد القادر سوداني/جامعة صفاقس ، تونس.

الافتتاحية

7

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، نحمده حمد الشاكرين وأثني عليه بما هو أهله، واللهم صلّ على سيدنا محمد صلاة تخرجنا يالله بها من ظلمات الوهم، وتكرمنا بنور الفهم، وتوضح لنا الشكل حتى يفهم، إنك أنت تعلم ولا نعلم، إنك علّام الغيوب، وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فهذا فضل الله تعالى علينا مُستمرٌ، ومن فضله أن وفقنا لتقديم العدد الخامس والأربعين من مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، نهدي من خلاله باقة من البحوث المُحكّمة، جاءت متنوعاً بين تخصصات ومجالات بحثية متعددة.

نبارك الإصدار الجديد للمجلة، ونسأل الله أن تحقّق أهدافها المناطة بها، كما نشكّر كلّ القائمين عليها، وفقكم الله وسدد على طريق الخير خطاكم، ودمتم منارة علمية يشاد بها.

وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وإليه نيب.

رئيس التحرير / د. جمال بلبكاي

تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2018

شرف المرأة في الثقافة الجزائرية بين الثابت والمتغير (رصد لمحددات تمثّل القيمة)

الباحثة خديجة مختارية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر

9

ملخص:

كان موضوع "الشرف" "L'honneur" ولا يزال من أكثر المواضيع أهمية في الدراسات البحثية الأنثروبولوجية و السوسيولوجية باعتباره معطى سوسيو- ثقافي ميّز المجتمعات العربية والإسلامية منذ القدم . وما زاد من قيمته كموضوع للبحث هو ارتباطه بالمرأة تحديدا ، الأمر الذي أدخله ضمن دائرة المواضيع الجدلية و زاد من صعوبة تحديده ، خاصة أمام التغيرات القيمية والثقافية التي تشهدها هاته المجتمعات .

من هذا المنطلق ووفق رؤية تحليلية مقارنة حاولنا تحديد الثابت والمتغير في تصورات شرف المرأة ومحدداته في الثقافة الجزائرية بين الماضي والحاضر باستجلاء عدّة مظاهر ثقافية متعلقة بالشرف تعكس لنا ذهنية الاعتقاد وخلفية الممارسة حينما يتعلق الأمر بشرف المرأة وكيفية حمايته .

وهذا ما يظهر لنا جليا من خلال ظاهرتين ثقافيتين بامتياز: الأولى بذهنية تقليدية يغلب عليها الطابع التجريدي السحري وهي ذهنية " الرباط " "Le nouement" كمعتقد شعبي خاص بعذرية المرأة ، والثانية بذهنية عصرية حديثة (جراحة البكارة) " L'hyménoplastie " ولكل منهما خلفيات وتداعيات وهو في أساسه تغير ثقافي بامتياز يضع الذهنيات في خانة المساءلة أمام ديناميكية المجتمع وثقافته .

وسؤالنا الرئيسي في هذا الاطار: كيف يمكننا مقارنة شرف المرأة ومحدداته في الثقافة الجزائرية في اطار التغير؟

الكلمات المفتاحية: شرف المرأة ، العذرية ، غشاء البكارة ، رجولة الرجل ، الثقافة الجزائرية ، بنت الفاميليا (ابنة العائلة) ، التغير الثقافي ، الرباط، العذرية الاصطناعية .

تمهيد:

مما لا شك فيه أنّ لكل مجتمع ثقافة تميّزه عن باقي المجتمعات الأخرى وتطبعه بهوية خاصة تبدأ على مستوى الذهنيات لتترجم في ممارسات وسلوكات وعلاقات مع الأنا نفسه ومع الآخر وفق توجيه قيمي ومعياري يجعل للحياة أشكالاً متميزة وأنماطاً سلوكية مختلفة باعتبار القيم الاجتماعية جزء من المنظومة الثقافية المجتمعية ، والتي رغم تعدد أهدافها وخصائصها داخل الإطار الثقافي العام الذي يحتويها إلا أنها تشترك في التعبير عن الهوية والحياة الثقافية لكل مجتمع ، وعلى هذا الأساس تعتبر قيمة " الشرف " نمط حياة¹ يختلف من مجتمع لآخر رغم الاشتراك في ذات القيمة.

فالشرف كقيمة اجتماعية " تشترك فيها جميع الشعوب المتوسطة بغض النظر عن الخصوصيات التي تميّز كل منطقة عن الأخرى في كيفية فهم وتمثّل هذه القيمة"²، الأمر الذي جعل منها موضوعاً كلاسيكياً للأنثروبولوجيا المتوسطة بالرغم من أنّ سياقية الشرف قد خلقت عدداً من المشاكل للباحثين سواء في الميدان السيميائي أو في العلاقات الخاصة³.

لهذا سنناقش بطريقة تحليلية قيمة شرف المرأة في الثقافة الجزائرية في ظل التغيرات القيمية وتداعيات العولمة الثقافية ، محاولين الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما مفهوم شرف المرأة في الثقافة الجزائرية؟

- هل اختلفت محددات قيمة شرف المرأة في الثقافة الجزائرية أمام تحديات العولمة الثقافية؟

- هل يمكننا فعلاً الحديث عن استمرارية منظومة ذهنية تقليدية مجسدة في مقولة "العذرية" أمام التطور التكنولوجي الحديث وظهور " العذرية الاصطناعية"؟

1/ رمزية شرف المرأة بين الحقيقة البيولوجية وسلطة الثقافة المجتمعية:

تعتبر العلاقات الاجتماعية في حقيقتها نموذجاً تصورياً مجسداً سلوكياً وفق إطار ثقافي تعارفت عليه الجماعة الواحدة وأعطته الشرعية باسم الثقافة المجتمعية وسلطتها الرمزية . ولما كانت علاقة الرجل بالمرأة من أكثر العلاقات الاجتماعية أهمية في المجتمع كان لا بد من رسم أطوارها العام والخاص ، بداية بتحديد المرأة اجتماعياً ومنحها تعريفاً لكيونتها ، وصولاً إلى ضبط علاقاتها مع الجنس الآخر (الرجل) ، إذ " لا تولد المرأة امرأة بل تصبح كذلك ، وهي لا تعزّف في محيطها الاجتماعي بعوامل بيولوجية أو نفسية أو اقتصادية ، بل الثقافة في عناصرها المتعددة هي التي تصوغ وتشكّل الفرق والنتائج الانتقالي بين الذكر والكائن المغاير له الذي يدعى بالمرأة"⁴.

¹ أنجلز ماريا، أنثروبولوجية الحياة اليومية في المتوسط، موسوعة البحر الأبيض المتوسط ، ترجمة حسن بن منصور، سلسلة الوقت الحاضر، الجزائر 2005، ص.32.

² Julian Pitt-Rivers, *Anthropologie de l'honneur*, Le Sycomore, Paris, 1983, p.15.

¹ أنظر: أنجلز ماريا ، المرجع السابق، ص.32.

⁴ Sylviane Agacinski, *femmes entre sexe et genre*, Ed du Seuil ,La librairie du XXIème siècle, Paris, P.167.

لهذا نجد أنّ الشرف غالباً ما يتم ربطه بالمرأة وجسدها أساساً ، إذ يعتبر الجسد وفق هذا المنظور " علامة الفرد بوصفه بنية اجتماعية ثقافية وأي مفهوم له يرتبط بالشخصية التي تعي ذاتها من خلال علاقتها بالآخر " فهو " مرآة لشخص صاحبه يعكس بعد الايمان الديني بقدر ما يعكس منزلة المرء ، خلقه و أخلاقه منشأه حسن سمعته أو سوء معاملته"².

فالجسد-إذن-حقيقة بيولوجية مرتبطة بالأخلاق كحقيقة ثقافية رمزية أوجدها المجتمع واعترف بها وقننها ووضع الانسان من خلالها في وضعية استطاع بها " تهذيب غرائزه وتشذيبها وفقاً لما حدده له المجتمع والأعراف والدين ، محاولاً بذلك أسطرته وتوليفه وفق النزوع المعتقدي³.

من كل ما سبق يمكن القول أنّ العلاقة بين (الشرف، المرأة والجنس) هي علاقة دائمة ، رسختها التصورات المجتمعية ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال الحكم بجنسية السلوك دون أن يقرر المجتمع ذلك ، إذ ليس كل فعل أو تجربة تعتبر جنسية بحد ذاتها ، بل إنّ ما يمكن اعتباره أمراً جنسياً هو أمر خاضع للتعريف الاجتماعي " (على حد تعبير " جون غاغنون" (J.Gagnon) و" وليام سيمون" (W.Simon)⁴. وهذا ما يظهر جلياً في الزواج ، فبالرغم من أنه قائم على علاقة جنسية بين امرأة ورجل إلا أنّ المجتمع لا يعترض عليها ، بل يرتضيها ويباركها لأنها ببساطة حظيت بشرعيتها منه ، وأصبح من خلالها جسد المرأة مباحاً مادام خاضعاً لمقاييس القبول والاعتراف والمجسد أساساً في المبدأ القائل " جسد المرأة عورة يجب إخفاؤه بمقاييس الأخلاق ، مباح بمقاييس الزواج"⁵.

وهنا بالذات يجد المتتبع للدراسات التي جعلت من الشرف موضوعاً لها أنه قيمة مشتركة بين الرجل والمرأة ولكن تمثل أفراد المجتمع لهذه القيمة يختلف باختلاف موضوعها ، بمعنى آخر إنّ النظر إلى شرف الرجل يختلف عن تصوّر الشرف إن كان متعلقاً بالمرأة .

فبالنسبة للرجل " ينسب إلى الرجولة، بمعنى أنّ الشرف عنده يتعلق بخصائص في الشخصية من كونه رجلاً يتسم بالشجاعة ، ملتزم بالكلمة ، لا يتلفظ بألفاظ ذات مدلولات جنسية (...). وتتضمن الرجولة أن يكون حسن السمعة سواء في نطاق مجتمعه المحلي أو خارجه .

¹بن ناصر الحاجة ، مقال المراقبة الجسدية في المجتمع الاسلامي ، الحوار الثقافي (مجلة فصلية أكاديمية محكمة تصدر عن مخبر حوار الحضارات ، التنوع الثقافي وفلسفة السلم) ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة عبد الحميد بن باديس ، مستغانم ، الجزائر ، عدد خريف / شتاء ، 2010 ، ص.58.

²الخوري فؤاد اسحاق ، ايديولوجيا الجسد : رموزية الطهارة والنجاسة ، دار الساقى ، بيروت ، لبنان ، ص.01.

³ أنظر: الحافظ منير ، الجنسانية أسطورة البدء المقدس ، دار الفرقد، دمشق ، سوريا ، 2008 ، ص.60.

⁴ أنظر: سكوت جون ، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية ، ترجمة محمد عثمان ، لبنان الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت ، 2009 ، ص.ص 162. 163.

⁵الكيال باسمة ، سيكولوجية المرأة ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983 ، ص.388.

ويعدّ الرجل الذي يغتصب امرأة رجل غير شريف، حيث يتطلب الشرف كبح الشهوات الحيوانية ليرقى بها إلى السمو الأخلاقي¹ لكن رغم هذا كله يحظى الرجل (على عكس المرأة) بالتسامح المجتمعي إن هو تجاوز هاته المعايير في جزئياتها. أما مفهوم شرف المرأة فهو مرتبط بمفهوم "العفة"² وهنا يبرز مفهوم "العذرية"، أي وجوب بقاء الفتاة عذراء أو بكرًا إلى حين أن تتزوج³.

فإذا كان شرف الرجل في أخلاقه ولا يؤخذ ببعض هفواته، فإنّ شرف المرأة لا بد أن يظهر في جانبين: الأول وقائي لحماية الثاني والمتمثل في الجانب القيمي والأخلاقي والثاني مادي مورفولوجي متمثل في العفة البيولوجية من منطلق اعتبار "العذرية" السبيل الوحيد لتثبيت الفتاة عفتها وأنها صانت عرضها وشرفها⁴.

2/"شرف" المرأة و"رجولة" الرجل (أية علاقة؟):

إنّ العلاقة بين الرجل والمرأة وجدت منذ وجود البشرية -بل هي أساس وجودها- وتحوّلت بذلكمن نمطية العلاقة إلى أنماط علاقات إمّا من ناحية بنائها أو من ناحية تمثّلها، وأخذت مكانها ضمن حلقة الانتاج واعادة الانتاج، من الاجتماعي إلى الثقافي ومن الثقافي إلى الاجتماعي، على اعتبار أنّ الثقافة لها القدرة على الاندماج وبصورة غير مباشرة في النظام الاجتماعي لأي مجتمع، مشكّلة والنسق الاجتماعي لحظة اندماجهما في الشخصية الزاما أخلاقيا أو قاعدة وجدانية أو طريقة طبيعية أو عادية في الفعل أو في الشعور بفضل تكامل العناصر السوسيو-ثقافية في الشخصية⁵.

وهذا ما حدث للرجل باعتباره مقابلا للجنس الآخر "المرأة"، وللمرأة باعتبارها الطرف الثاني في المقاربة العلائقية (والجنسية خاصة) طوال سيرورة التنشئة الاجتماعية.

إذ "يعتبر الرجل المغربي شرفه في عفة زوجته وأخواته وبناته، وأن سمعته ترتبط بسلوك النساء اللواتي هن تحت وصايته ومسؤوليته، إلى درجة أنّ جريمة القتل تعتبر أمرا مبررا إذا لطح هذا الشرف"⁶، و المرأة بالمقابل ملزمة بحماية شرفها الذي لا يعتبر مسألة شخصية بقدر ما يمس العائلة وكرامتها وعرضها ولهذا توضع أمامها العديد من الضوابط والقوانين في علاقتها

¹ عبد الحميد محمد أمال، القيم الأخلاقية للمرأة دراسة متعمقة لقيمة العفة والشرف نقلا عن: دحماني سليمان، ظاهرة التغير في الأسرة الجزائرية (العلاقات) (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، كلية الأدب والعلوم الانسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، فرع الأنثروبولوجيا، 2006/2005، ص.252.

² العفة في معناها الاصطلاحي هي ضبط الملاذ الحيوانية وهي حالة متوسطة من إفراط هو الشره وتفريط وهو جمود الشهوة "أنظر: صالح بن عبد الله بن حميد، عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان بن ملح، موسوعة نظرة التعميم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، دار الوسيلة للنشر والتوزيع جدّة السعودية، 1998، ص.2872.

³ أنظر: عبد الحميد محمد أمال، المرجع السابق، ص.252.

⁴ أنظر: دياب فوزية، القيم والعادات الاجتماعية (مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية)، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1980، ص.276.

⁵ أبو جاد وصالح محمد علي، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، ط 2، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 2000، ص.17.16.

⁶ Cf. AddiLhouari, *Mutation de la société Algérienne, Famille et lien sociale dans l'Algérie contemporaine*, La découverte, Paris, 1999, P.444.45.

بالجنس الآخر ، و يخضع سلوكها لرقابة اجتماعية صارمة وأي موقف مقلق منها أو مشكوك فيه على حد تعبير "Boucebci"¹ " يسقط هيئة السلطة الذكورية ويهدد الأمان الداخلي والخارجي للعائلة..."²، وبالتالي تتعلم أن تحفظ نفسها من أجل رجل هو زوجها ، والذي يعتبر العذرية حقا من حقوقه...³.

المرأة -إذن- في المجتمع الجزائري وكل المجتمعات العربية والاسلامية إجمالاً لا ينظر إليها ككيان مستقل بذاته بل إنّ مقارنة قضاياها متعلق بمقابلتها وربطها بالجنس الآخر "الرجل" ، خاصة وأنّ "وسائل الاتصال القديمة والحديثة تسهم في إشاعة تمثيل المرأة في وعي الرجل وتمثيل الرجل في وعي المرأة"⁴، الأمر الذي جعل من الرجل بمثابة الوصي عليها والمسؤول عن تصرفاتها ، ليس لذاتها كمرأة وإنما لأنها مرتبطة بشخصه وشرفه كرجل ، وهي الصفة المقدّسة في خانة مفرداته لا يسمح لها بتدنيها مهما كانت الأسباب ، لأنها ببساطة تفقده ذلك اللقب الاجتماعي المقدّس الذي سعى طوال حياته ومنذ نعومة أظفاره ليحظى به وهو "الرجل الفحل" .

هي -إذن- نقطة قوّة في شخصيته و نقطة ضعفه في نفس الوقت لأنّ مفهوم الرجولة قد أوجد لنفسه مكاناً في بناء الأيديولوجي والفكري ، خاصة وأنه مفهوم مبني وفق سياقات نفسية وسوسيو-ثقافية ودينية أنتجها المجتمع فأصبحت بذلك رأسمال رمزي مقدّس لدى الرجل الجزائري (والمغاربي عموماً) ، وهنا بالذات تتحدد وتتضح المعادلة الثقافية بين شرف المرأة ورجولة الرجل.

3/"بنت الفاميليا"⁵ لقب مجتمعي تقليدي بعباءة جديدة:

إنّ حقيقة الاجتماعي تظهر من خلال تتبع الحياة اليومية للأفراد في أبسط معانها ، فالسياقات الاجتماعية المختلفة تنتج سياقات فكرية وثقافية متميزة تجعل من الفرد حاملاً لها ومسؤولاً عن إعادة إنتاجها سواء بوعي أو من دون وعي ، كحتمية أوجبتها استمرارية المجتمع ككيان وكوظيفة.

إعادة الانتاج هاته لا تخلو من التغيير الذي يحدث بسبب التفاعل في السيرورة التاريخية والديناميكية للثقافة حتى وإن كان أصل القيمة ثابت ومثال ذلك اللقب المجتمعي " بنت الفاميليا" .

فما المقصود بـ " بنت الفاميليا" في الخطاب المجتمعي الجزائري؟ ما هي محدداته؟ وما علاقته بشرف المرأة؟

¹BoucebciMahfoud,Psychiatrie ,société et développement en Algérie, ENAL, Alger,1987,P. 44

²مزور بركو ، التنشئة الاجتماعية في الأسرة الجزائرية ، الخصائص والسمات ، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية ، العدد 22/21 شتاء - ربيع 2009ص.47.

³Lacoste Dujardin Camille, Des mères contre des femmes , maternité et patriarcat au Maghreb , Ed Bouchéne Alger , 1990 ,P.P72.73

⁴الحيدري ابراهيم ، النظام الأبوي واشكالية الجنس عند العرب ، دار الساقى ، بيروت ، لبنان ، 2003 ، ص.16.

⁵"بنت الفاميليا": مصطلح مجتمعي شعبي هجين يدخل في إطار "اللهجة الجزائرية" ويجمع بين لفظين من أصلين لغويين مختلفين ، أحدهما عربي وهو كلمة "بنت" وتعني " الابنة" والثاني مأخوذ من اللغة الفرنسية " Famille" وتعني " العائلة" أي " ابنة العائلة" ، وهو تعبير يستخدم في الثقافة الجزائرية للدلالة الرمزية على سلطة العائلة في تربية الفتاة على الأخلاق والحياء .

"بنت الفاميليا" هو لقب مجتمعي أسس وفق عدّة معايير شكلية ، أخلاقية وسلوكية متعلقة بالمرأة ، فهو يحمل عدّة دلالات رمزية منها ما هو متعلق بالأخلاق ومنها ما هو متعلق بالسلطة الرمزية للعائلة ، وعلى العموم يمكن اعتباره صفة تنعت بها " المرأة الشريفة" التي يسعى ويتنافس الشباب لخطبتها فهو يحمل ضمنا معاني رمزية أخلاقية ومحددات قيمة وسلوكية متمثلة أساسا في الحياء أو الاحتشام و الذي يعتبر في أساسه "مجموعة من الاجراءات الوقائية الهادفة للحفاظ على الشرف ، ومن ذلك فصل الرجال عن النساء فيزيقيا ومكانيا وفرض مواصفات خاصة لزي وسلوك المرأة في اللحظات التي يستحيل فيها الفصل"¹ ، على اعتبار أنّ الحشمة بالنسبة للفتاة أو المرأة هي "الوسيلة التي تعبّر بها تلقائيا عن استيعابها للدروس الخاصة بما هو عيب وحرام"² فهي إذن " بنت العائلة" وفخرها.

والاحتشام كقيمة أخلاقية في المجتمع الجزائري التقليدي له بعدان : بعد شكلي وآخر ضمني أو معنوي أخلاقي:

– البعد الأول: مرتبط بالشكل الخارجي للمرأة وكيفية ضبطه تحت السلطة الرمزية للأسرة والمجتمع، ففي العائلة التقليدية كانت الفتاة تتمتع قبل زواجها عن استعمال مواد التجميل ، فلا تضع الكحل في عينها ولا تزيل الشعر من حاجبها ولا تستعمل الاصبغ والمساحيق . وقد كانت تستحي حتى من تسريح شعرها أو النظر في المرأة في حضور الأب أو الإخوة الذكور³. وكان لباسها يتسم بالحياء باعتباره من مؤشرات الحكم على المرأة وأخلاقها ، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان يحكم على المرأة في مدينة تلمسان (غرب الجزائر) بأنها مستقيمة أو العكس ، بمعنى بكرة أو مفتضة انطلاقا من اتساع الكوة التي يسمح للباس التقليدي لها بالنظر منها...⁴.

– البعد الثاني: له علاقة وطيدة بالجنس الآخر " الرجل" ، إذ المرأة الشريفة هي تلك المرأة التي لم يسبق لها أن كلمت رجلا أو تعاملت معه بأي شكل من الأشكال ، لأنها كانت في غالب الأحيان مأكنة في البيت ، وإن حدث وأن خرجت يكون خروجها بمرافقة الأب أو أحد الإخوة الذكور ، ففي اللحظة التي تتخطى فيها المرأة عتبة دارها تخضع لقانون العرف والتقاليد وتصبح جنسا آخر..."⁵.

كما أنّ صور " العلاقات الأخرى التي تحدث بين الرجل والمرأة لا يعترف بها المجتمع ويقف منها موقفا يتباين من مجرد الاعتراض إلى مختلف صور المعارضة ، وحتى توقيع أقصى العقوبة أو صور النبذ الاجتماعي على طرفي هذه العلاقة غير الزوجية"⁶.

¹ التركي ثريا وزريق هدى ، تغير القيم في العائلة العربية ، سلسلة دراسات عن المرأة العربية والتنمية ، رقم واحد وعشرون ، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، عمان الأردن ، 1995، ص.28.

² عقاب نصيرة، التنشئة الاجتماعية وأثرها في السلوك والممارسات الاجتماعية للفتيات (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع ، 1994/1995 ص.76.

³ طيبشوش نسيمة ، القنوات الفضائية وأثرها على القيم الأسرية لدى الشباب ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011، ص. 189 . 190.

⁴Cf : ZerdoumiNafissa ,L'enfant d'hier, l'éducation de l'enfant en milieu traditionnel Algérien ,François Maspero Paris, 1982 ,P.212 .

⁵الحيدري ابراهيم ، المرجع السابق ، ص.16.

⁶علي غزال عبد الفتاح، موسوعة التربية الأسرية (الأسرة والتنشئة الاجتماعية)، الجزء الأول ، دار الجامعة الجديدة، الاسكندرية ، مصر 2013، ص.09.

فبالرغم من أنّ الحب بين الرجل والمرأة غريزة انسانية طبيعية إلا أنّ المجتمع التقليدي كان يقف منها وقفة معارض اجمالا وتفصيلا خوفا على الشرف والعرض الذي يدخل في خانة مقدساته ، " فالحب قبل الزواج يؤول تأويلا سيئا ويحارب من طرف الآباء لأنه كثيرا ما يؤدي إلى وصم الفتاة بالعار ، وردذيلة العشق لا تجر إلا بوبال وتفكك أوصال العلاقات الأسرية "1 ، خاصة وأنّ العلاقة بين الجنسين كانت موضوعا حساسا للغاية في المجتمع الجزائري التقليدي وتشوبه العديد من المحرمات والممنوعات ، إلى أن تلاشت الحدود الثقافية والفكرية الفاصلة بين المجتمعات وتلاشت معها العديد من القوانين العرفية والمجتمعية الخاصة بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، والتي انعكست بطريقة أو بأخرى على المنظومة القيمية والذهنية لهذا المجتمع ، فعجلة التغير ليست مجرد إضافة ميكانيكية ولا إقصاء لبعض الأنماط والسلوك وظهور أخرى جديدة فحسب ، إنما هي إلى جانب ذلك قد تصبح تعديلا كفييا لمسافات ثقافية "2 .

وهو ذات الأمر الذي نتفق فيه مع " ماريا أوجستا" حينما اعتبرت العلاقة بين القيم والاتجاهات والتغير الاجتماعي هي علاقة متبادلة ، ففي "الوقت الذي تؤثر فيه القيم في التغير وتحدّد مساراته فإنّ التغير يؤثر في القيم وتدرجها و أنساقها القديمة"3 . وهذا ما يفتح لنا باب التساؤل : ما هي المحددات الجديدة التي اكتسبتها قيمة شرف المرأة في ظل التغيرات السوسيو- ثقافية التي شهدتها المجتمع الجزائري وتحت تأثيرهانات العولمة الثقافية والتطور التكنولوجي؟

إنّ التغير الاجتماعي الذي شهدته المجتمع الجزائري أنتج تغيرا ثقافيا ظاهرا في عدّة أبعاد ، بداية بتطور التعليم وتعميمه وصولا إلى خروج المرأة للعمل وتفلس سلطة النظام البطريكي (الأبوي)، إذ أصبحت المرأة الجزائرية امرأة عاملة تربطها علاقات مع الجنس الآخر بداية بالزمانة وصولا إلى علاقات من نوع آخر كعلاقة الصداقة مع الرجل .

وبعد محاولة هاته الأخيرة مسaire الواقع الاجتماعي الجديد كان لا بد لها من أن تتفاعل مع معطيات سوسيو-ثقافية مستجدة فرضتها العولمة والتكنولوجيا وفتحت عليها باب التغير من الشكل إلى المضمون.

إذ تعتبر "الموضة" من بين مستجدات الواقع وأول حلقة من حلقات التغير والتي أدت إلى انتشار استعمال طرق التجميل ووسائل الزينة من مساحيق ولباس عصري وعمليات تجميل وغيرها ، وضعت المرأة بين ثنائية (الكائن وما يجب أن يكون) ، فبين هذا وذاك تجسدت مظاهر تغيرها.

تغير في اللباس وتمثالاته وتغير في تصورات الجمال وتداعياته ، حتى أنّ الحجاب كمفهوم قد تغيرت مواصفاته و تصورات الفتاة له ، لكن رغم كل هذا يستمر لقب " بنت الفاميليا" التقليدي بمواصفات جديدة جعلت المجتمع يتقبل شيئا فشيئا هذا الجديد. وبذلك أصبح للمفهوم محددات جديدة وألبسته العولمة الثقافية والتكنولوجيا عباءة عصرية ، فأصبحت المرأة الشريفة وابنة العائلة هي تلك المرأة المتعلمة ، المرأة العاملة (أو الماكثة في البيت) ذات الشخصية القوية ، الصادقة في علاقتها

¹دياب فوزية ، مرجع سبق ذكره ، ص.277.

²خضر صالح سامية ، التغير الاجتماعي وتأثير بعض عناصره على تفجرات الأزمات العائلية الداخلية ، الاقتصادية، الثقافية والعنوسة (فعاليات الملتقى العربي الثالث): التغيرات الأسرية والتغيرات الاجتماعية ، قسم علم الاجتماع ، سلسلة الوصل ، الجزء الأول ، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر ، العدد الثاني ، 2006 ، ص.46.

³السيد محمد عبد البديع ، أثر القنوات الفضائية على القيم الأسرية ، العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، 2009 ، ص. 105 .

بالجنس الآخر ، الصريحة في تعاملاتها ، والمتحكمة في سلوكها الجنسي حتى وإن تعاملت مع الرجل وبنيت علاقات عاطفية معه .

فبالرغم من اختلاف تمثيلات " المرأة الشريفة" من فرد إلى آخر في الثقافة الجزائرية ، إلا أنّ الاشتراك قائم حول محددات معينة يمكن أن نطلق عليها الخطوط الحمراء التي لا يجوز الغاؤها من تمثّل الرجل ولا من سلوك المرأة ونقصد تحديداً " العذرية".

فحتى لو تعلمت المرأة وأصبحت عاملة حرّة في تنقلاتها ، في سفرها وفي بناء علاقاتها ، حتى ولو تغيّرت مفاهيم الفضاء الاجتماعي ، تغيّرت أنماط الزواج فإنها تبقى حبيسة اطار ذهني نمطي يضعها في خانة الجنس والشرف وهو الأمر الذي يحيلنا إلى سؤال جوهري (ولو أنّ الاجابة عليه صعبة لأنه اشكال في ذاتيته ، سؤال بسيط في مفرداته) : ماذا عن مصير الشرف إن حصرنا معناه في العذرية أمام الطب الحديث؟

4/ شرف المرأة بين المنظومة الذهنية التقليدية و واقع العذرية الاصطناعية:

إنّ مقولة الثبات في زمن التغير أصبحت شبه مستحيلة ، خاصة مع تعدد ظروف وعوامل التغير التي جعلت من الثابت ظاهريا متغيرا ضمنيا ومن المتغير ضمنيا ثابتا ظاهريا ، فكان أن ظهرت جدلية الثبات والتغير في زمن العولمة الثقافية .

الجديد يحمل ذهنية التقليدي والتقليدي يلبس عباءة الجديد مما زاد من التعقيد وصعوبة الفصل والتحقيق . وشرف المرأة أحد هاته الموضوعات الجدلية التي حظيت بالاهتمام والمناقشة ومحاولات البحث ، الفهم ، والتفسير .

فالشرف عموما ليس موضوعا جديدا في الساحة البحثية بل هو موضوع وجد منذ وجود البشرية حتى وإن اختلفت سياقات بحثه ومناقشاته فإنه يرتبط بالدرجة الأولى بالجنس ، هذا الأخير الذي يكتسي أهمية بالغة عند العرب لأنه مرتبط أساسا بالعرض والشرف ، وكل مقدّس فيه مباحات ومحرمات ، والمحرمات فيه عديدة ترتبط بالدرجة الأولى بالمرأة ، ولذلك دعت المرأة عند العرب "الحرمة"¹ (بضم الحاء)

هذا الكائن البيولوجي الذي ربط بالجنس حينما عرّف ككائن اجتماعي كان عليه أن يعمل جاهدا على حماية شرفه بأي وسيلة كانت ، الأمر الذي جعله يفكر بذهنيته التقليدية التي يغلب عليها الطابع التجريدي والسحري فابتكر وسائله الخاصة ومنها " الرباط".

فما المقصود بالرباط في الثقافة الجزائرية التقليدية وما علاقته بشرف المرأة؟

كيف يمكننا مقارنة هذا الأخير من "المنظور الثقافي" وما "البديل" الذي حلّ محله وجعله "راسبا ثقافيا" وفق المنظور ذاته ؟

أنظر: ابراهيم الحيدري ، مرجع سبق ذكره، ص.273.

أ. "الرباط" معتقد شعبي في الثقافة الجزائرية التقليدية...رمزيته "الخوف" من الجنس الآخر:

تعتبر ظاهرة الرباط أو طقس الاغلاق "Le nouement" ظاهرة ثقافية بامتياز عرفها المجتمع الجزائري التقليدي، وهي عبارة عن سلوك سحري كان يستخدم كوسيلة وقائية لحماية شرف الفتاة .

وكان حسب المعتقدات يمنعها "من مباشرة أي علاقات جنسية حقيقية وكاملة ، لكن لن يمنعها ذلك من ممارسة احتكاكات جنسية سطحية لن تعرض غشاء البكارة لخطر الافتضاض أو التمزيق¹.

يسمى طقس الإغلاق في الجزائر بالتصفاح (الثقاف بالمغرب) ، أما الفتاة التي مورس عليها فتتعت بـ "مصفحا مبدئيا"، وهي في هذه الحالة يستحيل أن يباشرها أي رجل مباشرة كاملة ، حتى ولو كان ذلك برضاها².

إذن يتعلق الأمر بعملية سحرية هدفها الحفاظ على شرف الفتاة وبكارتها ونسبها التصفاح أي الوقاية المؤكدة من كل خطر خارجي (هذا ما قاله "بلكدج" كذلك في كتابه " الطب التقليدي في منطقة قسنطينة" في معرض حديثه عن هذا الطقس)³. وتتحدد هذه العملية حسب "مالك شبل" في فتح فجوة من الأسفل نحو الأعلى في فخذ الطفلة ، فجوة عميقة بما فيه الكفاية إلى أن يسيل قليل من الدم وأثناء ذلك تردد سبعة مرات متتالية: "ولد الناس خيط وأنا حيط (حائط)". أياما قلائل قبل الزواج تجري العملية نفسها على نفس المكان من الجسد مع فتح فجوة – هذه المرة- من الأعلى نحو الأسفل وتردد الفتاة سبعة مرات عكس الصيغة الأولى: "ولد الناس حيط (حائط) وأنا خيط"⁴، وذلك وفق اعتقاد في فك الرباط الذي كان يحيي عذرية الفتاة .

إذ تتعدد أشكال هاته الممارسة من منطقة لأخرى ولو أن الهدف واحد ، فمثلا في ولايات الغرب الجزائري (كولاية تيسمسيلت ، سيدي بلعباس ، معسكر ، تيارت، غليزان ، شلف ...) ، كان استخدام "الرباط" بعدة طرق ، كأن يستخدم "قفل" وذلك بربطه في الرجل اليسرى للفتاة بمفتاح من طرف امرأة متقدمة في السن وعلما أن تحتفظ بذلك المفتاح إلى أن يحين موعد زواجها ، وإن حدث وأن توفيت العجوز المسؤولة عن ممارسة ذلك الطقس السحري دون أن تعلم الفتاة بمكانه ، وجب على أهل العروس لفك رباطها أن يتم استخدام " برنوس⁵ العريس" لتنمافوقه الفتاة حتى يفك رباطها⁶. كما يمارس هذا الطقس في بعض المناطق (كمدينة سيدي بلعباس) باستخدام خيط النسيج (ويسمى بخيط النيرة) و ذلك بوضع سبعة عقد وقراءة بعض

¹المزيد من المعلومات أنظر: مالك شبل ، الجنس والحريم روح السراري: السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، ترجمة عبد الله زارو، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب 2010، ص.82 ، أو يمكنكم العودة لـ: *Insaniyat* ، Adel Faouzi, La nuit de nocés ou la virilité piégée, (Revue Algérienne d'anthropologie et de sciences sociales) , *Familles d'hier et d'aujourd'hui* , N 4 , Janvier-Avril 1998 , crasc, P.8.

²مالك شبل ، المرجع نفسه، ص.82.

³المرجع نفسه، ص.82.

⁴المرجع نفسه، ص.82.

⁵البرنوس أو البرنس هو عبارة عن لباس طويل من الصوف يضم غطاء رأس مذنب وليس له أكمام ، يعتبر من بين الألبسة الجزائرية التقليدية لمزيد من المعلومات أنظر: www.wikipedia.com

⁶هذه المعلومات تم جمعها من خلال اجراء مقابلات مع شهود عيان ممن مارسن أو مورس عليهن هذا الطقس من نساء (حوالي 8 نساء).

العبارات عليه اعتقادا في فعاليتها ، وحينما تحين لحظة خروج الفتاة من منزل أهلها إلى منزل زوجها توضع تحت قدمها الأيمن حبة من " بيض الدجاج" كي تدوس عليها وهنا تحدث المعجزة بأن يتم فك رباطها (حسب اعتقادها)¹.

إذن الرباط في حقيقته عبارة عن وسيلة سحرية كانت تستخدمها النساء للحفاظ على شرف وعذرية بناتهن خاصة إذا كانت البنت تتميز بنوع من اللامبالاة في سلوكها أو أنها جميلة لدرجة تجعلها عرضة للاعتداءات الجنسية والمضايقات من الجنس الآخر ، فالمرأة "تملك جسدا فعّالا إذ تشكّل المرأة الجميلة اضطرابا جنسيا وهي خطر على الرجال، ومن أجل ذلك وجب وضع أساليب لمقاربتها... ومعنى هذا أنّ طاقتها الجنسية أكبر من أن يعمل على ارضائها رجل واحد ، إنه خوف من خروجها وبحثها عن رجال آخرين تغويهم وتغريهم"²، هذا ما أكدته " فاطمة المرينسي" مجيبة بذلك عن سؤالها الذي ضمنته في كتابها " الجنس هندسة اجتماعية" وهو " لماذا الخوف من حياة المرأة الجنسية؟".

هذا الخوف هو الذي دفع الأمهات في الأسرة الجزائرية التقليدية إلى " طرق سحرية للمحافظة على عذرية بناتهن ، وهذا يبيّن ما للعذرية من أهمية بالغة الأثر بالنسبة للمجتمع الجزائري و العربي عموما فهي قيمة ثقافية دينية وايدولوجية³.

فبغض النظر عن صحة فعالية هذه الوسيلة في المعتقد الشعبي الجزائري ، ما نستنتجه من كل هذا كباحثين أنّ هذه الظاهرة تعتبر من مؤشرات القيمة والثقل الاجتماعي الذي توليه المجتمعات العربية بما فيها المجتمع الجزائري لقيمة الشرف ، وكيف أنّ البكارة على حد تعبير "مالك شبل" " فرضت نفسها على منظومة التمثلات الجماعية باعتبارها مقولة ترمز إلى كائن قائم بذاته"⁴.

وهنا يحيلنا التحليل من جديد الى سؤال آخر : ما مصير هذا الكائن أمام العذرية الاصطناعية؟

ب. "العذرية الاصطناعية" ملمح ثقافي جديد.....رمزيته " تحدي " الجنس الآخر⁵:

ما يمكننا استنتاجه من كل ما تقدّم أنّ " العذرية" كانت ولازالت الدليل الملموس على شرف المرأة ممّا يجعل الخوف عليها ومنها الهاجس الأكبر لدى المرأة ذاتها والأسرة بأكملها ، الأمر الذي خلق لديها العديد من الميكانيزمات الدفاعية ضد الإقصاء المجتمعي ، بحيث يعكس كل ميكانيزم ذهنية خاصة حسب ثقافة المجتمع في تلك الفترة ، فمن التقليدي (الرباط) إلى الحديث (العذرية الاصطناعية) ، تتجلى رمزية كل ذهنية .

¹ هذه المعلومات مأخوذة من لسان نساء شهدن هذه الممارسة من ولايتي تيسمسيلت وتيارت تمّ اجراء مقابلة معهن حول الموضوع.

² المرينسي فاطمة ، ما وراء الحجاب (الجنس كهندسة اجتماعية) ، ط4، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب 2005 ، ص.16.

³ شبل مالك ، المرجع السابق ، ص.77.

⁴ شبل مالك ، المرجع نفسه ، ص.77.

⁵ لأننا في اطار مناقشة ظاهرة ثقافية معقدة فإنه لا يمكننا بأي حال من الأحوال تعميم المسألة على المجتمع الجزائري ككل إذ مازالت الدراسات تثبت أنّ المجتمع الجزائري مجتمع محافظ في أعماقه بالرغم من التغيرات التي يشهدها ، كما أنه لا يمكننا التعميم إلا بدراسة ميدانية موسعة تأخذ في اعتبارها عدّة أبعاد واقعية ملموسة وهدفنا من هذا المقال التحليل في بعده النظري (استنادا على دراسات في الموضوع) ، إذ يأخذ أهميته من طريقة طرح أفكاره وليس الأفكار ذاتها التي قد تكون معروفة من طرف الغالبية .

فإذا كان الأول في رمزيته يحد من العلاقة الجنسية ، فإنّ الذهنية الجديدة تفتح باب حرية بناء العلاقة الجنسية (خارج اطار الزواج) إذا غابت القيمة الدينية والأخلاقية طبعاً. فالعذرية أصبحت قابلة لإعادة الانتاج ، أي أنّ الخوف من الجنس الآخر (الرجل) قد تلاشى أمام تحديات العولمة الثقافية والتطور التكنولوجي والهاجس الذي كان يؤرق المرأة كنقطة ضعف يتصيدها الرجل ويجعلها تحت سلطة النظام الرجولي أصبحت راسبا ثقافيا في بعض جوانبها .

إذ خلقت التغيرات الجديدة في واقعها بدائل تكنولوجية تتحدى بها المرأة الرجل ، وهنا يكمن الاشكال في مصير شرف المرأة مستقبلا إن حصرنا معناها في العذرية . لأنّ هذه الأخيرة لم تعدّ نقطة عبور منتهية بعلاقة جنسية واحدة وإنما أصبحت معادة الانتاج. أي أنّ التكنولوجيا الحديثة قد أوجدت " غشاء بكاره صناعي لترقيع غشاء البكارة عند البنات اللاتي تمارسن الجنس قبل الزواج لخداع الرجل ، وذلك في ثلاث عمليات مختلفة¹:

- خياطة التمزق الحاصل في غشاء البكارة الذي قد يكون سببه اعتداء جنسي، ويجب أن تتم العملية بعد الاعتداء مباشرة لتسهيل عملية الشفاء.

- عملية تجميل كاملة حيث يتم وضع غشاء من دون تغذية دموية، وأحيانا يتم وضع كبسول من الجيلتين لمادة صناعية تشبه الدم، يتم عمل هذه العملية بأيام قليلة قبل الزواج.

- استخدام جزء من جدار المهبل مع تغذيته الدموية لعمل غشاء بكارة جديد بحيث يتم نصح المرضى بعدم ممارسة العلاقات الجنسية لمدة قد تصل إلى 3 أشهر بعد هذه العملية.

- غشاء البكارة الصناعي أو الصيني و يتكلف ثمنه من 100 دولار إلى 300 دولار....

وهي كلها طرق وأساليب لها خلفياتها وملابساتها ، والنظرة الموضوعية للأمر تحتم علينا عدم التعميم ، خاصة وأنّ "للحياء والشرف جوهر قرآني وأنها يحددان رؤى اجمالية للعالم مبنية على قواعد مطلقة وأنهما يشكلان جزء من تربية كل ناشئ مغربي"² ، وهذا ما نستشفه ونستشف نقيضه في نفس الوقت من خلال الدراسة التي قامت بها "يمينة رحو"³ ، والتي استجوبت من خلالها وفق تقنية المقابلة 15 فتاة شابة وأما عازبة ما بين سن 20 و56 سنة ، والتي تبين من خلالها أنّ هناك ذهنيات جديدة تخص العذرية كمعطى مورفولوجي رمزيته مرتبطة بالمعيار المجتمعي ومنها حسب بعض المبحوثات ربط العذرية وضرورة المحافظة عليها بمسألة السن وموضوع الزواج ، بحيث ترى بعض المبحوثات أنه بعد سن 35 سنة ليس على المرأة الحفاظ على عذريتها إن لم تحظ بفرصة زواج . فالمرأة يجب أن تعيش حياتها الجنسية بعد أن تصبح ناضجة (في حدود 40 سنة ...) ⁴ مثلها مثل الرجل والذي يعيش نوعا من التناقض في تصوراته . فهو في الوقت الذي يؤيد فيه علاقاتها الجنسية قبل

¹www.Wikipédia.org

²بوحدبية عبد الوهاب، المغاربة والمسألة الجنسية أو المجتمع المغربي إزاء المسألة الجنسية ، مجلة الفكر العربي المعاصر (مجلة علمية محكمة ، بيروت) ، عدد أفريل /مارس ، 1988، ص. 35 .

³RahouYamina , La pratique de l'hyméoplastie comme stratégie de réintégration dans la norme sociale *Insaniyat* ,Op.Cit ,N 62 ,Octobre- décembre,2013.

⁴*Ibid*,P.153.

الزواج¹ يعتبر عذرية المرأة شرط أساسي في ارتباطها بها كزوجة ، الأمر الذي خلق لدى بعض النساء ذهنية جديدة تتمثل في تحدي الرجل أو بالأحرى معاقبته والانتقام منه بطريقة أخرى وهي جراحة ترميم غشاء البكارة .

فبين من ترى فيه وسيلة تحدي وانتقام من الرجل باعتباره السبب في فقدها نتيجة حمين الصادق له هناك من ترى في عملية استعادة عذريتها جراحيا ضرورة لإعادة الاندماج في المجتمع باعتبار الزامية المعيار الاجتماعي المتعلق بالعذرية ، فقدها (حسب تصريحات غالبية المبحوثات التي أجرت معهن "يمينة رحو" المقابلات) لم يكن بإرادتهن². وأنّ هذه الأخيرة لازالت تأخذ قيمتها من خلال جانبين : الأول الجانب الديني في المجتمع الاسلامي على اعتبار أنّ أي علاقة جنسية خارج الزواج تعتبر زنا والثاني معياري مستمد في أحد أبعاده من الجانب الأول وهو أنّ العذرية تضمن للمرأة اندماجها داخل المجتمع وإلا فهي معرضة بالمقابل للنبيذ الاجتماعي .

وهنا نلاحظ جليا تذبذبا أو بالأحرى نوع من الاغتراب لدى المرأة في تمثيلها للشرف ولدى الرجل في تمثله لعلاقته بالمرأة ، فبين واقع ملموس فرضته تحديات العولمة الثقافية وبين قوّة الضمير الجمعي تختلف الذهنيات إلى حد التناقض ، إذ ظهور " جراحة غشاء البكارة " جعل العذرية تقع في سياق يجعل منها مفهوما بمعنى جديد (jetable) يعني أنها قابلة للتجديد محدودة الصلاحية ، نهايتها تكون بعلاقة جنسية عابرة باسم الحب .

ويبقى العامل المادي أو التكلفة المالية لهذه العمليات كمؤشر يعكس التكلفة الاجتماعية لفقد العذرية³ ففي الجزائر المبلغ يقدر بـ 50000 و 100000 دينار أي ما يعادل 400 إلى 700 أورو⁴.

من كل ما سبق ووفق المقاربة الثقافية في تحليل موضوع الشرف نجد أنّ عناصر الثقافة تمر بعدة مراحل وفق سيروية التغير وأنّ كل مرحلة تاريخية تحمل جملة من الذهنيات بحسب السياقات السوسيو اقتصادية ، فالشرف كقيمة والعذرية كأحد محدداته تجلت موضوعاتها في عدّة أشكال من التقليدي إلى الحديث ومن الوظيفي ثقافيا إلى الراسب ثقافيا مثلما هو الحال مع الرباط والعذرية الاصطناعية .

خاتمة:

باختصار يمكن القول أنّ الشرف كقيمة مركزية في المجتمع الجزائري قد تغيرت محدداتها نسبيا بين الماضي والحاضر . إذ أنّ التمثلات والتصورات الاجتماعية للعلاقة بين الجنسين وكذا القيم التي تحكمها لم تأت من عدم وإنما هي نتاج إطارات مرجعية وبنيات سوسيو-ثقافية ، فهي ناتجة عما يعتدل في العقل الجمعي المجتمعي وهذا ما تحدده سيروية التنشئة الاجتماعية من جهة وواقع الحال من جهة أخرى ، ولكن المؤكد أنه بالرغم من تغير التمثلات والقيم إلا أنّ هناك استمرارية نسبية لبعض التمثلات التقليدية الخاصة بالمرأة تحديدا ، والتي يمكن تلخيصها في قول " رمزي أبادير " : " يبقى خلق الإناث

¹دراسة " حفي " شملت 300 رجل طرح عليهم سؤال العذرية ، فوجد أنّ 83.7% من الرجال يرون أنّ العذرية عند المرأة قبل الزواج قاعدة اجتماعية لا بد من الحفاظ عليها ونفس النسبة تقريبا 82% منهم يرون أنّ الزواج بالنسبة للرجل ليس بالضرورة السبيل الوحيد لاشباع الرغبة الجنسية ... لمزيد من التفاصيل أنظر : Rahou Yamina, *Ibid*, p154

²*Ibid*, P.152

³Rahou Yamina, *Op.cit*, P.155

⁴في تونس 1200 أورو ، في مصر سنة 1997 قدر مبلغ ترميم غشاء البكارة بـ 600 دولار ، تركيا 140 و 1500 دولار ، في الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة في المناطق التي تعيش فيها جاليات اسلامية من المشرق يختلف المبلغ باختلاف الموقع الجغرافي بين 2500 و 4500 دولار أمريكي في الأرجنتين هناك عيادة تقترح مبلغ 2435 دولار أمريكي.... لمزيد من المعلومات أنظر : Rahou Yamina, *Ibid*, P.155

كمضايقة يتوارثها الأجيال في كل من المشرق والمغرب العربيين¹ ، بالرغم من التطورات والتغيرات الملموسة التي شهدها المرأة ككائن اجتماعي.

قائمة المراجع:

1/ الكتب:

أ. باللغة العربية:

1. أبو جاد وصالح محمد علي ، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية ، ط2 ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان ، الأردن ، 2000 .
2. أنجلز ماريا ، أنثروبولوجية الحياة اليومية في المتوسط ، موسوعة البحر الأبيض المتوسط ، ترجمة حسن بن منصور ، سلسلة الوقت الحاضر ، الجزائر ، 2005.
3. التركي ثريا وزريق هدى ، تغير القيم في العائلة العربية ، سلسلة دراسات عن المرأة العربية والتنمية رقم واحد وعشرون ، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا ، عمان ، الأردن ، 1995.
4. الحافظ منير ، الجنسانية أسطورة البدء المقدس ، دار الفرقد ، دمشق ، سوريا ، 2008.
5. الحيدري ابراهيم ، النظام الأبوي واشكالية الجنس عند العرب ، دار الساقى ، بيروت ، لبنان ، 2003.
6. الخوري فؤاد اسحاق ، ايديولوجيا الجسد: رموزية الطهارة والنجاسة ، دار الساقى ، بيروت ، لبنان ، د.ت.
7. دافيد لوبروتون ، أنثروبولوجيا الجسد والحداثة ، ترجمة محمد عرب صاصيلا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان ، 1997.
8. دياب فوزية ، القيم والعادات الاجتماعية (مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية) ، الطبعة الثانية دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1980.
9. سكوت جون ، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية ، ترجمة محمد عثمان ، لبنان ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت ، 2009 .
10. السيد محمد عبد البديع ، أثر القنوات الفضائية على القيم الأسرية ، العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، 2009.
11. صالح بن عبد الله بن حميد ، عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان بن ملوح ، موسوعة نظرة التعميم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع ، جدّة ، السعودية ، 1998.
12. طبشوش نسيم ، القنوات الفضائية وأثرها على القيم الأسرية لدى الشباب ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011.
13. علي غزال عبد الفتاح ، موسوعة التربية الأسرية (الأسرة والتنشئة الاجتماعية) ، الجزء الأول دار الجامعة الجديدة ، الاسكندرية ، مصر ، 2013.

¹Abadir Ramzi (S) , La femme arabe au Maghreb et au Machreck, fiction et réalités , ENAL , Alger,1986 ,P. 114

14. الكيال باسمة، سيكولوجية المرأة، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1983.
15. مالك شبل، الجنس والحريم روح السراري، السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، ترجمة عبد الله زارو، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 2010.
16. المريني فاطمة، ما وراء الحجاب (الجنس كهندسة اجتماعية)، ط4، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
- ب. باللغة الفرنسية:
17. Abadir Ramzi Sonia, *La femme arabe au Maghreb et au Machreck, fiction et réalité*, ENAL, Alger, 1986.
18. AddiLhouari, *Mutation de la société Algérienne, Famille et lien sociale dans l'Algérie contemporaine*, La découverte, Paris, 1999.
19. Boucebc Mahfoud, *Psychiatrie, société et développement en Algérie*, ENAL, Alger, 1987.
20. Julian Pitt-Rivers, *Anthropologie de l'honneur*, Le Sycomore, Paris, 1983.
21. Lacoste Dujardin Camille, *Des mères contre des femmes, maternité et patriarcat au Maghreb*, Ed Bouchéne, Alger, 1990.
22. Sylviane Agacinski, *Femmes entre sexe et genre*, Ed Du Seuil, La librairie du XXIème siècle, Paris.
23. Zerdoumi Nafissa, *L'enfant d'hier, l'éducation de l'enfant en milieu traditionnel Algérien*, François Maspero, Paris, 1982.

2/ المجالات والدوريات:

1. مجلة الحوار الثقافي (مجلة فصلية أكاديمية محكمة تصدر عن مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي وفلسفة السلم، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر)، عدد خريف / شتاء، 2010.
2. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية (مجلة فصلية مختصة في العلوم النفسية)، العدد 22/21 شتاء / ربيع 2009.
3. مجلة الفكر العربي المعاصر (مجلة علمية محكمة، بيروت)، عدد أفريل / مارس، 1988.
4. *Insaniyat* (Revue Algérienne d'anthropologie et de sciences sociales), Familles d'hier et d'aujourd'hui, N4, Janvier-Avril 1998, Crasc.
5. *Insaniyat* (Revue Algérienne d'anthropologie et de sciences sociales), N62, Octobre – Décembre 2013.

3/ الملتقيات العلمية:

- الملتقى العربي الثالث، التغيرات الأسرية والتغيرات الاجتماعية، قسم علم الاجتماع، سلسلة الوصل، الجزء الأول، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، العدد الثاني، 2006.



4/ الرسائل الجامعية (الأكاديمية):

دحماني سليمان ، ظاهرة التغير في الأسرة الجزائرية (العلاقات) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، قسم الثقافة الشعبية ، فرع الأنثروبولوجيا ، الجزائر ، 2006/2005.
عقاب نصيرة ، التنشئة الاجتماعية وأثرها في السلوك والممارسات الاجتماعية للفتيات (رسالة ماجستير غير منشورة) ، معهد علم الاجتماع ، جامعة الجزائر ، 1995/1994.

5/ المواقع الالكترونية:

www.wikipédia.org

Dans les deux cas, il

التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات

أحد محددات الموهوبين فيها لدى تلاميذ الثالثة متوسط

د.عقيل بن ساسي/جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى التحقق من مدى صلاحية التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات كمحدد للموهوبين فيها والكشف عن مستوى التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات لديهم، وذلك حسب الدرجة العامة للمقياس و أبعاده الستة (المعرفة التقريرية، المعرفة الإجرائية، المعرفة الشرطية، التخطيط، المراقبة، التقويم). تكونت عينة الدراسة من 35 تلميذا (19 ذكرا، 16 أنثى) موهوبا في الرياضيات في مستوى الثالثة متوسط اختيروا باستعمال ثلاث أدوات على التوالي: ملاحظات أساتذتهم للرياضيات، اختبار رافنRaven للذكاء، ثم طبق عليهم مقياس التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات من إعداد الباحث. سحبت هذه العينة من 8 متوسطات اختيرت عشوائيا من متوسطات مدينة ورقلة. بعد تحليل البيانات إحصائيا باستعمال برنامجي Excel 2010 و SPSS20.0 أسفرت الدراسة عن النتائج الآتية:

- صلاحية مقياس التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات كأحد محددات الموهوبين فيها.
- حقق الموهوبون في الرياضيات مستوى عاليا في التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات وذلك حسب كل من الدرجة العامة للمقياس و أبعاده الستة (المعرفة التقريرية، المعرفة الإجرائية، المعرفة الشرطية، التخطيط، المراقبة، التقويم).
- الكلمات المفتاحية: التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات، الموهوبة في الرياضيات.

مقدمة:

يعتبر مفهوم ما وراء المعرفة Metacognition واحدا من التكوينات المعرفية المهمة في علم النفس المعرفي المعاصر، وقد ظهر هذا المفهوم في السبعينات من القرن 20 على يد جون فلافل John Flavell¹، وذلك نتيجة أبحاثه حول تطور الذاكرة و التذكر، إذ يرى أن عمليات تطور الذاكرة في جزء كبير منها هو نتيجة تطور بنية الذكاء والمراقبة الذكية لعمليات تخزين المعلومات و استرجاعها. لذا فان الفرد الواعي أكثر بالعمليات السابقة يصبح لديه قدرة أكبر على تنظيم أفكاره وتوجيهها لتحقيق أهداف محددة، وبالتالي يصبح لديه القدرة على التفكير حول تفكيره². ويرى جروان أن التفكير ما وراء المعرفي هو مهارات عقلية معقدة تعد من أهم مكونات السلوك الذكي في معالجة المعلومات، وتنمو مع التقدم في العمر والخبرة، وتقوم بمهمة السيطرة على جميع نشاطات التفكير العاملة الموجهة لحل المشكلة، و استخدام القدرات أو الموارد المعرفية للفرد بفاعلية في مواجهة متطلبات مهمة التفكير³.

تعد الرياضيات أكثر المواد مساهمة في تحقيق هذا الهدف، فالمتعلم في دراسته لهذه المادة يمارس الأنشطة التفكيرية المختلفة في كل مراحل تعلمها بدءاً من بذل الجهد العقلي لتذكر المعلومات ومروراً بإدراك العلاقات بين المعطيات والمعلومات السابقة ذات العلاقة بالمشكلة واستخلاص خطوات الحل منها وانتهاء بالربط بين هذه الخطوات للتوصل إلى الحل الصحيح ثم تقويمه⁴. إن بناء منهاج الرياضيات المتميز على مجموعة من العناصر أهمها التفكير ما وراء المعرفي يعطيه بعداً أساسياً في التحول من تعليم المعرفة إلى تعليم التفكير و الإبداع. وكنموذج للدول الرائدة في هذا المجال سانغفورة التي تربعت على كرسي التتويج في الرياضيات، حيث نالت الرتبة الأولى في المسابقات الدولية للرياضيات مثل Trends in International Mathematics and Science Study (TIMSS) في ثلاث دورات متتالية 1995، 1999، 2003، و نالت الرتبة الثانية في دورتي 2007، 2011 في مستوى الصف الثامن. إن أحد مميزات النظام التربوي في سانغفورة منهاج الرياضيات، حيث يستخدم إطار واحد لجميع منهاج الرياضيات و في كل المراحل التعليمية مع اختلاف في التفاصيل فقط في كل مستوى. تهدف منهاج الرياضيات إلى تطوير القدرات الرياضية للتلاميذ، مع التركيز على القدرة على حل المشاكل. يعتبر التفكير ما وراء المعرفي Metacognition أحد العناصر الخمسة المترابطة المكونة لمنهاج الرياضيات و الساعية لدعم و تطوير القدرة على حل المشكلات، و الممثلة في مضلع خماسي منتظم و الذي يوحى بالأهمية المتساوية لكل جانب⁵.

فالتفكير الإبداعي هو عملية تساعد الفرد على أن يكون أكثر حساسية للمشكلات، وجوانب النقص والتغيرات في مجال المعرفة و المعلومات، و الخلل في الانسجام، وتحديد مواطن الصعوبة، والبحث عن حلول، والتنبؤ وصياغة فرضيات واختبارها وإعادة

¹ الشربيني فوزي، و الطناوي عفت، "استراتيجيات ما وراء المعرفة بين النظرية والتطبيق"، ط1، المنصورة: المكتبة العصرية، 2006، ص 35.

² Flavell, John H. : "Metacognitive aspects of problem solving". In L. B. Resnick (Ed.), The nature of intelligence (pp.231-236). Hillsdale, NJ: Erlbaum, 1976.

³ جروان فتحي عبد الرحمن: "تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات"، ط5، عمان: دار الفكر، 2012، ص 50.

⁴ بثينة محمد بدر. "أثر التدريب على استراتيجيات ما وراء المعرفة في تنمية أساليب التفكير لدى طالبات قسم الرياضيات في كلية التربية بمكة المكرمة"، مجلة مستقبل التربية العربية، 2(41)، 2006، ص ص 114-136.

⁵ بن ساسي، عقيل: "فاعلية بعض المهارات التدريسية في رفع مستوى كل من التفكير ما وراء المعرفي و التحصيل الدراسي في الرياضيات لدى تلاميذ الثالثة متوسط"، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013.

صياغتها، أو تعديلها من أجل التوصل إلى نواتج جديدة يستطيع الفرد نقلها للآخرين¹. حيث يعرف جروان مفهوم التفكير الإبداعي بأنه نشاط عقلي مركب وهادف توجهه رغبة قوية في البحث عن حلول أو التوصل إلى نواتج أصيلة لم تكن معروفة سابقا. ويتميز التفكير الإبداعي بالشمولية و التعقيد، لأنه ينطوي على عناصر معرفية و أخلاقية متداخلة تشكل حالة ذهنية فريدة².

إن ما وراء المعرفة تتطور بصورة مبكرة لدى الطلبة الموهوبين على العكس من الطلبة غير الموهوبين، فقد وجد (Schofield&Ishman, 1997) إن طلبة الصفين الخامس والسادس الموهوبين سجلوا درجات أعلى على مقاييس التخطيط لما وراء المعرفة من الطلبة غير الموهوبين³.

حدد الأدب النظري ثلاثة نماذج لوصف العلاقة بين الذكاء ومهارة ما وراء المعرفة باعتبارها منبئات للتعلم. يتعلق النموذج الأول بالتفكير ما وراء المعرفي بوصفها مظهرا من مظاهر الذكاء. وفقا لهذا النموذج مهارات ما وراء المعرفة لا يمكن أن تكون لها قيمة تنبؤية للتعلم مستقلة عن الذكاء. وعلى النقيض من النموذج السابق يعتبر النموذج الثاني الذكاء و التفكير ما وراء المعرفي منبئان مستقلان تماما للتعلم. أما النموذج المختلط فيرى أن التفكير ما وراء المعرفي يرتبط بالذكاء إلى حد ما للتنبؤ بالتعلم⁴.

يهتم المنحى السيكمومتري بقياس القدرات الإبداعية كما يحدث في قياس القدرات الأخرى كالذكاء، ويبرز في هذا الاتجاه تورانس Torrance و اختباره الشهير المسعى باسمه و الذي يقيس القدرات الإبداعية المتمثلة في الطلاقة، و المرونة، و الأصالة، و التفاصيل. كما أكد جيلفورد Guilford على الدور الذي يلعبه التفكير المتباعد في توليد أفكار إبداعية للمشكلة التي تواجه الفرد، و هو معاكس للتفكير المتقارب الذي يهتم بتوليد إجابات محددة، و يشجع التفكير المتقارب بشكل كبير في المدارس، لأن أغلب المدرسين يركزون عليه⁵. إن أكثر الطرق شيوعا في الكشف على التلاميذ الموهوبين هي:

أ. اختبارات الذكاء: وهذا الأسلوب من أساليب التعرف على الموهوبين، ينظر إليه البعض بعين الشك والريبة لأن محتوى الاختبارات لا يثير الأصالة والابتكار لدى الطلاب، في حين ينظر إليه البعض الآخر على أنه الأسلوب الموضوعي الوحيد.

¹Torrance,E.P. :“Guiding Creative Talent”. Prentice Hall Of India , New Delhi, 1969, p. 28.

²جروان فتحي عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 77.

³شبر أحمد محمد حسين: "دراسة مقارنة في استراتيجيات إدراك ما وراء المعرفة على وفق الأسلوب المعرفي (التجريدي - العياني) لدى طلبة الخامس الإعدادي"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل، 2010.

⁴Veenman, M. V. J., Kok, R., &Blote, A. W. ;“The relation between intellectual and metacognitive skills in early adolescence”. Instructional Science, 33(3), 2005, 193–211.

⁵أبو جادو صالح محمد علي، و نوفل محمد بكر: "تعليم التفكير النظرية والتطبيق"، عمان: دار المسيرة، 2007، ص ص 138-139.

ب. الإنجازات السابقة: ويعتبر هذا الأسلوب منا لأساليب الشائعة في الكشف عن الموهوبين، لأن الابتكار هو تلك العملية التي يقوم بها الفرد، والتي تؤدي إلى اختراع شيء جديد بالنسبة إليه، وأن الموهبة هي تلك العملية التي تؤدي إلى إنجازات متميزة من خلال تناول الأطفال لبعض الأشياء والأدوات¹.

ج. ملاحظات المدرسين: يعد ترشيح المعلمين للأطفال الموهوبين في الرياضيات أحد الإجراءات المهمة المستخدمة على نطاق واسع عند تحديد الطلاب الموهوبين الذين ترشحهم مدارسهم للالتحاق بالبرامج و الخدمات الإثرائية الخاصة بالموهوبين. ويرجع سبب انتشار هذا الأسلوب في التعرف على الموهوبين إلى أن الأطفال الموهوبين يتميزون عن أقرانهم العاديين بمجموعة من الخصائص المعرفية و الدافعية و الشخصية التي قد لا يتم التعرف عليها من خلال اختبارات الذكاء التقليدية أو الاختبارات التحصيلية². وقد قام رونزولي Renzulli بتصميم مقياس للتقدير يمكن من خلاله أن يضع المعلمون تقديراتهم عن تلاميذهم، والدرجات المرتفعة التي يحصل عليها الأطفال في مجالات المقاييس التقديرية، والإشارة إلى وجود مكونات الموهبة عندما يتم تقييمها بالأساليب الموضوعية³.

حظي موضوع التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات و صلته بالموهبة فيها باهتمام العديد من الباحثين في مجالات مختلفة، سنقتصر على الدراسات ذات الارتباط الوثيق بالدراسة الحالية وهي:

دراسة بن ساسي و قريشي (2013)⁴ هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن طبيعة العلاقة بين التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات و الذكاء العام لدى تلاميذ الثالثة متوسط، و فحص ما إذا كانت هذه العلاقة تتأثر بمتغيري مستوى التحصيل الدراسي والجنس. تكونت عينة الدراسة من 130 تلميذا (66 ذكرا، 64 أنثى) اختيروا بطريقة عشوائية من متوسطة عبد القادر قريشي بالرويسات ورقلة. و لتحقيق أهداف الدراسة استعمل مقياس التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات، واختبار رافن Raven للذكاء، و استعملنا لقياس مستوى التحصيل الدراسي معدلات الفصل الأولي مادة الرياضيات. أجريت الدراسة في الموسم الدراسي 2012/2011، و بعد تحليل البيانات إحصائيا باستعمال برنامجي Excel 2007 و SPSS 19.0 أظهرت الدراسة النتائج الآتية:

- وجود علاقة دالة إحصائيا عند 0.01 بين التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات و الذكاء العام لدى تلاميذ الثالثة متوسط.
- لا تختلف طبيعة العلاقة بين التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات و الذكاء العام لدى تلاميذ الثالثة متوسط اختلافا دالا إحصائيا باختلاف الجنس.

¹ الشهراني ناصر بن عبدالله: "مدى تو افرمهارات اكتشاف ورعاية الموهوبين في برامج إعداد المعلمين في جامعة أم القرى"، مجلة التربية العلمية 13 (6)، 2010، ص ص 131 – 163.

² الجغيمان عبد الله ، و عبد المجيد أسامة: "إعداد قائمة خصائص الأطفال الموهوبين السعوديين وتقنياتها من سن 3 إلى 6 سنوات". رسالة التربية و علم النفس، الجمعية السعودية للعلوم التربوية و النفسية، الرياض، العدد 31، (2008)، ص 12.

³ الشهراني ناصر بن عبد الله، مرجع سابق، 2010.

⁴ بن ساسي عقيل، و قريشي عبد الكريم: "طبيعة العلاقة بين التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات و الذكاء العام لدى تلاميذ الثالثة متوسط دراسة ميدانية بمدينة ورقلة-". مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، العدد 12، 2013، ص 1.

- تختلف طبيعة العلاقة بين التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات و الذكاء العام لدى تلاميذ الثالثة متوسط اختلافا دالا إحصائيا عند 0.05 باختلاف مستوى التحصيل الدراسي (مرتفع/منخفض).
- لا تختلف طبيعة العلاقة بين ما وراء المعرفي في الرياضيات و الذكاء العام لدى تلاميذ الثالثة متوسط اختلافا دالا إحصائيا باختلاف مستوى التحصيل الدراسي (مرتفع/عادي، عادي/منخفض).
- دراسة أراني ومباركه¹ (Arani and Mobarakeh 2012) سعت هذه الدراسة إلى استقصاء طبيعة العلاقة المحتملة بين الذكاء المنطقي الرياضي والوعي ما وراء المعرفي المستخدم في عملية الفهم القرائي. وتحقيقا لهذه الغاية طبق مقياس الذكاءات المتعددة المطور لقياس الذكاء المنطقي الرياضي ومقياس الوعي ما وراء المعرفي في استراتيجيات القراءة على 98 طالبا (55 إناث و 43 ذكور) تخصص انجليزية من جامعة التربية للمعلمين بإيران. وبعد تحليل البيانات إحصائيا توصلت الدراسة إلى:
 - وجود علاقة دالة إحصائيا بين الذكاء المنطقي الرياضي و الوعي ما وراء المعرفي في الفهم القرائي.
 - طبيعة هذه العلاقة لم تتأثر بمتغير الجنس.
- دراسة السباتين² (2006) هدفت هذه الدراسة إلى استقصاء لفروق في مستوى مهارات التفكير فوق المعرفي بين الطلاب الموهوبين وأقرانهم العاديين بالمرحلة المتوسطة في مدارس مكة المكرمة. تكونت عينة الدراسة من 140 تلميذا بالمرحلة المتوسطة، مقسمين إلى: 68 تلميذا موهوبا ممن ألقوا بمركز رعاية الموهوبين منهم 36 ذكرا و 32 أنثى، أما عينة العاديين فقد اشتملت على 72 تلميذا من مدارس المرحلة المتوسطة العامة، اختيروا بطريقة عشوائية، منهم 36 ذكرا و 36 أنثى. طبقت أداة للدراسة على شكل مقياس لمهارات التفكير فوق المعرفي الثلاث بعد التحقق من دلالات الصدق والثبات على عينة الدراسة. وتم استخدام تحليل التباين المتعدد MANOVA لفحص فرضيات الدراسة وقد خلصت الدراسة إلى نتائج أهمها:
 - يستخدم التلاميذ الموهوبون مهارات التفكير فوق المعرفية في أشكالها الثلاثة التخطيط، المراقبة، التقويم عند قيامهم بحل المسألة الرياضية بدرجة أكبر من التلاميذ العاديين.
 - كما أشارت النتائج إلى وجود فروق على مستوى الصف الدراسي في استخدام مهارات التفكير فوق المعرفي تزداد وبصورة إيجابية مع زيادة مستوا لصف الدراسي للتلاميذ.
 - في حين أشارت النتائج إلى وجود فروق على مستوا لجنس في استخدام مهارة التقويم لصالح الذكور، وأن البنات يتفوقن في استخدامهن لمهارة التخطيط بدرجة أكبر من الذكور.

¹Arani, Hossein K. and Mobarakeh, Sajad D: "Metacognitive Strategies and Logical/ Mathematical Intelligence in EFL Context: Investigating Possible Relationships: Theory and Practice in Language Studies", 2(2), 2012, 304-313, ACADEMY PUBLISHER Manufactured in Finland.

²السباتين أحمد إسماعيل أحمد: "دراسة مقارنة لمستوى مهارات التفكير فوق المعرفي بين الطلاب الموهوبين وأقرانهم العاديين بالمرحلة المتوسطة في مدارس مكة المكرمة"، رسالة ماجستير غير منشورة لدى كلية الدراسات التربوية العليا، عمان: جامعة عمان العربية، 2006.

دراسة أبوعليا¹ (2003) التي هدفت إلى تحديد الفروق في أشكال المعرفة فوق المعرفية في مجال الإعداد للامتحانات و أدائها بين الطلاب الموهوبين من مستوى الصف العاشر بمدرسة اليوبيل في الأردن والطلاب المتفوقين تحصيليا من نفس المستوى في المدارس العامة، من منظور المعارف (التقيرية، الإجرائية، الشرطية) وقد تكونت عينة الدراسة من 190 طالبا و طالبة موزعين كالآتي: مجموعة الموهوبين تكونت من 55 طالبا و 41 طالبة ومجموعة المتفوقين تحصيليا تكونت من 49 طالبة و 45 طالبا.

طبق عليهم اختبار من إعداد الباحث لتعيين مستوياتهم في أشكال المعرفة فوق المعرفية لدى الطلبة في مجال الإعداد للامتحانات وأدائها.

وقد بينت النتائج وجود فروق ذات دلالة إحصائية لصالح مجموعة الموهوبين في امتلاك واستخدام أشكال المعرفة فوق المعرفية الثلاثة، وأنهم أكثر وعيا وإدراكا بالأسباب التي تدفعهم لتبني استراتيجية معينة دون غيرها خلال التحضير للامتحان أو تقديمه.

من خلال عرض الدراسات السابقة يسجل الباحث الملاحظات الآتية:

- أكدت جميع الدراسات السابقة على أن ذوي الذكاء المرتفع و الموهوبين يستخدمون مستويات عليا من التفكير ما وراء المعرفي.
- تنوعت المناهج التي اتبعتها الدراسات السابقة حسب الأهداف التي تسعى إل تحقيقها بين المنهج التجريبي و شبه التجريبي و الوصفي الارتباطي.
- توصلت دراسة أراني ومباركه Arani and Mobarakeh إلى أن طبيعة العلاقة بين التفكير ما وراء المعرفي و الذكاء لا تتأثر بالجنس. و أشارت دراسة إلى أن الموهوبين يستعملون مهارات التفكير ما وراء المعرفي في حل المسائل الرياضية أكثر من العاديين.
- أجريت الدراسات السابقة على عينات في مراحل تعليمية مختلفة من الابتدائي إلى الجامعي و يعتبر هذا أحد الأسس التي تستند إليها الدراسة الحالية في تطبيقها على تلاميذ الثالثة متوسط.
- إن الاختلاف بين الدراسة الحالية و الدراسات السابقة من حيث العينة، و الأدوات، و البيئة، و المجال (الرياضيات) هو ما يبرر إجراؤها، ونظرا لندرة الدراسات التي تناولت التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات كمحدد للموهوبين فيها سواء على المستوى المحلي أو العربي، ووفقا للتوجهات العالمية الجديدة في تصميم المناهج على أساس تعليم التفكير، و لوجود توجهات في الجزائر تسعى إلى الاهتمام بالموهوبين في الرياضيات و إنشاء ثانوية الامتياز في هذه المادة، و في ظل نمو رغبة مجتمعية لرعاية هذه الفئة الهامة من المجتمع و لندرة المقاييس المحددة لهم، تأتي هذه الدراسة لتبحث في التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات لدى تلاميذ الثالثة متوسط كمحدد للمبدعين فيها من خلال الإجابة على التساؤلات الآتية:

تساؤلات الدراسة:

- هل يعتبر التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات أحد المحددات الموهوبين فيها لدى تلاميذ الثالثة متوسط؟

¹ أبو عليا محمد: "الفروق في المعرفة ما وراء المعرفية بين الموهوبين والمتفوقين من طلاب الصف العاشر بالأردن"، المجلة التربوية، البحرين، 17(66)، 2003، ص13.

- ما مستوى التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات حسب كل مهارة (المعرفة التقريرية، المعرفة الإجرائية، المعرفة الشرطية، التخطيط، المراقبة، التقويم) لدى الموهوبين فيها من تلاميذ الثالثة متوسط؟

فرضيات الدراسة:

من خلال نتائج الدراسات السابقة و كحل مؤقت لتساؤلات الدراسة صاغ الباحث الفرضيات على النحو الآتي:

- يتوقع أن يكون التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات محددًا للموهوبين فيها من تلاميذ الثالثة متوسط.
- يتوقع أن يكون مستوى التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات مرتفعًا سواء حسب الدرجة العامة أو حسب كل بعد (المعرفة التقريرية، المعرفة الإجرائية، المعرفة الشرطية، التخطيط، المراقبة، التقويم) لدى الموهوبين فيها من تلاميذ الثالثة متوسط.

الهدف من الدراسة:

تسعى الدراسة الحالية إلى:

- التحقق من مدى صلاحية التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات كمحدد للمبدعين فيها.
- الكشف عن مستوى التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات لدى الموهوبين فيها وذلك حسب كل من الدرجة العامة للمقياس و أبعاده الستة (المعرفة التقريرية، المعرفة الإجرائية، المعرفة الشرطية، التخطيط، المراقبة، التقويم).

أهمية الدراسة:

تكتسي هذه الدراسة أهمية من خلال:

- أهمية المتغيرات التي تتناولها و هي التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات، التفكير الابداعي و بخاصة أنها تنسجم مع التوجهات الجديدة للسياسة التربوية في الجزائر بالاهتمام بالموهوبين في الرياضيات.
- يعتبر مفهوم التفكير ما وراء المعرفي أحد مكونات النظرية المعرفية في علم النفس المعاصر، حيث وجد هذا المفهوم اهتماما ملموسا على المستويين النظري والعملي، و لحدثة هذا المفهوم فهو محل اهتمام الباحث في هذا الدراسة وبخاصة في البيئة المدرسية الجزائرية لندرة الدراسات في هذا المجال.

- يتوقع أن يستفيد منها في التوجيه التربوي وتحديد الموهوبين في الرياضيات.

الطريقة والاجراءات.

لتحقيق أهداف هذه الدراسة اتبع الباحث المنهج الوصفي لمناسبته موضوعها.

عينة الدراسة: اختار الباحث 08 متوسطات عشوائيا من مدينة ورقلة الكبرى (دائرتا: ورقلة و سيدي خويلد) في الموسم الدراسي 2014/2015، ثم طلب من أساتذة الرياضيات للثالثة متوسط تحديد تلاميذهم الموهوبين فيها، حيث تم تعيين 78 موهوبا (38 ذكرا، 40 أنثى). وبعد تطبيق اختبار المصفوفات المتتابعة لرافن صار العدد النهائي 35 تلميذ موهوبا (19 ذكرا، 16 أنثى).

أدوات الدراسة: لجمع بيانات الدراسة الحالية استخدم الباحث الأدوات الآتية وذلك انطلاقاً من أساليب تحديد الموهوبين فيها و هي على الترتيب الزمني في استعمالها:

– ملاحظات المدرسين: طلب من كل أستاذ(ة) رياضيات يدرس مستوى الثالثة في هذه المتوسطات المسحوبة تحديد تلاميذه الموهوبين في الرياضيات. نتيجة لهذه العملية كان عدد التلاميذ المختارين 78 تلميذاً (38 ذكراً، 40 أنثى).

– اختبار المصفوفات المتتابعة المقنن لقياس الذكاء (الصورة المعدلة 1958): أعده جون رافن John Raven و قام بنشره لأول مرة سنة 1938. وقد صمم على أساس نظري لاختبار صحة الافتراض الذي قدمه تشارلز سيرمان للعامل العامل الذي يعكس القدرة العقلية العامة للإنسان. كما أنه أداة للتمييز بين المستويات العقلية المختلفة دون التأثير بعامل التحصيل الدراسي، وهو اختبار غير لفظي وعبر حضاري لا يتأثر بعوامل البيئة الجغرافية، يصلح للاستخدام مع الأفراد الذين تقع أعمارهم ما بين 8 إلى 65 سنة، كما يمكن تطبيقه بشكل فردي أو جماعي¹. يتألف الاختبار من ستين مصفوفة مقسمة إلى خمس مجموعات هي (أ، ب، ج، د، هـ) وتحتوي كلا منها اثني عشرة مصفوفة، والمصفوفة عبارة عن شكل هندسي تنقصه قطعة وضعت مع بدائل تتراوح بين ستة إلى ثمانية بدائل، وعلى المفحوص أن يختار القطعة الممتمة للشكل ويسجل رقمها في نموذج تسجيل الإجابات، ودرجة المفحوص هي المجموع الكلي للإجابات الصحيحة، وفي كل مجموعة تكون المصفوفة الأولى واضحة ويسهل إيجاد حلها بشكل كبير، وتتدرج المصفوفات التي تليها في الصعوبة، ويساعد ترتيب المصفوفات على هذا النحو في تدريب المفحوص على حل مسائل الاختبار². وتشير نتائج العديد من البحوث والدراسات التي أجريت على الاختبار أنه يتمتع بدرجة عالية من الثبات والصدق³. ومن بين الدراسات التي طبقت في الجزائر دراسة سائحي وذلك بغرض ضبط المتغيرات غير التجريبية⁴. و لنفس الغرض استعمله الباحث في دراسات سابقة⁵. وقد طبق بشكل الكتروني في هذه الدراسة من خلال برنامج أعده الباحث باستعمال لغة خاصة بنظام الشبكات هي PHP-5.4.4 with EasyPHP-12.0 وهي مجموعة من البرامج تشمل خادم الأباتشي (Apache server) وقاعدة البيانات MySQL database و لغة البرمجة PHP، وهي مجموعة من الأدوات تسمح بتصميم وتطوير مواقع الويب⁶ وذلك على 78 تلميذاً المحددين سابقاً، ثم استثنى الباحث تلميذتين لعدم تقيدهما بتعليمات الاختبار أين لاحظ تعاوناً بينهما أثناء الحل مما جعل العدد ينزل إلى 77 تلميذاً، ثم حذف 42 تلميذاً للحصول على درجة مئوية أقل من 95⁷، ليكون العدد النهائي 35 تلميذاً (19 ذكراً، 16 أنثى).

¹ سيد عبد العال: "اختبار المصفوفات المتتابعة المقنن دراسة تقييمية نقدية للاختبار (القوائم أ-ب-ج-د-هـ) الصورة المعدلة 1958"، جامعة عين شمس، 1983، ص ص 12-22.

² النفعي عبد الح من: "تقنين اختبار رافن للمصفوفات المتتابعة المتقدم على طلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية بمنطقة مكة المكرمة"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة أم القرى، 2001، ص 77.

³ سيد عبد العال، مرجع سابق، ص 13.

⁴ سايحي سليمة: "فاعلية برنامج إرشادي لخفض مستوى قلق الامتحان لدى تلاميذ السنة الثانية ثانوي"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، 2004.

⁵ بن سامي عقيل: "فاعلية بعض المهارات التدريسية في رفع مستوى التحصيل الدراسي لدى تلاميذ الثالثة متوسط في مادة الرياضيات"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 2007.

⁶ بن سامي عقيل، 2013، مرجع سابق.

⁷ يشار إلى الباحث قام في دراسة سابقة بحساب الدرجات المئوية على عينة قوامها 747 تلميذاً في مستوى الثالثة متوسط و قد قابلت الدرجة المئوية 95 الدرجة الخام 47.

- مقياس التفكير ما وراء المعرفي: أعدّه الباحث في دراسة سابقة، أين حدد خطوات بنائه و خصائصه السيكمومترية حيث تحقق من صدقه بعدة طرق وهي: صدق المحتوى عن طريق مجموعة من المحكمين-تحكيم على مستوى عربي-، الصدق التمييزي حيث كانت جميع بنود -34 بندا- المقياس مميزة، صدق الاتساق الداخلي: وجد أن معاملات الارتباط دالة إحصائيا عند 0.01 بين الفقرات و أبعادها و الفقرات و المقياس. كما حسب الثبات: بطريقة التجزئة النصفية باستعمال معادلة فلانجان حيث بلغ معامل الثبات 0.935، كما حسب باستعمال معامل ألفا كرونباخ حيث وجد أن $\alpha = 0.961$ ، و القيمتان السابقتان مرتفعتان جدا تدلان على ثبات المقياس¹. وقد طبق في هذه الدراسة على 35 تلميذا.

التعريف الإجرائي لمتغيرات الدراسة:

التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات:

يعرف إجرائيا بأنه: "الدرجة التي يحصل عليها تلميذ السنة الثالثة متوسط في مقياس التفكير ما وراء المعرفي المعد من طرف الباحث²، ويعتبر المستوى عاليا إذا كان أكبر من يساوي 80 % من أعلى درجة نظرية سواء بالنسبة للمقياس أو بالنسبة لأبعاده"

الموهوبة في الرياضيات:

يعتبر تلميذ الثالثة متوسط موهوبا في الرياضيات إجرائيا في هذه الدراسة من خلال معيارين هما: ملاحظات أساتذة الرياضيات لتلاميذهم في مستوى الثالثة متوسط الذين يعطون حولا مبتكرة للمسائل الرياضية، أو يفكرون بالحل بطريقة أخرى عند الانتهاء من الحل بالطريقة المعتادة، أو يطرحون أسئلة محيرة، ولا يشترط أن يكون تحصيلهم الدراسي في الرياضيات عال. ومن خلال اختبار المصفوفات المتتابعة لرافن للذكاء العام الذي يحدد الموهوب بحصوله على الدرجة المئينية التي تفوق أو تساوي 95 درجة و المقابل في هذه الدراسة للدرجة الخام 47.

المعالجة الإحصائية: عالج الباحث البيانات إحصائيا باستعمال برنامجي: Excel 2010 و SPSS 19.0

نتائج الدراسة ومناقشتها:

- عرض و تحليل و مناقشة و تفسير نتائج الفرضية الأولى:

التي نصت على: " يتوقع أن يكون التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات محددًا للمبدعين فيما من تلاميذ الثالثة متوسط"

¹بن سامي عقيل: "مستوى التفكير ما وراء المعرفي لدى تلاميذ الثالثة متوسط في مادة الرياضيات في ضوء بعض المتغيرات"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، العدد 9، 2012، ص 233-249.

²بن سامي عقيل، 2012، مرجع سابق.

الجدول رقم 01: نتائج معامل الارتباط بين الذكاء العام والتفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات ومستوى دلالاته

البيانات الإحصائية	عدد أفراد العينة	معامل الارتباط (r)	مستوى الدلالة	معامل التحديد (R ²)
المتغيران	35	0.652	0.01	0.425
التفكير ما وراء المعرفي و الذكاء العام				

يتضح من الجدول السابق أن قيمة معامل الارتباط بين التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات و الذكاء العام لدى الموهوبين فيها بلغت 0.652 وهي قيمة دالة إحصائيا عند 0.01، وقيمة معامل التحديد تساوي 0.425 أي أن 42.5 % من التباين في التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات تفسر بالتباين في الذكاء العام الذي يمثل في هذه الدراسة الموهوبة في الرياضيات، وهي نسبة تسمح لنا بالقول أن التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات لدى تلاميذ الثالثة متوسط يعتبر أحد محددات الموهوبين فيها.

تتفق هذه النتيجة مع دراسة بن ساسي و قريشي (2013) التي أكدت وجود علاقة ذات دلالة إحصائية عند 0.01 بين الذكاء العام و التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات لدى تلاميذ الثالثة متوسط. و دراسة أراني ومباركه Arani and Mobarakeh (2012) التي توصلت إلى وجود علاقة دالة إحصائيا بين الذكاء المنطقي الرياضي و الوعي ما وراء المعرفي في الفهم القرائي. ودراسة المنير (2007). ودراسة السباتين (2006) التي خلصت إلى أن الموهوبين يستعملون مهارات التفكير ما وراء المعرفي في حل المسائل الرياضية بدرجة أكبر من العاديين. كما تتفق مع التوجهات النظرية التي اعتبرت أن التفكير ما وراء المعرفي مظهرا من مظاهر السلوك الذكي. (Veenman et al., 2005; Sternberg, 1984)

تفسر نتيجة ارتباط التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات للموهوبين فيها بالذكاء العام ارتباطا دالا إحصائيا وقويا بأن التلاميذ الذين يستخدمون التخطيط و المراقبة و التقويم لأعمالهم بمعنى يفكرون في تفكيرهم أو أنهم أكثر وعيا بما يجري في عقولهم أثناء الانخراط في أداء مهمة رياضية يتمتعون بذكاء عال و العكس صحيح و بخاصة أن أفراد عينة الدراسة لم يتلقوا تدريبا على مهارات التفكير ما وراء المعرفي. و عندئذ نرجح أن الأسر تلعب دورا في ذلك من خلال تشجيع أبنائهم على التفكير في أفكارهم ولذا يختلف تطور مهارات ما وراء المعرفة من شخص لآخر، كما يرجح الباحث أن وعي الموهوب بتفكيره، يساعده على حل المشكلات الرياضية و التي تشبه في درجة صعوبتها المشكلات المطروحة في اختبارات الذكاء.

عرض وتحليل ومناقشة وتفسير نتائج الفرضية الثانية:

التي نصت على: "يتوقع أن يكون مستوى التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات مرتفعا سواء حسب الدرجة العامة أو حسب كل بعد (المعرفة التقريرية، المعرفة الإجرائية، المعرفة الشرطية، التخطيط، المراقبة، التقويم) لدى الموهوبين فيها من تلاميذ الثالثة متوسط "

الجدول رقم 2: يبين المتوسط الحسابي والانحراف المعياري في الدرجة العامة على المقياس وفي كل بعد وعدد ونسبة الذين حققوا المستوى العالي في التفكير ما وراء المعرفي وفي أبعاده لدى أفراد العينة

البيانات الإحصائية المقياس وأبعاده	المتوسط الحسابي	أعلى درجة نظرية	80% من أعلى درجة	عدد الذين وصلوا إلى المستوى العالي	نسبتهم المئوية
المقياس	153.8	170	136	35	100%
التخطيط	23.7	25	20	35	100%
المعرفة التقديرية	27.1	30	24	35	100%
المعرفة الإجرائية	18.3	20	16	35	100%
المعرفة الشرطية	22	25	20	35	100%
المراقبة	22.4	25	20	35	100%
التقويم	40.3	45	36	35	100%

يلاحظ من الجدول السابق أن المتوسط الحسابي لأفراد العينة على المقياس 153.8 وهو أعلى من مستوى الكفاءة (80%) المطلوب (136) وقد تجاوز هذا المستوى جميع أفراد العينة، كما يوضح تجاوز أفراد العينة لمستوى الكفاءة في كل أبعاد المقياس، وهذا ما يعني أن مستوى التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات لدى أفراد العينة مرتفع سواء حسب المقياس أو أبعاده الستة (المعرفة التقديرية، المعرفة الإجرائية، المعرفة الشرطية، التخطيط، المراقبة، التقويم) وعليه تقبل الفرضية المتبناة. تنسجم هذه النتيجة مع نتائج دراسة بن ساسي (2012) التي هدفت إلى التعرف على مستوى التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات لدى تلاميذ الثالثة متوسط في ضوء متغيرات مستوى التحصيل الدراسي، الاتجاه نحو الرياضيات، الجنس و توصلت إلى امتلاك أغلب أفراد عينة الدراسة مستوى منخفض في التفكير ما وراء المعرفي بينما بلغ 20.61% فقط مستوى مرتفع. كما تتفق مع دراسة النجار (2010) التي توصلت إلى أن الموهوبين يتفوقون على كل من العاديين و ذوي صعوبات التعلم في أساليب التفكير المختلفة لدى تلاميذ الصف الثاني متوسط، ودراسة السباتين (2006). وتفسر هذه النتيجة بأن الموهوبين يمتلكون صفات المرونة والأصالة والطلاقة بالإضافة إلى ذكاء مرتفع وهذا ما يؤهلهم إلى أن يكونوا واعين أكثر بتفكيرهم وأكثر سيطرة و تنظيمًا على مجريات تفكيرهم وتوجيهه نحو تحقيق الهدف أو حل المشكلة الرياضية ما يعني بلوغهم مستوى عال من التفكير ما وراء المعرفي.

في ضوء ما توصلت إليه الدراسة نتقدم بالتوصيات الآتية:

- اعتماد مقاييس التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات كأحد المحددات للمبدعين فيها.
- الاستفادة من نتائج مقياس التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات لتوجيه التلاميذ إلى ثانوية الامتياز.
- إجراء العديد من الدراسات حول اعتبار التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات كمحدد للمبدعين فيها في مراحل تعليمية متقدمة و إنشاء كليات أو معاهد للمتميزين في الرياضيات على غرار ثانوية الامتياز.

قائمة المراجع:

1. أبو جادو صالح محمد علي، و نوفل محمد بكر: "تعليم التفكير النظرية والتطبيق"، عمان: دار المسيرة، 2007.
2. أبوعليا محمد: "الفروق في المعرفة ما وراء المعرفية بين الموهوبين والمتفوقين من طلاب الصف العاشر بالأردن"، المجلة التربوية، البحرين، 17(66)، 2003، ص ص 13-41.
3. بثينة محمد بدر. "أثر التدريب على استراتيجيات ما وراء المعرفة في تنمية أساليب التفكير لدى طالبات قسم الرياضيات في كلية التربية بمكة المكرمة"، مجلة مستقبل التربية العربية، 2(41)، 2006، ص ص 114-136.
4. بن ساسي، عقيل: "فاعلية بعض المهارات التدريسية في رفع مستوى كل من التفكير ما وراء المعرفي والتحصيل الدراسي في الرياضيات لدى تلاميذ الثالثة متوسط"، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مباح، ورقلة، 2013.
5. بن ساسي عقيل، و قريشي عبد الكريم: "طبيعة العلاقة بين التفكير ما وراء المعرفي في الرياضيات والذكاء العام لدى تلاميذ الثالثة متوسط -دراسة ميدانية بمدينة ورقلة-"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مباح ورقلة، العدد 12، 2013، ص ص 1-12.
6. بن ساسي عقيل: "مستوى التفكير ما وراء المعرفي لدى تلاميذ الثالثة متوسط في مادة الرياضيات في ضوء بعض المتغيرات"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مباح ورقلة، العدد 9، 2012، ص ص 233-249.
7. بن ساسي عقيل: "فاعلية بعض المهارات التدريسية في رفع مستوى التحصيل الدراسي لدى تلاميذ الثالثة متوسط في مادة الرياضيات"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قاصدي مباح ورقلة، 2007.
8. جروان فتحي عبد الرحمن: "تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات"، ط5، عمان: دار الفكر، 2012.
9. الجغيمان عبد الله ، و عبد المجيد أسامة: "اعداد قائمة خصائص الأطفال الموهوبين السعوديين وتقنياتها من سن 3 إلى 6 سنوات". رسالة التربية وعلم النفس، الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية، الرياض، العدد 31، (2008)، ص ص 48-11.
10. النجار حسني زكريا السيد: "بروفيلات أساليب التفكير المفضلة لدى التلاميذ الموهوبين وذوي صعوبات التعلم و العاديين وعلاقتها بالتوافر الدراسي والتحصيل الأكاديمي"، مجلة كلية التربية، جامعة الإسكندرية، 20(3)، 2010، ص ص 160-284.
11. النفيعي عبد الرحمن: "تقنين اختبار رافن للمصفوفات المتتابعة المتقدم على طلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية بمنطقة مكة المكرمة"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة أم القرى، 2001.
12. سايجي سليمة: "فاعلية برنامج إرشادي لخفض مستوى قلق الامتحان لدى تلاميذ السنة الثانية ثانوي"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، 2004.
13. السباتين أحمد إسماعيل أحمد: "دراسة مقارنة لمستوى مهارات التفكير فوق المعرفي بين الطلاب الموهوبين وأقرانهم العاديين بالمرحلة المتوسطة في مدارس مكة المكرمة"، رسالة ماجستير غير منشورة لدى كلية الدراسات التربوية العليا، عمان: جامعة عمان العربية، 2006.



14. سيد عبد العال: "اختبار المصفوفات المتتابعة المقنن دراسة تقويمية نقدية للاختبار (القوائم أ-ب-ج-د-ه) الصورة المعدلة 1958"، جامعة عين شمس، 1983.
15. شبر أحمد محمد حسين: "دراسة مقارنة في استراتيجيات إدراك ما وراء المعرفة على وفق الأسلوب المعرفي (التجريدي – العياني) لدى طلبة الخامس الإعدادي"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل، 2010.
16. الشهران يناصر بن عبدالله: "مدى توافر مهارات اكتشاف ورعاية الموهوبين في برامج إعداد المعلمين في جامعة أم القرى"، مجلة التربية العلمية 13 (6)، 2010، ص ص 131 – 163.
17. الشربيني فوزي، و الطناوي عفت، "استراتيجيات ما وراء المعرفة بين النظرية و التطبيق"، ط1، المنصورة: المكتبة العصرية، 2006.
18. Arani, Hossein K. and Mobarakeh, Sajad D: "**Metacognitive Strategies and Logical/ Mathematical Intelligence in EFL Context: Investigating Possible Relationships: Theory and Practice in Language Studies**", 2(2), 2012, 304-313, ACADEMY PUBLISHER Manufactured in Finland.
19. Flavell, John H. : "**Metacognitive aspects of problem solving**". In L. B. Resnick (Ed.), The nature of intelligence (pp.231-236). Hillsdale, NJ: Erlbaum, 1976.
20. Torrance, E.P. : "**Guiding Creative Talent**". Prentice Hall Of India , New Delhi, 1969.
21. Veenman, M. V. J., Kok, R., & Blöte, A. W. ; "**The relation between intellectual and metacognitive skills in early adolescence**". Instructional Science, 33(3), 2005, 193–211.

العنف وسبل مواجهته محاولة في سوسيولوجيا العنف في المجتمع التونسي

د. عادل بوزيد/جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تأصيل مفاهيمي وسياقي اجتماعي لمقولة العنف عبر تتبع أشكاله وتمظهراته المختلفة في السياق التونسي الثوري خاصة بالتركيز على العنف الموجهة ضد الطفل باعتباره أقسى أنواع العنف على مستوى التأثير والتداعيات، ومرورا بأهم النظريات السوسيولوجية التي قدمت مقاربات لظاهرة العنف، لتنتهي هذه الورقة إلى أهم السبل والآليات الكفيلة لمواجهة العنف أو بالأحرى كيفية التعاطي مع السلوكيات العنيفة.

عموما هي دراسة مونوغرافية لظاهرة العنف في السياق الاجتماعي التونسي الراهن تنقسم إلى ثلاثة محاور أساسية أما المحور الأول فيبحث في مفاهيم وأشكال العنف بينما يتناول المحور الثاني النظريات السوسيولوجية التي قاربت ظاهرة العنف وينتهي المحور الثالث إلى عرض السبل الكفيلة لمواجهة ظاهرة العنف لاسيما تلك الموجهة ضد الأطفال.

الكلمات المفتاحية: العنف، مجتمع اللاعنف، الحراك الاجتماعي

مقدمة:

يعيش المجتمع التونسي بأسره منذ 14 جانفي 2011 حالة من الحراك الاجتماعي العميق وغير المسبوق الذي ادخل إرباكا حقيقيا في مستوى القيم والمعايير الاجتماعية وزجّ بالمجتمع ضمن حالة من فقدان المعايير والضوابط الاجتماعية، فكأننا مثلما قال عالم الاجتماع الفرنسي "أوقيسست كونت" أمام تنظيم اجتماعي يغلق ونظام اجتماعي يتشكّل، ولعل أكثر الفئات الاجتماعية والعمرية تأثرا بهذه الحالة الاجتماعية هم الأطفال والشباب لأن شخصيتهم لا تزال بصدد التكوّن والتشكل ولاسيما الأطفال، لان عامل النضج والوعي ضعيف لديهم، فنجدهم أكثر عرضة لاستبطان مظاهر الحراك الاجتماعي وبالتالي تبني مواقف وسلوكيات شاذة وغريبة عن طبيعة تنشئتهم الاجتماعية، سلوكيات مستوحاة أساسا من طبيعة المسار الثوري التونسي والمتصلة بالاحتجاجات والمسيرات والإضرابات والنزعات المطالبة الحادة وأخرى مستوحاة من المشهد الإعلامي الذي بدا استفزازيا واثاريا وحماسيا أكثر من اللزوم. إن هذه الحصيلة مجتمعة أدخلت اضطرابات سلوكية تظهت في تصاعد حدة العنف الذي بدا أحيانا مستساغا وجزء لا يتجزء من ثقافة المجتمع التونسي، بدليل تواجده قولاً وممارسة لا في الشارع فحسب، بل في المؤسسات التربوية والمهنية، والإدارات العمومية والفضاءات الرياضية وغيرها.

فبأي معنى تطرح ظاهرة العنف من الوجهة الاجتماعية؟ وما السبل الكفيلة لمواجهتها؟

1- في مفهوم العنف وأشكاله:

1- مفهوم العنف:

إن وجود تعريف دقيق وشامل لمعنى العنف بين كل الباحثين والمشتغلين بالمفهوم مسألة غير مطروحة بالمرّة، تبعا لتعدد زوايا البحث والدراسة، ولكن ما يظل محل إجماع وشبه اتفاق بين الباحثين في مستوى المفهوم أن العنف هو تعبير صارم عن القوة التي تمارس لإجبار فرد أو جماعة على القيام بعمل محدد يريده فرد أو جماعة ويأخذ صورة الضغط الاجتماعي وتعتمد مشروعيتها على اعتراف المجتمع به¹، أو هو الاستخدام غير المشروع للقوة وغير المطابق للقوانين وهو إيذاء باليد أو اللسان أو بالفعل أو بالكلمة يقوم به الفرد ضد الآخر². والعنف أيضا يمكن أن يمثل لغة التخاطب الأخيرة والممكنة مع الواقع ومع الآخرين حين يحس المرء بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي وحين ترسخ القناعة لديه بالفشل في إقناعهم بالاعتراف بكيانه وقيمه³، والملاحظ أن طبيعة هذا المفهوم تندسج كثيرا على واقع فعل العنف ومبررات تصاعده في السياق الثوري التونسي، فكثيرا ما كانت بواعث ممارسة العنف تلك المتصلة بالإحساس بالقهر والظلم والبحث عن الاعتراف بالذات والشعور بالكرامة والتقدير الاجتماعي. والعنف أشكال وأنواع اذ نجد العنف الفكري والاجتماعي والإداري والسياسي وكل من ينال من استقرار الوطن والمواطن ويزعزع أمنه بانتشار الرعب والتخريب قصد فرض رأي أو عمل أو فكرة أو نمط حياة أو نظام

¹ بن دريدي احمد، العنف بين التلاميذ في المدارس الثانوية الجزائرية، جامعة نايف للعلوم العربية الأمنية، المملكة العربية السعودية، الرياض، 2007، ص 34.

² الحيدري ابراهيم، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، دار الساق، بيروت لبنان، 2015، ص 20.

³ حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، بيروت، مركز الإنماء العربي، 1976، ص 253.

معين¹، ومختصر القول أن العنف هو ذلك السلوك العدواني والسلبى وغير التربوي الذي يمارس من قبل شخص أو جماعة بهدف إلحاق الأذى بالآخرين، وطالما أن العنف ظاهرة اجتماعية مصدرها الأساسي المجتمع فإنها بالضرورة تتفاوت من مجتمع إلى آخر بحسب درجة استقرار المجتمع وإشباع حاجياته مثلما أنها تتمايز داخل المجتمع الواحد بحسب تبدل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

2- أشكال العنف:

ينطوي المجتمع التونسي اليوم على أشكال عديدة من العنف بالنظر إلى الحراك الاجتماعي الواسع النطاق الذي شكّل أرضية خصبة لنشوب العديد من أنواع العنف التي لم يألفها المجتمع من قبل غير أننا سنقتصر في هذا الإطار على أبرز الأنواع ممارسة وتواترا، وهي:

أ- العنف السلوكي:

ويتمثل في انعدام توفر الإشباع الدائمة للفرد وينتج عن ذلك سوء التكيف، وقد يتسم سلوك المنحرف بعدم الانضباط والقسوة واللامبالاة الاجتماعية، وكلها تؤدي إلى سلبية في عملية التطبيع الاجتماعي، فالإفراط في التنشئة الاجتماعية يؤدي إلى التبعية والتراخي يؤدي إلى العدوانية وعنف السلوك²، ويتربط على هذا النوع ثلاثة مظاهر:

- العنف المحرم: وهو الذي يقع في صورة عدوان الفرد على غيره وهو ممنوعا قانونا ومحرم شرعا ومخالف للحياة الاجتماعية.
- العنف الإلزامي: وهو العنف الذي يقوم به الفرد تجاه الآخرين مقابل اعتدائهم عليه.
- العنف المباح: وهو سلوك مباح قانونا عندما يؤمر الإنسان بمعاملة الآخرين بذلك الفعل.

ب- العنف الجسدي:

ويشمل هذا النوع الضرب باليد والضرب بأداة حادة، والخنق والدفع والعض والمسك بعنف وشد الشعر... وهذه الأشكال جميعها تنجم عنها أثارا صحية ضارة قد تصل لمرحلة الخطر أو الموت إذا تفاقمت لذا فالعنف الجسدي من الممكن ملاحظته وإثباته قانونيا.

ج- العنف اللفظي:

ويعتبر من أكثر الأنواع انتشارا في المجتمع التونسي ويتمثل في السباب والشتم، واستعمال الألفاظ النابية، وعبارات التهديد، وعبارات تحط من الكرامة الإنسانية وهو من الأشكال التي تؤثر على الصحة النفسية³ وبخاصة تلك الألفاظ التي

¹ <http://www.detlemcen.edudz/paix>.

² السنونسي نجا، ورد في موقع:

www.amanjordan.org/conferences/vaciaw/vaciaw21.htm.

بن دريدي أحمد، العنف بين التلاميذ في المدارس الثانوية الجزائرية، جامعة نايف للعلوم العربية الأمنية، المملكة العربية السعودية، الرياض، 2007،

تسيء إلى شخصية الإنسان ومفهومه عن ذاته، ومثلما أسلفنا فقد تنامي هذا الشكل من العنف في الخمس سنوات الأخيرة حتى طال كل مظاهر الحياة الاجتماعية ومؤسساتها ولا سيما المؤسسات الإعلامية التي ظلت تسوق خطابا انفعاليا وعنيفا، أثر تدريجيا على الممارسات الفردية والجماعية ووُلد شخصية قاعدية غالبا ما تكون مشحونة غضبا وتشنجا وسريعة الانفعال.

د- العنف النفسي:

وهو المسلط خاصة على الأطفال بهدف إيذائهم معنويا، أو ذلك الذي يتمثل في إهمال رعاية الطفل صحيا وتعليميا وعاطفيا، والقسوة في المعاملة أو التدليل الزائد والحماية المسرفة. وقد ينتج كل ذلك لدى الطفل ممارسات انحرافية وشاذة على غرار الانطواء والاكنتاب أو الرنو إلى التشاجر والفوضى وهي ممارسات ربما تكون تعويضية عن حالات الإحباط والحرمان التي تعرّض لها، مما يؤدي إلى قصور في نمو الشخصية واضطرابات في علاقته بالآخرين.

هـ- العنف الرمزي:

هو العنف اللامرئي والمخفي والمقتنع، وهو عنف غير مباشر في اغلب الأحيان، وهو الأخطر على الإطلاق لان الأنواع الأخرى مشاهدة ويتمكن الفرد من مقاومتها والتصدي لها بينما هاذ النوع هو يزداد يوما بعد يوم دونما يشعر به غالبية أفراد المجتمع. وإذا كان العنف الرمزي هو آلية من آليات الدفاع عن الذات العاجزة التي لا تستطيع تحقيق أهدافها بصورة شرعية فانه غالبا ما يعبر عنه بأساليب عدوانية كالكرهية والسيطرة على الضعفاء والاثام بالباطل وتخريب الممتلكات العامة والخاصة¹. ويعتبر عالم الاجتماع الفرنسي "بيير بورديو" من أكثر الذين اشتغلوا بهذا المفهوم، فقد اعتبر أن المجتمعات الراهنة تعمل على إعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية عبر ما يعرف بالعنف الرمزي الذي يوفر مشروعية للهيمنة واللاعادلة الاجتماعية، على أن المبدأ الأساسي لمقولة العنف الرمزي يرتكز على مسألة الاعتراف الاجتماعي، أي أن الفاعلين في حقل العنف الرمزي يعملون على تحقيق الاعتراف به حتى يتسنى لهم تمرير استراتيجياتهم المتمثلة أساسا في إعادة إنتاج نفس التنظيم الاجتماعي، بما يفيد وفق "بورديو" أن العنف الرمزي الذي يستهدف إعادة إنتاج اللامساواة غير مستمد من مجرد جماعة حاكمة وإنما هو مستمد أساسا من طبيعة تركيبية المجتمع.

3- أشكال العنف الموجه ضد الطفل:

نعتبر أن أكثر الفئات العمرية تضررا واستبطانا لفعل العنف هم الأطفال لذلك ارتأينا ضمن هذا العنصر أن نتعرّض لبعض أشكال العنف الموجه ضد الأطفال والتي يمكن أن يعتبرها الكثير من الأولياء أو المتدخلين في شان الطفولة أفعالا وممارسات عادية، على غرار حرمان الطفل من اللعب أو حرمانه من الخروج أو من التعليم أو إلزام الطفلة بالمساعدة في الأعمال المنزلية أو التمييز الواضح في معاملة الصغير عن الصغير أو الصغيرة الأخرى دون مراعاة الآثار النفسية السلبية لهذه المعاملة²، أو الزواج المبكر. إضافة إلى الاعتداءات الجسدية والجنسية ضد الطفل. ومن مظاهر الاعتداء العاطفي حرمان الطفل من الحب والحنان والرعاية والحماية والشعور بالأمن والأمان، وهذه كلها ضروب مختلفة من العنف قد تؤسس لشخصية مضطربة

الحيدري ابراهيم، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، دار الساق، بيروت لبنان، 2015، ص117.

أبو النصر مدحت محمد، ظاهرة العنف في المجتمع، الدار العالمية للنشر والتوزيع القاهرة، 2009، ص100.

ومنحرفة مستقبلا. دون التغاضي عن مظاهر سوء التربية التي أضحت منتشرة بكثرة صلب الأسر التونسية المعاصرة ومنها التشدد المفرط أو التسيّب المفرط وخاصة تشاجر الزوجين أمام الأبناء وهي كلها أفعال عنف من السهولة بمكان أن يستبطنها الطفل ثم تترجم في سلوكياته مستقبلا. ومن أشكال العنف ومظاهره لدى الأطفال في المجتمع التونسي تلك المتصلة بالإهمال المتزايد للأبناء والمتمثل في عدم توفير الاحتياجات المادية اللازمة للأبناء من أكل وشرب وصحة وتعليم وترفيهه أو كذلك عدم توفير الرعاية الوجدانية والعاطفية والأخلاقية اللازمة وقد نتج عن هذه الوضعية وجود ما يعرف بأطفال الشوارع، المهددين بكل أنواع الانحراف والإجرام.

وجدير بالذكر أن التقارير الدولية والخاصة بمنظمة الأمم المتحدة تشير إلى التزايد الملحوظ لظاهرة العنف ضد الأطفال في السنوات الأخيرة إلى الحد الذي أخذ معه طابعا وبائيا ينتشر بشكل خطر في المجتمعات المعاصرة¹. وفي هذا الصدد تشير تقارير "الأمم المتحدة" عن أن طفل كل عشرة أطفال يموتون بسبب العنف الوالدي وأن 2000 طفل يتخلصون من حياتهم بالانتحار، وتوضح هذه الصورة الوبائية للعنف ضد الأطفال بالحجم الكبير للدراسات والبحوث بشأنه. أما في المجتمع التونسي فان إحصائيات نشاط مندوبي حماية الطفولة تشير إلى ارتفاع حالات الإشعار بخصوص الأطفال المهددين إلى حدود 19 إشعار يوميا واحتلت الحالات الخاصة بالعنف نسبة 60.7% وتفرّج الحالات المعتّفة إلى 41.5% تتعلق بالإهمال والتجاهل و27.9% تتعلق بحالات العنف المعنوي والنفسي². وقد وقع تسجيل 289 حالة عنف جنسي و589 عنف مادي وجسدي ويتصدّر العنف الأسري أولى مصادر العنف المسلطة على الطفل والتي تقدّر ب 65.6%.

II- في المقاربة السوسولوجية للعنف:

إن العنف وفق كثير من العلماء كهوبز وفرويد ودوركايم هو سلوك "عادي" على اعتبار انه ضروري للحياة الاجتماعية وإجابة طبيعية وعادية للاعتداء الذي يتعرض له الفرد، من هنا فان المجتمعات لا تقوم بمنعه ولكن بتعديله فهناك عنف مقبول وعادي، وهناك عنف ممنوع ومنحرف.

فمن الناحية السوسولوجية العنف ظاهرة اجتماعية عامة وشاملة وتوجد كلما كان هناك ظلم وقمع واستبداد وتسلب، يقابله عجز وخضوع عن مجاهته³، ويعتبر علماء الاجتماع أن العنف هو آلية من آليات الدفاع عن الذات ضد المخاطر التي تواجه الإنسان من أجل البقاء والاستمرار في الحياة، فبالرغم من المرحلة الحضارية المتقدمة التي قطعها البشرية وما بلغه الفكر البشري من نضج وذكاء، فان فعل العنف لا يزال متأصلا في المجتمعات بسبب ارتدادها إلى جذورها البدائية وفق ابن خلدون، بدليل أن الإنسان البدائي كان غالبا ما يلجأ إلى العنف لدرء المخاطر، والملاحظ أن أساليب العنف وأدواته تطوّرت بفعل تزايد التنافس والصراع على المصالح والثروات. ويعتقد ابن خلدون أن العنف نزعة طبيعية وان سبب العنف العصبية وهي "الالتحام الذي يوجب صلة الرحم حتى تقع المناصرة"، وان أساس العصبية عند ابن خلدون هو الاستعداد الفطري الذي

¹ المجلس العربي للطفولة والتنمية، الدليل التدريبي للإعلاميين العرب، حماية الأطفال من العنف، (القاهرة: المجلس العربي للطفولة والتنمية، 2008) ص 13-16.

النشرية الإحصائية لنشاط مندوبي حماية الطفولة، العدد الثاني، فيفري 2015.

الحيدري ابراهيم، سوسولوجيا العنف والإرهاب، دار الساق، بيروت لبنان، 2015، ص 12.

يدفع الفرد إلى نصرة قريبه بالدم والدفاع عنه¹، في ظل هذا التأطير النظري الخلدوني لظاهرة العنف يبدو في تقديرنا مفيدا جدا أن نستغله في قراءة المسار الثوري التونسي عشية 14 جانفي وما أنتجه من ممارسات وأشكال عنف تتطابق والتمشي الخلدوني ويظهر ذلك في النزعات الجهوية الحادة التي برزت في المناطق التي لا تزال تقع تحت تأثير الذهنية القبلية على غرار منطقة الجنوب و الشمال الغربي والوسط الغربي، وقد تجلى ذلك في التطاول على حرمة الدولة والقانون ورموز الدولة، فقد أدى بهم الأمر إلى حرق المراكز الأمنية والاعتداء على أعوان الأمن وغلق الطرقات والسكك الحديدية بسبب القبض مثلا على معتد ينتهي إلى منطقتهم أو عشيرتهم لإفلاته من العقاب، أو مطالبتهم بالانتفاع لوحدهم بثروات منطقتهم، أو دعوتهم إلى تشغيل أبناء المنطقة في المؤسسات الكائنة بالجهة أولى من الأفراد الخارجين عنها، وهي نزعات كلها ذات جذور قبلية وعشائرية.

أما كارل ماركس فيعتبر أن تاريخ أي مجتمع من المجتمعات هو تاريخ الصراع، أي صراع بين الطبقات، بين من يملكون وسائل الإنتاج والخيرات وبين من لا يملكونها، وهذا الصراع يخترق التاريخ من المجتمع البدائي إلى المجتمع الرأسمالي، على أن هذه اللامساواة بين الطبقتين هي المحرك للتاريخ²، حيث يقول في هذا الصدد "إن آية ولادة لمجتمع جديد لا بد وان يسبقها العنف" فالعنف بمثابة الألام التي تسبق المخاض، وقد اعتبر ماركس أن العنف هو إفراز تاريخي نتج عن تضارب المصالح مثلما انه ضرورة تاريخية ولكن يجب القضاء عليه بعد تحقيق ديكتاتورية البروليتاريا.

وغير بعيد عن التمشي الماركسي اعتبر عالم الاجتماع الألماني جورج زيمل أن العنف يؤدي وظائف ايجابية للنظام الاجتماعي، فهو يعمل على استمرار العلاقات الاجتماعية تحت ظروف الضغط والتوتر ويحول دون انحلال المجموعة وتفككها³. أما مواطنه ماكس فيبير فيذهب إلى انه لا يمكن تعريف الدولة إلا عبر "العنف المادي" بوصفه الوسيلة الطبيعية للسلطة التي تحتاج إلى شرعنة، بمعنى أن الدولة هي الوحيدة التي تملك وسائل الإكراه المشروع، فهي التي تحتكر العنف المادي المشروع وتمارسه لوضع حد للفوضى ورعاية مصالح المواطنين، مثلما أن جوهر السلطة وفق فيبير يكمن في ممارسة العنف.

إن قراءتنا لمختلف هذه الآراء بخصوص ظاهرة العنف كقضية بمدنا بقاسم مشترك بينها مفاده التأصل الواضح لفعل العنف صلب كل المجتمعات، وقناعة معظم المفكرين بمشروعيتها ضمن سياقات معينة. ولكن المقاربة السوسيولوجية للعنف شهدت مراجعات كبيرة، خاصة عقب الحرب العالمية الثانية وما خلفته من قتل ودمار. وفي هذا السياق قدّم هابرماس قراءة مستحدثة لظاهرة العنف، معتبرا أن فعل العنف هو آلية دمار وخراب وجب التصدي له، وكذا للحرب والضرورة تقتضي التوجه نحو التسامح والتواصل والحوار العقلاني الذي يقود إلى المواطنة العالمية التي تفتتح على الآخر المختلف، وقد كان له تعليق مميّز على اثر حرب الخليج سنة 1990 عندما قال "إن على البشرية أن توجه كل اهتمامها لتجنّب نكسة بربرية أخرى"⁴، ويعتبر هابرماس أن العولمة وما أنتجته من "حادثة مغلوبة" وفق تسميته كانت هي العامل المباشر في تنامي ظاهرة العنف والإرهاب. لأن هذه الحادثة السريعة بيّنت بوضوح مدى التمايز والتفاوت بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الأخرى، وبالتالي كانت كل

ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، القاهرة، 1946، ص 154.

الحيدري ابراهيم، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، دار الساق، بيروت لبنان، 2015، ص 65.

ارفينج زايطن، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، ترجمة محمد عودة وآخرون، ذات السلاسل، الكويت 1989، ص 180.

الحيدري ابراهيم، نفس المرجع، ص 82.

الممارسات الإرهابية وأشكال العنف بدافع اللامساواة واللاعادلة بين المجتمعات، لذلك يدعو هابرماس العقلانية الغربية إلى مراجعة قصر نظرها عبر التعلّم من الثقافات الأخرى وعبر تواصل عقلائي وحوار مفتوح.

- نحو مجتمع اللاعنف: III

1- أسباب العنف:

إن مقاومة العنف بكل أشكاله يبدأ قطعاً بمعرفة الأسباب الحقيقية المؤدية إليه، ولعل أولى الأسباب الاجتماعية التي صعّدت من وتيرة العنف في المجتمع التونسي الراهن تلك المتعلقة بحالات الإحباط والتهميش والحرمان، والتلوث السمعي والبصري والأخلاقي الذي اتخذ أشكالاً متعددة، إضافة إلى الأخلاقيات المتدنية في الشوارع. وقد كان الإرهاب المتولّد أساساً عن الفكر الديني المتطرّف من أهم أسباب تنامي أعمال العنف الدموية، فضلاً عن تراجع الدور السياسي للعديد من الأحزاب وتشظي معظمها مما يعطي إحساساً للمواطنين بعدم وجود قنوات للحوار، وقد كان لانتشار ظواهر الفقر والبطالة وتدني المقدرة الشرائية الدور الأبرز في انتشار أعمال السلب والنهب والاعتداءات المتكررة على الممتلكات. هذا على مستوى الدولة والمجتمع لكن الأسرة التونسية كذلك لها قسط وافر في تنامي ظاهرة العنف بدليل تراجع وظائفها الأساسية لاسيما التربوية والوجدانية منها فقد تقلصت مظاهر التاطير والتوجيه داخلها وظل الحوار شبه مفقود بين أفرادها. وأطلق العنان لأبنائها لاستبطان ثقافة الشارع، التي تفتقر إلى التأصيل والمتانة اللازمة.

2- الثقافة والعنف:

إن الخطوة الأولى للوقوف أمام العنف بشتى أشكاله وأنواعه تبدأ بوعينا بخطورة ثقافة العنف والتربية التي ينبت فيها ومحاربتها بكل الطرق والوسائل، لأن العنف هو نمط من التنشئة الاجتماعية التي تركز على انعدام الحوار والتسلّط والحدة في التعامل وعدم تفهّم احتياجات الفرد ورغباته، سواء من جانب مؤسسة العائلة التي شهدت تغيرات جذرية في مستوى الأدوار والوظائف، أو في مستوى النظام السياسي عندما يكون نظاماً متسلطاً وديكتاتورياً فسوف ينتج في اللاوعي الاجتماعي وعيا مستلباً وعنفاً مضاداً يتحوّل إلى ظاهرة عامة. فالثقافة تنشئ وحدة مشتركة تقوم عليها الأخلاق والمعرفة وأساليب العمل والتفكير وطرائق السلوك¹. والثقافة تختلف عن المجتمع من حيث كونها ذلك الكل الذي يشمل العادات والتقاليد والفنون والأخلاق وطريقة عيش الفرد، بينما يمثل المجتمع مجموع الأفراد الذين يعيشون في رقعة جغرافية معينة وتربطهم شبكة من العلاقات التي يتفاعلون من خلالها. وبذلك تكون الثقافة ذاكرة المجتمع الشعورية واللاشعورية.

والثقافة بوصفها الوعاء الذي يحوى جملة القيم والمعايير يمكن أن تتحوّل إلى ثقافة عنف عندما توجّه السلوك نحو أهداف محددة، ويعتبر البعض أن اكتساب ثقافة العنف إنما يكون من مصادر ثلاثة أساسية وهي: الأسرة بما تحتويه من تنشئة اجتماعية والمدرسة بما تحتويه من نظام تربوي وتعليمي والسلطة بما تحتويه من نظام سياسي، وهذا ما يؤكّد قطعياً بان العنف هو منتج اجتماعي بامتياز ولا دخل للوراثة أو الفطرة فيه.

¹ الحيدري ابراهيم، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، دار الساقى، بيروت لبنان، 2015، ص 93.

3- سبل مواجهة العنف عامة:

طالما أن العنف فعل مكتسب وليس فطري يفرزه التاريخ والثقافة فإن مقاومته تبقى غير مستحيلة ولعل الخطوة الأولى تبدأ بمحاصرة الأسباب الكبرى والمسؤولة عن بقية الأسباب الأخرى وتأتي في مقدمتها، وعلى مستوى المجتمع ككل حالات الغضب والاحتقان والتوتر والاحتجاجات، من خلال إحلال قنوات الحوار العقلاني والإنصات إلى كل الفئات والجهات دون إقصاء أو تهميش، والتوزيع العادل للثروات والخيرات وتوسيع دائرة المشاركة السياسية والتصدي لكل أشكال الفساد الإداري والمالي، والحث على ممارسة السلوك التطوعي ضمن المشاركة الاجتماعية، وتنمية الوعي الديني والالتزام بالقيم الأخلاقية وتغيير المعتقدات حول العنف، بتغيير الاتجاه نحو العنف كوسيلة فعالة لحل الخلافات، مع تغيير الاعتقاد بمشروعية ومقبولية العنف اجتماعياً، والتأكيد على قدرة الشخص على التحكم في سلوكه العنيف. بالإضافة إلى الاستفادة من تجارب الدول الأخرى في التغلب على العنف، والعمل على إنشاء المزيد من جمعيات مساندة ضحايا العنف والتعريف بدورها وتقديم برامج الإرشاد النفسي لضحايا العنف ومرتكبيه حتى يتمكن من إزالة الآثار السلبية التي تحيق بضحية العنف والحيلولة دون عودة المعتدي إلى ممارسة العنف.

إن كل هذا السبل طبعاً ليست من مشمولات الدولة فحسب وإنما المطلوب أن تكون ثمرة العمل الجماعي بتدخل كل مؤسسات المجتمع المدني والدولة حتى نؤسس لثقافة التسامح بدل ثقافة العنف، الثقافة التي تتميز باللين والتساهل والعضو عن الإساءة والتعدد والتنوع وقبول الآخر، وتكمن قوة التسامح في أن تعيش وتترك الآخر يعيش حياته بسلام، وإذا كانت ثقافة التسامح تجعل منه فضيلة الإنسان القوي فإن العنف يقدم بوصفه ضعف الإنسان الذي تعوزه الشجاعة لأن يكون متسامحاً¹. وبما أن المجتمع التونسي يعيش حالة الانتقال الديمقراطي فإن التسامح هو المقدمة الحقيقية للديمقراطية، أو كما يقول الفيلسوف ادغار موران "إن التسامح ضرورة ديمقراطية، لأن الديمقراطية تتغذى من صراع الأفكار وتندثر بصراع الأجساد"، والديمقراطية هي ذلك النظام الذي يحترم ثلاثة مبادئ أساسية، الأول هو التسامح، والمبدأ الثاني هو ضرورة الفصل بين السلطات: التنفيذية والتشريعية والقضائية، والمبدأ الثالث هو المساواة والعدالة وهي مبادئ لا يمكن ضمناً إلا في نظام تمثيلي برلماني². والحقيقة أن كل هذا المبادئ والضمانات القانونية والمؤسسات الدستورية والديمقراطية متوفرة ضمن الحالة التونسية، المطلوب إرادة سياسية قوية وجريئة ومدركة لعواقب عدم التسامح ومجتمع مدني في مستوى هذه الأفكار والتطلعات.

4- سبل مواجهة العنف الموجه ضد الطفل:

يبقى الطفل الحلقة الأضعف والأرهف في مواجهة العنف والضرورة تقتضي إيلاء فئة الأطفال الأهمية القصوى فيما يتعلق بظاهرة العنف لأنهم أكثر ضحايا حالات العنف. وقبل أن نسوق مجموعة من التوصيات بخصوص مقاومة العنف ضد الطفل يبدو من المفيد استعراض بعض آثار أفعال العنف ضد الطفل، حيث يعتبر بعض الباحثين أن تعرض الطفل لأفعال العنف

¹ مَلْر جان ماري، معنى اللاعنف، ترجمة انطوان الخوري طوق، مركز اللاعنف وحقوق الإنسان، (الكتاب من منشورات جمعية العمل الاجتماعي والثقافي، بيروت، 1995، ص 14.

عبد الله عصام، "التعميد بالدم"، الحوار المتمدن، 2009/2/13.

المكرر يعتبر توقفا لمسيرة نموه وانغلاقا لعملية تفتح إمكانياته، واستنزافا لطاقاته¹، وقد ينتج عن أفعال العنف الموجه للطفل صدمة نفسية غائرة تسبب في تغيرات عميقة في إحساس الطفل بالسلامة الشخصية وبالأمان إزاء العلاقات الإنسانية في المستقبل وفي نظرة الطفل للمستقبل عامة وما يرتبط بها من أحلام الطفولة وخيالاتها وأمانها²، وهذا ما يشكل لدى الطفل ابرز "العلامات الواسمة" لصدمة الطفولة، والتي ينتج عنها جروح في انفعالاته ومشاعره وفي إرادته للحياة والوجود فتضطرب ثقته في ذاته وفي الآخرين وتتطور لديه في المقابل مشاعر العدائية والزعة إلى العنف والعدوان. وفي ظل هذه الآثار الخطيرة للعنف على شخصية الطفل تطرح اليوم مسألة مواجهة العنف ضد الطفل بشدة لاسيما في مجتمعنا التونسي الراهن الذي يمر بمرحلة عميقة من التذبذب القيمي والأخلاقي وانعدام الضوابط الاجتماعية وهي علامات ربما تكون مهيباً أكثر لإنتاج ثقافة العنف بدل ثقافة التسامح، إذا لم تع بعد كل مكونات المجتمع المدني بخطورة العنف على المجتمع عامة والموجه ضد الطفل خاصة. وفيما يلي نسوق مجموعة من التوصيات الكفيلة بترسيخ ثقافة اللاعنف في الناشئة متى توفرت القناعة بهذه التوصيات من جانب كل المعنيين بشأن الطفولة.

- 1- زيادة توعية الأسر بأساليب التنشئة السليمة وبتقافة حقوق الطفل ومخاطر العنف طالما أن العنف الأسري يبقى اعلي درجات العنف الموجه ضد الطفل.
- 2- زيادة حملات التوعية لتلاميذ المدارس والمعاهد الثانوية بحقوق الطفل وكيفية التعامل مع مشكلة العنف.
- 3- زيادة التوعية والتحسيس بمجلة حماية الطفل وبواجب الإشعار عندما يكون الطفل يعيش حالة صعبة تهدد صحته البدنية والمعنوية.
- 4- نشر ثقافة التسامح والتنبية إلى مخاطر العنف عبر وسائل الإعلام المختلفة وعبر الجمعيات وأماكن العبادة.
- 5- في حالة ممارسة العنف ضد الأطفال من الضروري اتخاذ الإجراءات اللازمة عبر التدخل المبكر بواسطة المهنيين والمختصين.
- 6- تعويد الطفل منذ الصغر على ممارسة هوياته والعمل على توجيهه نحو هويته المفضلة للحيلولة دون وقوعه ضحية الشارع والمسالك المشبوهة.
- 7- الحرص على عدم تعريض الطفل لبرامج أو مشاهد تبث نماذج من العنف والرعب والهلع التي تؤثر في شخصيته.

خاتمة:

يتبين من خلال هذه القراءة المختزلة لظاهرة العنف أن كل المجتمعات تتقاسم فعل العنف مثلما أن هذا الفعل لا يقاس حجمه بالمستوى التعليمي أو الفكري للأفراد والمجتمعات بدليل أن أرقى الدول في العالم هي التي تنصدر أفعال العنف بكل أشكاله وأساليبه ونقص ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، لكن العنف يبقى منتج اجتماعي يتأثر بحجم وعي الأفراد وبمدى إشباعهم

أبو النصر مدحت محمد، ظاهرة العنف في المجتمع، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص 125.

أبو النصر مدحت محمد، نفس المصدر، ص 126.

لحاجياتهم ومدى قابليتهم لبعضهم البعض والسعي كل السعي إلى نكران الذات وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، والتعايش السلمي بين كل الديانات والأجناس، وتغليب ثقافة الحوار وقبول الاختلاف بدل العدوان والعنف.

وقد ركزنا في هذا الورقة على سبل مواجهة العنف الموجه ضد الطفل لأننا نعتبر أن هذه الفئة هي الأكثر تضرراً من هذا الفعل والأولى بالعناية لأنها تمثل أفق المجتمع ومستقبله. والحقيقة أن الطفل التونسي لا يزال فريسة سهلة لجملة من أعمال العنف من مختلف الأطراف (عائلة، مجتمع، مؤسسات تربوية، مؤسسات إعلامية...) دونما وعي كبير من كافة القوى الاجتماعية بفضاعة وجسامة هذه الأفعال، فالخوف كل الخوف أن نستثني أو أن نتناسى من أهداف الثورة مصلحة الطفل الفضلى.

قائمة المراجع العربية:

1. ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار الجيل بيروت، 1998.
2. أبو النصر مدحت محمد، ظاهرة العنف في المجتمع، الدار العالمية للنشر والتوزيع القاهرة، 2009.
3. ارفنج زيتلن، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، ترجمة محمد عودة وآخرون، ذات السلاسل، الكويت 1989.
4. الحيدري إبراهيم، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، دار الساقى، بيروت لبنان، 2015.
5. بن دريدي احمد، العنف بين التلاميذ في المدارس الثانوية الجزائرية، جامعة نايف للعلوم العربية الأمنية، المملكة العربية السعودية، الرياض 2007.
6. حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، بيروت، مركز الإنماء العربي، 1976، ص 253.
7. ملر جان ماري، معنى اللاعنف، ترجمة انطوان الخوري طوق، مركز اللاعنف وحقوق الإنسان، (الكتاب من منشورات جمعية العمل الاجتماعي والثقافي، بيروت، 1995).
8. النشرة الإحصائية لنشاط مندوبي حماية الطفولة بتونس، العدد الثاني، فيفري 2015.
9. المجلس العربي للطفولة والتنمية، الدليل التدريبي للإعلاميين العرب، حماية الأطفال من العنف، (القاهرة: المجلس العربي للطفولة والتنمية، 2008).

-[http://www .detlemcen.edudz/paix](http://www.detlemcen.edudz/paix).

-www.amanjordan.org/conferences/vaciaw/vaciaw21.htm.

الاضطرابات اللغوية وتأثيرها على مهارتي الفهم والتذكر اللغويين

أ.د. عز الدين الزياتي/جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب

أ.د. التهامي الحايبي/المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة، المغرب

ملخص:

نتناول في هذا المقال اكتساب الطفل/المتعلم مهارات التعلم اللغوي وشروط ذلك، وبعض العوائق التي من شأنها أن تعرقل عملية تعلمه اللغة العربية، ومن هذه العوائق الاضطرابات اللغوية. كما سنُغني هذه الورقة بعرض نتائج دراسة ميدانية تطبيقية أجريناها حول تأثير الاضطرابات اللغوية على مهارتي الفهم والتذكر اللغويين لدى التلاميذ المصابين في مستوى السادس ابتدائي. وقد أتاحت لنا هذه النتائج اعتمادا على اختبارات مقننة تقيس هاتين المهارتين. الكلمات مفتاحية: -مهارات التعلم -الاضطرابات اللغوية -الفهم -التذكر.

مقدمة:

تشكّل اللغة زاوية من زوايا النفس البشرية، ومقوّمًا من مقومات القدرات الإنسانية، التي تجعل من الإنسان مبدعا ومفكرا متميزا، وكائنا معبرا عن فكر خلاق فريد. كما أن الكلمة تعتبر الوسيلة الوحيدة المثلى لإعراجه عما يخالجه من أفكار ورغبات. إلا أن إمكانيات الطفل الفنية ما تزال، في مجتمعاتنا، تحقّقها الظلمة ويلقّها الجهل من كل جانب، إذ لم تُجرّ بحوث رصينة تستهدف استكشاف هذه القدرات قصد تنميتها وتطويرها استنادا إلى مناهج علمية سليمة.

واهتمامنا بالطفل يجد تفسيره في كون الطفولة قوام قوة البشرية، إذ إن الأمم المتحضرة تُعنى أيّما اعتناء بالأطفال، باعتبارهم ينبوعا ثرا للإبداع وضمان الدوام والإستمرارية على درب التقدم والإزدهار. حتى غداً أن درجة رعاية الأمم وعنايتها بأطفالها هي المقياس أو شهادة الجودة، التي تسمح لأمة من الأمم أن تنضم إلى نادي الدول التي بلغت شأواً عظيما في مراتب الرقي والتمدن. واكتساب اللغة وارتقاؤها يعتبر أحد الموضوعات الهامة التي حظيت باهتمام كبير وبحوث متعددة في علم النفس الإرتقائي وعلم النفس اللغوي، ذلك أن اللغة واكتسابها خاصة إنسانية دون سواه من المخلوقات، إنها هي حدود مملكتنا، ولن تجرؤ بهيمة على اجتيازها، على حد تعبير فردريك ماكس موللر¹.

إن هذه العبارات تحصر اللغة على الإنسان دون غيره من الكائنات، إلا أننا نختلف في مستوى تحصيلنا لها ودرجة ضبطها واكتسابها. ولا شك أن هناك عوامل كثيرة تتحكم في ذلك، منها التربية المقدّمة للطفل. فاللغة كما هو معلوم ليست مجرد رموز نعبر بها عن حاجتنا، بل هي أيضا أداة للتفكير، بها نفكر وبها نعبر، وكل تفاوت في إتقانها قد تنجم عنه آثار نفسية وعاطفية وذهنية وتواصلية اجتماعية خطيرة...

ويأتي هذا المقال تلبية لهذا المطلب، سيما فيما يتعلق بالطفل واللغة العربية الفصحى ومهارات تعلمها وعلاقة ذلك بالاضطرابات اللغوية، وسننطلق في هذه الورقة من فرضية مؤداها أن الاضطرابات اللغوية تؤثر سلبا على مهارتي الفهم والتذكر اللغويين. ولروز هذه الفرضية وتمحيصها اعتمدنا اختبارات معدّة لقياس هاتين مهارتين.

1-تعريف الاضطرابات اللغوية:

و"الاضطرابات اللغوية هي اضطراب ملحوظ في مجال النطق أو الصوت، أو التأخر اللغوي، أو الطلاقة الكلامية، أو عدم القدرة على اللغة التعبيرية، أو الإستقبالية، لأسباب قد تكون بيولوجية أو أسرية أو نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية؛ مثل الحرمان البيئي أو المادي، بحيث يصبح الطفل بحاجة إلى برامج علاجية وتربوية متخصصة. وتصبح هذه الاضطرابات إعاقة إذا أصبحت عملية إرسال أو إستقبال اللغة عملية خاطئة (...). وإذا استدعت حالته انتباها سلبيا من الآخرين (...). ويكون لذلك علاقة بدرجة الصوت من حيث شدته، وارتفاعه أو انخفاضه، أو نوعيته، وتظهر في مجال الاتصال الاجتماعي مع الآخرين"².

1 - كورباليس، مايكل. (2006). "في نشأة اللغة، من إشارة اليد إلى نطق الفم". ترجمة محمود ماجد عمر. عالم المعرفة، عدد 325، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شركة مطابع المجموعة الدولية، ص 37

2- العزة، سعيد حسني. (2002). المدخل إلى التربية الخاصة للأطفال ذوي الحاجات الخاصة: المفهوم، التشخيص، أساليب التدريس. عمان، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، ودار الثقافة للنشر والتوزيع، ص ص 180-182

ولقد ذهبت بعض الدراسات (لينبرغ 1967 Lenneberg) "إلى أن الطفل الذي لا يستطيع اكتساب لغته الأم لسبب من الأسباب (الصمم مثلا)، وذلك قبل أن يبلغ الاثني عشر سنة، يضيع بكيفية نهائية القدرة على اكتساب الكلام"¹، فإن الأمر، وبناء على هذا المعطى، يستدعي الاستشعار المبكر قصد المبادرة إلى التصدي لهذه المشكلة قبل استفحالها.

2-مهارات التعلم اللغوي:

لقد أصبح التعليم والتعلم في الأونة الأخيرة يركز كل اهتمامه على المتعلم، بل يجعل منه محورا تدور عليه كافة الأطراف، من معلم ومادة ومنهج... فتخلى المعلم، بذلك، على جزء كبير من مهمته؛

التي حملها على عاتقه من² ذ أمد بعيد، وهو تلقين المعارف باعتباره المصدر الوحيد الذي لا محيد عنه ولا بديل، والمورد العذب الذي يرتوي منه كل المتعلمين، وذلك نتيجة طبيعية للطفرة التي شهدتها عالم الإتصال والمعلومات، وما ترتب على هذا من تنوع لمصادر المعرفة والإطلاع.

ولهذه الأسباب أنيط بالمدرس دور جديد ينبغي عليه أن يعتاد عليه، وهو تزويد المتعلم بمجموعة من المهارات التي تخوله أن يحتك احتكاكا مباشرا مع المعارف والمعلومات، ويتكيف معها وفق اختلاف المواقف والحالات ومغالبية كافة أشكال الصعاب والتحديات. ليتسنى له بناء وجوده معرفيا وثقافيا وسلوكيا واجتماعيا... ذلك أن الاتجاه في التربية الحديثة يرمي إلى التمهير لا التلقين والتحفيز.

وتُعرّف "المهارة بأنها الأداء المتقن القائم على الفهم والاقتصاد في الوقت والجهد المبذول"³. أو هي في مجال اللغة قدرة الشخص على التعبير بسلاسة وطلاقة على ما يفكر فيه وبراعته في ذلك...

3-اكتساب الطفل للمهارة:

إن اكتساب الطفل للمهارة عملية لا تتم على الوجه الأكمل، إلا إذا توفرت شروط تساعد على ذلك، وقد حدّد الباحثون جملة من هذه الشروط نذكر منها:

أ-الممارسة والتكرار: فالممارسة لازمة لاكتساب المهارة، على أن هذه الممارسة يجب أن تكون بصورة طبيعية، وفي مواقف متنوعة، وذلك بدلا من التكرار الآلي نفسه. واكتساب المهارات اللغوية لا يمكن أن يتم إلا إذا كان المتعلم إيجابيا وحيويا، ومدرسو اللغة لا يمكنهم أن يعملوا على إكساب المتعلم هذه المهارات إلا إذا سمحوا له بأن يبحث وينقب ويعمل ويمارس ويحكم

¹ - بيت كوردر. (أبريل 1990). ماذا تعني الأخطاء اللغوية للمتعلمين؟ ، ترجمة الشامي موسى، المجلة المغربية لتدريس اللغات، العدد2، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، ص26

³ - محمد، أحمد السيد. (1998). اللسانيات وتعليم اللغة. كلية التربية، جامعة دمشق، سلسلة الدراسات والبحوث المعمقة. تونس، سوسة، دار المعارف للطباعة والنشر، ص88

بنفسه، ولقد كان "بستالوتزي" ممّن أرسوا دعائم هذا الاتجاه، فهي هو ذا يقول: "لِيَكُنْ طفلك حرّاً ما أمكن، دعه يرّ ويسمع وينظر وينهض ويتكلم، ليتعلم بنفسه ما لا يتعلمه من الآخرين بالتلقين والعبارة واللفظ..."

فلكي نُعلّم تلميذا ما الكتابة لا نجبره على الإصغاء لدرس في الكتابة، بل نضع بين أصابعه قلمًا. ومهما شرحت لإنسان ما كيفية قيادة السيارة لن يتمكن من قيادتها إلا إذا مارس القيادة عمليا، وعندما أراد "مانتور" أن يعلم "تيليمانك" السباحة ألقاه في اليمّ، ولكنه، ألقى نفسه معه أيضا، كي يراقب حركاته كلها ويحول بينه وبين الغرق¹.

إذن، فلا بد من البحث عن الحلقة المفتاح التي يمكننا بواسطتها أن نُشرك المتعلم، كمنخرط في إجراء بناء المهارات؛ لأن عملنا على تقديم معنى جاهز غير كاف، بل من اللازم أن نبني معا هذا المعنى؛ أي أن نحضر مهارة حاملة لمعنى، إذ "إن التلميذ السعيد؛ هو التلميذ الذي يجد معنى فيما يتعلمه في المدرسة" حسب جاك ليفين² Jacques Lévine.

كما يجب على المدرس أن يأخذ المتعلم بعين الاعتبار، وأن يدرك حقيقة أنه إذا كان المدرس حُرّاً في طرح الأسئلة، فإن المتعلم ينبغي ألا يكون أقلّ منه حرية في صياغة وتصوير الأجوبة، وهو أمر نفتقده، للأسف، في ثقافتنا البيداغوجية...

والالتزام المدرس بهذا المبدأ، يجعل التلميذ أكثر حرية في المشاركة والتعلم، وهذا ما يقصده الكنديون عندما يخاطبون الفرنسيين وينتقدون منهجهم في التدريس، بقولهم: "أنتم تحرّصون المجموعة، بينما نحن نشتغل في المجموعة" « Vous surveillez le groupe, nous, nous travaillons en groupe » والعمل داخل المجموعات يتيح إمكانات هامة للتلميذ بأن يتفاعل وينسجم وينخرط في حوارات حية، وذلك عن طريق النشاط الهادف للتوصل إلى إنتاج جماعي، وتوزيع الأدوار، والتنسيق والتوافق في اتخاذ القرارات، وتنظيم العلاقات داخل العمل، والتواصل الحقيقي... وبهذا يكون الفصل -في مفهوم العمل داخل مجموعات- بمثابة مؤسسة مصغرة يجد فيها كل تلميذ مكانا له³.

ب- الفهم وإدراك العلاقات والنتائج: إذ لا بد أن تكون الممارسة التي يقوم بها المتعلم مبنية على الفهم وإدراك العلاقات وتعرّف النتائج؛ لأن الممارسة من غير الفهم تجعل المهارة آلية لا تعين صاحبها على مواجهة المواقف الجديدة وحسن التصرف فيها.

ج- التوجيه: ويُعين على اكتساب المهارة توجيه أنظار المتعلمين إلى أخطائهم، وتبصيرهم بنواحي قوتهم وضعفهم، وتعريفهم بأفضل الأساليب وأنجحها لإنجاز الأداء.

د- القدوة الحسنة: ومما يعين على اكتساب المهارة، أن يشاهد المتعلمون من يتقنون المهارات من زملائهم أو من مدرّسهم أو بطريق التسجيلات والمخابر اللغوية؛ لأن للقدوة الحسنة أثرا كبيرا في المحاكاة والتقليد وتحري الصحة والسلامة.

1 - السيد، محمود أحمد. (1988). اللغة تدريساً... واكتساباً. الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، دار الفيصل الثقافية، ص84

2 - De Vecchi, Gérard. Carmona-Magnaldi, Nicole. (1996). Faire construire des savoirs. Hachette éducation, p9

3 Ibid, PP253-254

هـ- التشجيع والتعزيز: فالتعزيز والنجاح يؤديان إلى تعزيز التعلم، وإلى تقدم ملموس في اكتساب المهارة، وإذا ما تكرر الأداء وأضحى مهارة تمكن المتعلم من أن يقوم به بكل سهولة ويسر وعفوية، فعندها تتحول المهارة إلى عادة.

وفي ضوء المبادئ والأسس السابقة، نلاحظ أن المهارة اللغوية، لا يمكن أن تتكوّن إلا نتيجة الإعادة المتكررة. وأن المعرفة لا تكوّن وحدها المهارة، وأن السيولة النطقية وممارسة اللغة بصورة عادة لا يمكن للمرء أن يصل إليها إلا إذا اكتسب المهارات؛ ذلك لأن التقدم من المعرفة إلى العادة عمل غير متفق مع الحقائق النفسية، فممارسة المهارات، تلك الأفعال المؤداة بمشاركة الوعي خطوة ضرورية لتكوين العادات التي تؤدي من دون حاجة إلى تفكير واع لأدائها بعد ذلك¹.

إلا أن النظام المدرسي التقليدي غالبا ما يكبح جماح التلميذ ويلجم لسانه عند محاولته تناول الكلمة، فقد جرت العادة ألا يتكلم عندما يشاء وبمبادرته الشخصية، وإنما يجب عليه أن يلتزم الصمت المطبق ليستمتع فقط، ولا يحق له التكلم أبدا إلا عندما يُسأل. وهذا يُحدّ طبعاً من حرية التلميذ في التعبير².

4- التدرج في تقديم المهارات اللغوية:

لقد كانت طريقة تدريس اللغة فيما سبق، تبدأ بتعليم التلاميذ الحروف الأبجدية منذ دخولهم إلى المدرسة، دون أن يسبق ذلك أي تهيئة، إلا أن الطرائق الحديثة في تعليم اللغة ترى أن هذا الأسلوب خاطئ، إذ إنه يعمل على تنفير الأطفال من جو المدرسة، لصعوبة الأحرف المقدمة بشكل مجرد. من هنا بُدئ بتعليم المحادثة في الأشهر الأولى؛ بغية تعويد الأذن على سماع أصوات اللغة والتمييز بينها، وتوفير الجو الملائم لترداد هذه الأصوات والتراكيب اللغوية إلى أن تتم السيطرة عليها نتيجة لتكوّن العادات اللغوية، ثم ينتقل بعدها إلى تعليم القراءة فالكتابة من البنى والأنماط اللغوية التي سبق التدريب عليها شفويا.

والتدريب على المحادثة في الأشهر الأولى من دخول التلميذ إلى المدرسة يحقق نوعين من التهيئة؛ الأولى صوتية وتتمثل في تذليل صعوبات النطق عند المبتدئين، وتمريضهم على سماع الأداء اللغوي والنبرة الصوتية، فتألف آذانهم اللغة وأنماطها وصيغها. والثانية نفسية وتعمل على إزالة الخوف، وتكسر حدة الخجل والانطواء عند التلاميذ الذين يحسون بالوحشة والعزلة في الفترات الأولى من قدومهم إلى المدرسة... والمجتمعات البشرية عرفت عبر تاريخها اللغة المنطوقة قبل أن تعرف القراءة والكتابة، ومن هنا كانت الطريقة الحديثة تبدأ بسماع البنى اللغوية في أصواتها وتراكيبها ومعرفة معانيها ومدلولاتها أولا، ثم بتكرار هذه البنى ثانيا، وقراءتها ثالثا، ثم تثبيتها رابعا.

وثمة علاقة بين النظر والسمع في اكتساب القراءة في المراحل الأولى، وأثبتت "جراي" أن حركات النظر والسمع غير المنتظمة تشكل صعوبة في اكتساب القراءة لدى الطفل، وأن الطفل الذي لا يستطيع أن يميز بدقة بين الحروف لا يُعدّ مهياً للقراءة.

¹ محمود السيد، سبق ذكره، ص 88.

² BELLENGER, Lionel. (2001). L'excellence à l'oral: développer son charisme. Collection Formation permanente .E.S/T. éditeur,

وأثبتت التجارب الحديثة للدكتور طوماطيس Tomatis الترابط بين اللفظ والسمع، وأن السمع السوي يؤدي إلى لفظ سوي، ولوحظ بوضوح أن الطفل الذي لا ينطق بسلامة لا يكون لديه سمع دقيق في الوقت نفسه، إذ إن القراءة تتطلب استعمالاً وظيفياً لكل من حاستي السمع والنظر، بالإضافة إلى النطق.¹

5- أنواع المهارات اللغوية وطرائق اكتسابها:

تري التربية الحديثة أن المهارات اللغوية تتمثل في المحادثة والاستماع والقراءة والكتابة، ولا تحدثنا الدراسات الأنجلوسكسونية إلا عن أربع مهارات لغوية، يجب التركيز عليها أثناء تعليم وتعلم اللغات، هي: الفهم والنطق والقراءة والكتابة، ذلك دون العمل على محاولة إبراز التدرج الذي تخضع له كل مهارة من هذه المهارات أثناء التعلم. كما أن أحداً من الباحثين في علم اللغة التطبيقي أو ديداكتولوجيا اللغات والثقافات، أو في ميدان السيكلولسانيات أو السوسولوجيا، لم يهتم بإدراج مهارة التذكر والاستظهار كمهارة لغوية أساسية في تنمية اكتساب اللغات والثقافات. حيث ثبت بأن هذه المهارة أيضاً، يمكن تنميتها وتطويرها بواسطة تداريب وتمارين خاصة، وتبين بأن نموها وتطويرها نحو مستويات عليا، يلعب أدواراً حاسمة في تمكن المتعلمين من اللغة الهدف...² وسنقتصر في هذه الورقة، كما أسلفنا، على مهارتي الفهم والتذكر اللغويين.

1-5- مهارة الفهم:

كما ورد في مؤلف الباحث الأمريكي هايجر « Education for American democracy » بأن الفهم يقتضي إدراك أفكار الآخرين، والتعبير عن الأفكار الشخصية بطريقة منسجمة وواضحة. فأصبح الفهم حسب هذا التعريف مهارة استقبالية وإنتاجية في نفس الوقت، إلا أن الظاهر بأن الفهم كمهارة لغوية، أوسع من هذا التعريف المقتضب بكثير. وقد تناوله بالشرح والتحليل والتفصيل "بلوم" في مصنفه المشهور للأهداف التربوية. (Benjamin Bloom, taxonomie des objectifs pédagogiques, p.100).

وهكذا، يمكن القول بأن عملية الفهم عملية ذهنية معقدة جداً، حيث لا يمكن حصر العوامل السيكلولوجية والفيزيولوجية والمعرفية والعقلية، التي تتداخل وتتضافر لحصول وتحقيق الفهم، كما لا يمكن عدّ وإحصاء العوامل المتشعبة التي تحول دون حصوله وتعوقه لدى المتعلم. إلا أننا يمكن أن نكتفي بوصف ظواهر الأشياء وعوارضها، لنقول بأن عملية فهم المعنى اللغوي تتداخل فيها عدة مهارات وقدرات فكرية وذهنية أخرى، تختلف أدوارها حسب اختلاف المواقف والمقامات، واختلاف مؤهلات الأفراد...

ورغم القيام بعدة محاولات في البحث عن ميكانيزمات الفهم، والقيام بعدة تجارب لحل ألغازه وتوضيح جوانبه الغامضة، فما زالت لحد الآن عدة قضايا ترتبط به غامضة (...). كما أن البحوث المتعددة التي اهتمت بالفهم قد تمخضت عن نظريات متباينة، تفسر ميكانيزماته بأشكال وطرق مختلفة...

¹ - محمد السيد، سبق ذكره، ص 121/87

² - بوشوك، المصطفى بن عبد الله. (1994). تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها: دراسة نظرية وميدانية في تشخيص الصعوبات - اقتراح مقاربات ومناهج ديداكتيكية - بناء تصنيف ثلاثي الأبعاد في الأهداف اللسانية. الطبعة الثانية، الرباط، الهلال العربية للطباعة والنشر، ص 242

لكننا يمكن أن نقول بإيجاز؛ إن فهم التلميذ لتعبير لغوي يقتضي منه أن يكون قادرا على إنشاء عرض معرفي مطابق له، الشيء الذي يمكن أن نسميه الترجمة المطابقة لمضمونه، لكن المعطيات التي يعتمد عليها التلميذ في بناء الترجمة تتجاوز في أغلب الحالات المجال التعبيري في حد ذاته، وتتعداه إلى مجالات أخرى، حيث تتفاعل عدة متغيرات، ترتبط بالمقام التعبيري وغير التعبيري للخطاب. ومن هنا يتضح بأن المعارف الضرورية لتحقيق الفهم لا تقتصر على المجال التعبيري السيميائي، بل تتعداه إلى مجالات أخرى فوق لسانية. (...) يمكن القول بأن نمو مهارة الفهم يساير - بعلاقة ترابط منتظمة- نمو السنّ العقلية للتلميذ¹. وأن "خصائص الفهم (...) خصائص تتعلق بالأساس بالبنى الإدراكية لدى الشخص وحصيلته المعرفية، وكذا بنشاطه النقدي وسيورته السيكلوجية؛ من إدراك وتحليل وحفظ واسترجاع وعرض... الخ"².

ولعملية الفهم استراتيجيات معرفية، يمكن حصرها في ثلاث وهي:

-انتقاء المعلومات: فحسب وينغراد (Wingrad, 1984) تسمح هذه الاستراتيجية بتمييز القارئ الجيد من غيره، وتُمكن القارئ من استخراج الأفكار الهامة، عبر تزويده بقائمة من الأسئلة.

-تنظيم المعلومات: إذ إن تنظيم المعلومات هو إجراء من الأهمية بمكان، فإذا كان لِكَمّ المعارف التي يمتلكها الأفراد تأثير كبير على إنجازاتهم، فمن المحتمل أن تنظيمها يلعب دورا أهم. فتتنظيم المعلومات بهم بناء علاقات بين الأفكار الأساس (Mayer, 1984) بهدف إيجاد تمثيل ذهني منسجم ككُلِّ متكامل.

-إدماج المعلومات: إذ إن إضافة المعلومات الراهنة إلى سابقتها يشكل استراتيجية ناجعة للتخزين الجيد للمعلومات، واستثمارا للمكتسبات بشكل يسير جدا³.

ولقد انصب اهتمام الأبحاث وتركيزها على ميكانيزمات التعرف على المفردات، فوجد أن ثمة صعوبات منهجية وإجرائية فيما يتعلق بالتشخيص الدقيق لطبيعة هذه الصعوبات التي تعترض القارئ أثناء مباشرته لنص ما... وتؤكد أعمال تجريبية كثيرة بأن تحديد المفردات أو التعرف عليها يمثل عملية حاسمة في تفسير مشاكل فهم النصوص إلا أن هذا المعطى وحده غير كاف. ولمقاربة ذلك، نقترح هذه الحالات الثلاث:

-الحالة الأولى: وتمت معالجتها من قبل سطانوفيتش (Stanovich, 1980)، وهي حالة يصعب علينا معها تحديد مكان الصعوبة، هل تتجلى في تحديد المفردات، أم في النص من حيث مستواه وحمولته الثقافية. إذ يستلزم الأمر من القارئ أن يخصص حيزا زمنيا هاما من وقته وجهده كي يتعرف على المفردات المشكلة للنص، ثم تلمها محاولة لفهم مدلول النص ومحتواه. يبدو أن القارئ هنا جيد على مستوى تحديد المفردات لكنه ضعيف من حيث إدراك المعنى، ذلك أن تحديد المفردات قد استنفذ كثيرا من قدراته، وكأن القارئ يتوفر على مصادر معرفية جد محدودة، يوزعها بين مختلف سيرورات قراءة نص ما،

¹ المرجع نفسه، ص 243/244

² -الدرج، محمد. (1992). نحو بيداغوجية جديدة للتعبير: مقتضيات دراسة النصوص. الدليل التربوي، تدريسية النصوص. إشراف محمد الديرج، تأليف جماعة من الأساتذة، الجزء الثاني، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ص 8

³ - Jacques Deschênes, André. (1990/1991). Les entretiens Nathan, La lecture : une activité stratégique. Québec, Canada, PP37/38

فهو يكرس طاقته في تحديد الكلمات فيكلاً ويشرد ذهنه، ليتعذر عليه بذلك فهم النص فهما جيداً. ومما سبق يمكن القول بأن الحالة الأولى، تبين أن سبب صعوبات فهم النصوص، يعود إلى مشاكل في التعرف على المفردات وتحديدها.

-الحالة الثانية: يتعلق الأمر بنصوص سهلة من حيث المفردات، ومع ذلك يتعذر فهمها (Healy 1982). فقد قام هذا الباحث باختبار 12 طفلاً، تتراوح أعمارهم ما بين 5 و12 سنة. وقد أبان هؤلاء الأطفال كلهم على مستوى جيد في فهم المفردات دون صعوبة، لكن مستواهم في فهم النص كان جد ضعيف، وهذا حمل الباحث على أن يستنتج بأن صعوبة الفهم عند هؤلاء الأطفال تتجلى في الربط بين مفردات النص.

-الحالة الثالثة: كحالة المتكلم الذي لا يتقن مثلاً اللغة الفرنسية، فهو يختلف عن حالة الفرنسي المتقن للغة، إلا أنه لم يفهم مقالا حول حرب لبنان على سبيل المثال، وهنا يجب ألا نحكم عليه بصفة القارئ الرديء لأنه لم يفهم هذا المقال، فهو يجيد الفرنسية ومستواه الثقافي جيد، لكن تعوزه المعارف المطروحة في هذا النص، وذلك لجهله بأسماء الأشخاص والأماكن الواردة والمصطلحات التقنية.

وهذا التمييز بين معرفة اللغة ومعرفة الموضوع هام جداً على المستوى العملي، فالطفل الذي أبدى صعوبات بسبب عدم اتقانه اللغة الفرنسية، مهاجر مثلاً أو غيره... يجب أن نطور لديه في البدء المستوى اللغوي. أما الطفل الذي يتفوق لغوياً ولم يتمكن من فهم نص حول حرب لبنان، فهذا في حاجة إلى دعم وإمداد بالمعارف التي تهتم التاريخ والجغرافيا والسياسة الدولية، عوض إضاعة الوقت والجهود على المستوى اللغوي الذي هو في غنى عنه. وبعد أن يحيط بهذه المعلومات سيفهم النص جيداً، لكنه سوف يصادف صعوبات أخرى في نص آخر حول حرب فيتنام، إذا كانت معلوماته قاصرة حولها¹.

إذن، يمكن أن نقول إن الفهم بهذا التصور؛ هو أن نستوعب ما نقرأ أثناء عملية القراءة ذاتها، وأن نفهم الجملة وعلاقتها بما بعدها وما قبلها. فهو نشاط عقلي مميز يقوم على إدراك الحقائق والنفوذ إلى جوهرها².

إلا أنه وعلى الرغم من الأهمية البالغة التي يكتسبها الفهم كمهارة أساس في التعلم، فإن عملية تدريسه وتنميته ليست في مستوى تطلعات الباحثين والمهتمين في الديدكتيك واللسانيات، ففي دراسة حديثة تمت فيها معاينة سلوك المدرسين أثناء درس القراءة، بالمدارس الابتدائية بالولايات المتحدة الأمريكية (Wendler&Samuels&Moore, 1989) توصلوا إلى أن الحيز المخصص لتدريس استراتيجيات الفهم يظل جد محدود.

كما أنه لا توجد أوصاف دقيقة جاهزة تتيح للمدرسين اختيار التقنيات المعينة على إجراءات الفهم، فقد لاحظ ويندلر (Wendler, 1989) ومجموعة عمله أنه حينما يُطلب من المدرس تقديم طريقتة المثلى في تدريس الفهم، فإنه يلجأ إلى الأسئلة، وهي تقنية مفيدة، سيما بالنسبة للتلاميذ المتفوقين، الذين يبادرون إلى الإجابة بسرعة³

Ibid, p54¹

² ينظر: -الخولي، محمد علي. (د.ت). المهارات الدراسية. الرياض، المملكة العربية السعودية، مكتبة الخريجي، (ص 95). -والشنتي، صالح محمد. (1996). المهارات اللغوية، مدخل إلى خصائص اللغة العربية وفنونها، الطبعة الرابعة، دار الأندلس للنشر والتوزيع، ص 148

Deschênes, Op. Cit., p42-29³

2-5-مهارة التذكر:

تعرف الذاكرة بأنها المقدرة على تخزين الأحاسيس والإدراكات واسترجاعها (...). وهي تتألف من ثلاثة أقسام، هي: وحدة استقبال المعلومات وتصنيفها، ووحدة تخزين المعلومات وتصنيفها، ووحدة استرجاع المعلومات واستدعائها. فالتذكر إذن هو استرجاع شيء تعلمناه من قبل مع تحديد في الزمان والمكان، كأن يقوم التلميذ بتلاوة قصيدة من الشعر سبق أن حفظها من قبل¹.

ولم تُعد الذاكرة تلك القلعة المستعصية أو الوظيفة العقلية المستحيلة المنال، لكن وبالرغم من التقدم الحاصل فإن الباحثين لم يتوصلوا إلى حلّ كل الرموز والدواليب الدقيقة والميكانيزمات العصبية الحيوية المتعددة، والتعرف على الأنساق المتشابكة والمعقدة للذاكرة والتعلم، فمنذ حوالي أربعة عقود بدأ الباحثون في ميادين علوم الأعصاب (فيزيولوجيا الأعصاب وعلم النفس الفيزيولوجي وعلم جينات الأعصاب...) وعلوم النفس (علم النفس التجريبي وعلم النفس المعرفي...) في البحث عن مكونات الذاكرة التي تشكل إحدى الوظائف العليا للإنسان، والتي بدونها لا يمكن أن يكون له ماضٍ يعتمد كمرجعية لحياته اليومية، ولا مستقبل يتوقعه انطلاقاً من ماضيه وحاضره.

ويتسم البحث في هذه الميادين بمقاييس ومبادئ البحث العلمي المتداولة في جلّ ميادين العلوم البحتة. أما العلوم النفسية فقد اهتمت بدراسة السيرورات والآليات السيكلولوجية الكامنة وراء معالجة المعلومات واكتسابها وتخزينها، وفق محددات مضبوطة كماً وكيفاً. أما الباحثون في ميادين علوم الأعصاب، فقد انصب اهتمامهم في البحث على الآليات والميكانيزمات والسيرورات العصبية الحيوية والعصب كيميائية والعصب تشريحية، التي تمكن الجهاز العصبي من معالجة المعلومات واختزانها واسترجاعها واستغلالها، للتعبير عن مشاعر ومواقف ومبادئ حياته، وأخرى لبناء أنماط سلوك فردي أو اجتماعي يمكن الفرد من الشعور بأنه ينتمي إلى مجتمع أو مجموعة ما. وقد شكّل البحث عن آثار الذاكرة والجزيئات الخلوية النشيطة بالجهاز العصبي-وما يزال- ميداناً خصباً في ميادين علوم الأعصاب...²

وذكر شارل سبيرمان Spearman: "إن الحوادث المعرفية تكوّن بحدوثها استعدادات تيسر تكرار الحوادث"، ولقد كان سبيرمان يرمي من وراء قوله هذا، إلى أن القوة الحافظة أو القوة العقلية تحافظ على المؤثرات اللاحقة الفعالة وتضمن دوام استمرارها، وإننا نعلم حقا أن خبراتنا الحاضرة كافة، إنما هي ملونة ومشكلة بالخبرة الماضية ومتصلة بها أشد الاتصال، وبهذه الخبرات التي تكون قد تركت بعدها استعدادات وآثاراً في التركيب العقلي، وعلى ضوء فرضية الاستعدادات هذه، ننتج تفسيراً لقدراتنا على تذكر الحوادث الماضية التي مرت بنا.

على أنه يجب ألا يغرب على البال بأن الإخفاق في التذكر لا يعني بحال من الأحوال؛ أن الاستعدادات لم تكن قد توطدت أو أنها غير فعالة. فلعلنا نخفق مثلاً في استرجاع خبرة معينة أو التعرف على منظومة من المقاطع عديمة المعنى non-sens syllables كنا قد تعلمناها في إحدى المرات وفي وقت من الأوقات، لكننا سنجد على وجه التأكيد، إذا نحن حاولنا، أن قليلاً من التكرار

¹ - ينظر: -نبيل، عبد الهادي. عمر، نصر الله. سمير، شقير. (2000). بطء التعلم وصعوباته. عمان، الأردن، دار وائل للنشر. -و مطاوع، ابراهيم عصمت. (2002). التنمية البشرية بالتعليم والتعلم في الوطن العربي. الطبعة الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي، ص 269

² - بن الفقيه، العربي. (أكتوبر 2001). "الدماغ والبحث عن آثار الذاكرة". مجلة علوم التربية، العدد 21، مطبعة النجاح الجديدة، ص 22

والإعادة يمكننا من إعادة تعلم تلك السلسلة، وهذا برهان قاطع على أن وجود الاستعدادات وفعاليتها قائمان، وهما ناجمان عن التعلم المرتكز إلى الجهد والانتباه والإرادة...¹

إن تحسين الذاكرة وتطويرها على الضبط والتحكم يخضع لعوامل شتى، لا يمكن حصرها أو تنميطها، ونكتفي هنا بعرض بعض منها: مراعاة القواعد الخاصة بالتعلم، وتحديد ما يرغب الفرد في تذكره، وتكرار قراءة المادة المرغوب تذكرها واسترجاعها وتسميعها وتلخيصها، وحصر الانتباه وتعلم المادة بنية تذكرها، والتعلم الجيد في المحاولة الأولى.²

إن التطور الذي شهدته التكنولوجيا السمعية البصرية قد دفع بالعديد من الباحثين إلى القيام بتجارب على الذاكرة (...). اعتمدت كلمات وجملا، فتوصلت إلى أن العرض السمعي كان أحسن وأنجع من العرض البصري، وإن كان اعتقاد الناس بخلاف ذلك. وتفسير ذلك أن ذاكرة الصورة لا تدوم إلا 250 إلى 500 جزء ألفي من الثانية، في حين أن الذاكرة السمعية تدوم قرابة ثانيتين إلى ثلاث ثوان، أي بعشرة أضعاف. إلا أن الباحث الانجليزي جون مورتون John Morton ينفي هذا الفرق بقوله: "إن المعلومات البصرية أو السمعية تتوحد بسرعة في حالة رمزية عليا نسميها الرمز المعجمي..."³

ولقد أجريت تجارب كان الغرض منها تحري تفاوت الذاكرة المباشرة مع تفاوت العمر واختلافه، فوجد أن الطفل أقل من الراشد قدرة في هذا السبيل، فقد وجد الباحث النفساني مومان Meuman أن هناك تطورا بطيئا في الذاكرة المباشرة، يستمر حتى الثالثة عشرة من العمر، ويزداد هذا النمو بسرعة بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة، ويزداد هذا التقدم في تطور الذاكرة ويضطر حتى الخامسة والعشرين من العمر، عندما يبلغ المرحلة القصوى، وبعد ذلك يطرأ انحدار طفيف. ومن الملاحظ هنا هو أن الزيادة السريعة في هذه القدرة توافق حلول فترة المراهقة، وتصادف وقت حدوثها... ولقد توصل إلى أن الأشياء ذات المعاني تكون أرسخ في الذهن وتسهل إعادتها، ويتيسر استرجاعها أكثر من المقاطع الخالية من المعاني، وذلك لاهتمامنا بالنوع الأول، وعدم اهتمامنا بالمقاطع التي لا معنى لها. ويدخل في الذاكرة كذلك عامل نزوعي وجداني، وإن الاهتمام والإرادة Willing عنصران بالغ الأهمية في الاقتصاد بما يهم الذاكرة، وإن الحوادث التي نتذكرها بسرعة إنما هي تلك التي تمس انفعالنا وعواطفنا، وخاصة عاطفتنا الذاتية التي تتصل باعتبار الذات.⁴

6-دراسة انعكاسات الاضطرابات اللغوية على مهارتي الفهم والتذكر اللغويين:

انطلقنا من إشكالية تتساءل عن مدى انعكاسات الاضطرابات اللغوية على مهارتي الفهم والتذكر اللغويين عند الطفل المصاب؟ والأمل يحدونا لمعرفة ما إذا كانت هناك فروق جوهرية على هذا المستوى بين التلاميذ المصابين والتلاميذ الأسوياء، بُغية التحسيس بمدى خطورة الاضطرابات اللغوية على مهارات التعلم. وتنبع أهمية هذا الموضوع من ارتباطه بالطفل والتعلم اللغوي والاضطرابات اللغوية؛ إذ ما فتأت الدراسات تؤكد على ضرورة القيام بدراسات معمقة حوله لاستكناه ما استغلقت منه

¹ - الجسماني، عبد العلي. (1994). علم النفس وتطبيقاته الإجتماعية والتربوية. الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، الدار العربية للعلوم، ص 126

² عصمت مطاوع، سبق ذكره، ص ص 269-272

³ - Lieury, Alain. (1997). Mémoire et réussite scolaire. 3^{ème} édition, Dunod, Paris, pp7/8

⁴ - الجسماني، عبد العلي. (1994). علم النفس وتطبيقاته الإجتماعية والتربوية. الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، الدار العربية للعلوم، ص 129

وكشف خباياه. وقد شملت الدراسة النهائية 204 تلميذا من مدارس التعليم الابتدائي مستوى السادس بالمغرب. قسمناهم إلى مجموعتين متساويتين من حيث العدد والجنس؛ مجموعة تجريبية وتضم التلاميذ الذين يعانون مظهرا من مظاهر الاضطرابات اللغوية، ومجموعة ضابطة تشمل التلاميذ الأسوياء.

وقد قمنا بوضع اختبارات لقياس مهارة الفهم اللغوي وآخر لقياس مهارة التذكر اللغوي، وهي اختبارات تتمتع بقدر من الثبات والصدق والموضوعية. يضم الاختبار الأول أربعة اختبارات فرعية هي اختبار المفردات اللغوية، واختبار الأضداد، واختبار المتشابهات اللفظية ثم اختبار التراكيب اللغوية والأمثال. أما اختبار التذكر اللغوي فيقيس قدرة التلميذ على التذكر اللغوي على المدى القصير، واستوحيناه من اختبارات مركز الأبحاث بباريس Centre d'études-paris لقياس الذاكرة.

وقد أسفرت الدراسة عن نتائج مهمة نقدمها فيما يلي:

1-6- نتائج اختبارات الفهم اللغوي:

بالنسبة لاختبار الفهم اللغوي بفروعه الأربعة، خلصنا بعد تحليل انجازات التلاميذ إلى وجود:

- قصور في تصور وإدراك مفهوم الترادف.
 - فقر وشح في الرصيد المعجمي.
 - ضعف على مستوى التحصيل في اختبارات المفردات اللغوية، والأضداد اللفظية، والمتشابهات اللفظية، والتراكيب اللغوية والأمثال.
 - ذكاء عام يتميز بالتدني، إذا سلمنا بأن اختبار المفردات اللغوية يقيس مستوى الذكاء، حسب تصور وكسلر الذي استقيناه منه هذا الاختبار.
 - فقر في حصيلة المعلومات اللفظية والأفكار.
 - قصور في إدراك وتصوُّر مفهوم التضاد.
 - ضعف في القدرة على إدراك وتمثُّل بعض المفاهيم؛ كالأوزان والمسافات والفضاءات والأمكنة والأزمنة والألوان والحواس والقدرة على القياس وإقامة العلاقات المنطقية.
 - التدني الواضح في تكوين ما يسميه مايمان وشافر ورا بابورت وكرونباخ المفهوم اللفظي.
 - قصور في فهم علاقات المشابهة/المتشابهات اللفظية.
 - الإمام الضعيف بالتراكيب اللغوية والأمثال إحدى مكونات اللغة العربية الفصحى وثقافتها.
 - عدم القدرة على تفسير معاني الكلمات (في الترادف، أو التضاد، أو المشابهة، أو التراكيب والأمثال) انطلاقا من السياق. وفي المقابل، فإن نتائج الأسوياء تختلف كثيرا عن نظرائهم من المصابين، وذلك على مستوى الاختبارات جميعها.
- كما سجلنا ملاحظات أخرى تتعلق بعينة التلاميذ المصابين، منها:

- التلطيخ والتسطير ثم التشطيب وإعادة التسطير؛ وهي سلوكيات يمكن أن تكون ناتجة عن التردد والتلكؤ في الإجابة، مع صعوبة اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.
- من بين الاحتمالات التي يمكن أن توضع لتفسير العدد الكبير من الأجوبة البيضاء في مجموع اختبارات الفهم اللغوي، خاصة منها البنود الأخيرة في قائمة بنود الاختبارات؛ البطء والتأخر والتردد في انجاز الأعمال. وهكذا فقد بلغت نسبة البنود البيضاء أو التي لم يُجب عنها المصابون لا بالخطأ ولا بالصواب 9.89%، في حين بلغت لدى الأسوياء 0.59% وهو فارق شاسع جدا يُدلل على ما بين العينتين من تفاوتات في الانجاز على هذا المستوى أيضا.
- ضعف التركيز، وتمثله المظاهر التي تحدثنا عنها، سيما التشطيب والتردد، وذلك في مقابل الأسوياء الذين يتميزون بالنظافة والأناقة في العمل، إضافة إلى التنظيم وعدم التردد في اختيار الجواب. وهي عوامل لا يمكننا إلا أن نأخذها بعين الاعتبار في التعلم، نظرا لما لليقظة والانتباه والتركيز من دور فعال في عملية تعليم اللغات وتعلمها.
- وبعد أن أجرينا المعالجات الإحصائية اللازمة، ومنها اختبار "ت" (t-test)، ثبت أن الفروق بين متوسطات المصابين والأسوياء على قدر كبير من الدلالة وذلك لصالح الأسوياء؛ بمعنى أن هذه الفروق لا ترجع إلى عامل الصدفة، بل تحدث نتيجة نسق مضطرب ومنتظم يكون عامل الاضطرابات اللغوية سببا وحيدا فيه، علما أننا قمنا بعزل باقي العوامل الأخرى، وهو ما يؤكد أن التأثير السلبي للاضطرابات اللغوية على مهارة الفهم اللغوي.

2-6- مناقشة نتائج اختبار التذكر اللغوي:

يُجمع العديد من الباحثين على أن العوامل التي تؤثر في التذكر والاحتفاظ والاسترجاع، هي نفسها التي تؤثر على الاكتساب والتعلم من منظور معرفي.

وسنعرض هنا بإيجاز نتائج تحليلنا لاختبار التذكر اللغوي، والتي أسفرت عن التالي:

- يتم تذكر المفردات المتداولة بالنسبة للفتتين معا، والأسهل نطقا بالنسبة لعينة المصابين.
- اتضح تأثير الاضطرابات كذلك في البطء الملحوظ الذي يسم عملية قراءة النص/الاختبار من قبل المصابين، مما يحول دون قراءتهم لهذه المفردات المطلوب تذكرها مرات متعددة، وقد لمسنا ذلك في المرحلة التشخيصية. وعلى العكس من ذلك، فإن الأسوياء يكررون القراءة في هذا الوقت المحدود مرات ومرات، مما يجعل استضمارهم للنص أكثر سهولة.
- كتابة الكلمات في غير مواضعها: فعلى الرغم من تذكر المصابين بعض المفردات، إلا أنهم كثيرا ما يعجزون عن وضعها في مكانها السليم، دون مراعاة لاختلال المعنى. فيُحتمل أن يجد ذلك تفسيره في عدم التركيز، حيث "يلعب الانتباه والتركيز دورا مهما في تخزين الذكريات في ذاكرة المتعلم"¹، وربما لارتباط هذا أيضا بضعف القدرة على الفهم؛ ذلك أنه لو تمّ فهم النص فهما جيدا، لسعوا إلى وضع هذه الكلمات حيث يستقيم المعنى.
- أخطاء في كتابة الكلمات المتذكّرة: مثل: "نقود" التي تصبح "نوقد" و"أقبل" التي تصير "أقبال" ... وكأنهم يحاكون طريقة نطقهم لهذه الألفاظ.

¹- Yves, Jean. More, Tadié. (1999). Le sens de la mémoire. Editions Gallimard, p117

- إيراد كلمات لا وجود لها في النص/الاختبار، وغالبا ما لا نجد لها أي علاقة معنوية تربطها بالنص المقترح.
- كتابة كلمات ليس لها معنى؛ مثل: مساحده"، و"التزر"... وهي "سلوكات" تؤثر على وجود خلل ما في الذاكرة اللغوية لهذه الفئة.
- التلطيخ الملفت للنظر، كدأهم في اختبار الفهم اللغوي، إذ سجلنا كثرة التشطيب، والتردد في وضع الكلمة المناسبة، وهي مؤشرات على عدم التركيز وضعف الثقة بالنفس. كما سجلنا رداءة الخط ورسم الحروف وغياب الحسن الجمالي لدى المصابين. علما أن مهارة الكتابة تعتمد على مجموعة من المهارات الجسدية والنفسية الأولية؛ كالانتباه والتمييز السمعي والبصري، وقوة الذاكرة السمعية والبصرية...
- قلب الحروف والحذف وإهمال التنقيط، مع كثرة الإجابات البيضاء التي بلغت نسبتها لدى المصابين 39.80%. وهو أمر قلما يوجد له مثل لدى الأسوياء من التلاميذ، الذين لم تتجاوز النسبة لديهم 17.25%.
- وفيما يتعلق بالجانب الكمي، وجدنا أيضا فرقا شاسعا بين المجموعتين. فقد بلغ متوسط البنود التي تم تذكرها في صفوف المجموعة الضابطة 6.70 وهو ما يمثل ضعف ما حصلت عليه المجموعة التجريبية. وهذا يبين أن قدرة الذاكرة اللغوية تختلف تبعا لمتغير الإصابة.
- وتشير دراسات في علم النفس إلى أن النسيان يعتبر دفاعا نفسيا¹؛ ذلك أن الإنسان غالبا ما ينزع إلى نسيان أو تناسي الأحداث واللحظات والصور والكلمات... التي تقض مضجعه وتؤلمه. ألا يكون نسيان بعض مفردات اختبار التذكر اللغوي نوعا من الدفاع النفسي الذي يروم نسيان المفردات والأصوات التي تسبب المشقة والحرج أمام الآخرين نظرا لصعوبة نطقها؟ ويؤيد هذا الطرح "نظرية الكبت"، ذلك أن مدرسة التحليل النفسي ترى أننا ننسى عن طريق كبت ما لا نريد أن نتذكره، وما لا نهتم به، أو ما يثير لدينا ألما، وعلى هذا يكون الكبت نسيانا تلقائيا، له وظيفة حيوية؛ هي حماية الفرد مما ينغصه أو يؤلمه...²
- لقد أوضحت النتائج المتوصل إليها في اختبار التذكر اللغوي أن هناك فروقا جوهرية بين قدرات التلاميذ المصابين والتلاميذ الأسوياء، وهي فروق دالة كما تبين بعد إجراء اختبار "ت" (t-test).
- ومما تقدم يظهر جليا مدى تأثير الاضطرابات اللغوية على مهارات التعلم اللغوي لدى الطفل المصاب، ولربما كان تأثيرها شاملا بالنسبة لباقي المواد الأخرى، فقد اتضح بعد المعالجة الإحصائية لبعض المعطيات التي تضمنتها استمارة ملحقة بالاختبارات حول كل تلميذ، أن هناك تفاوتات على مستوى الأعمار أيضا؛ إذ إن المصابين أكبر سنا، وبعد استقراء المعطيات تبين أن السبب يعود إلى فوارق في عدد سنوات رسوب المصابين والأسوياء، كما أن معدلات الدورة الأولى من السنة الدراسية أقل من نظيرتها لدى الأسوياء. وهو ما يتماشى مع نتائج الاختبارات السالفة، وينذر بتفاقم خطير قد يستفحل في غياب تربية لغوية سليمة ليصبح تأخرا دراسيا أو فشلا ذريعا يهدد هذه الفئة من المجتمع.

¹ - Bourdin, Dominique. (2004). De l'oubli, Dynamique du fonctionnement psychique. ARMAND COLIN Editeur, Paris, P1

² علي الخولي، يبق ذكره، ص ص96/95

خاتمة:

إن النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة تبين أن الاضطرابات اللغوية تنعكس سلباً على مهاراتي الفهم والتذكر اللغويين لدى المصابين، وقد تجلى هذا في فقر رصيدهم المعجمي وضعف حصيلة المعلومات اللفظية والأفكار وفي قصور إدراكهم لتصور الترادف والتضاد، وصعوبة إقامة العلاقات المنطقية والمعنوية، مع إظهار مشاكل في التذكر اللغوي وتشويش واضح تمثل في سرعة النسيان أو إيراد كلمات أخرى لا علاقة لها بالمفردات الواردة في الاختبار أو قلب للحروف أو حذفها... وهو أمر ينبغي عدم الاستهانة به في غياب أي إشارة في المناهج الدراسية في جلّ الدول العربية إلى التربية الخاصة وما تقتضيه من تكوين للمدرّسين؛ ليطلّعو على أساليب التعامل مع ذوي الاضطرابات اللغوية، سيما وأن أغلب حالاتهم لا تستدعي نقلهم إلى مدارس لذوي الاحتياجات الخاصة، بل إن حالتهم تستدعي فقط نوعاً من العناية بهدف تصحيح اختلالاتهم النطقية، وإعطائهم وقتاً يتناسب وقدراتهم، والاستماع لهم لا تهميشهم أو السخرية منهم، كما يجب تكثيف الأبحاث في هذا المجال وإقامة روابط وجسور بين أسر الأطفال المصابين والطبيب والمدرس وتبريء الظروف المناسبة لهم ليشعروا بالتوازن النفسي وحُب المادة المدروسة ومُدْرَسِها، ف"التلميذ السعيد هو التلميذ الذي يجد معنى لما يتعلمه في المدرسة" حسب جاك ليفين Jacques Lévine 1996. إن أي خلل أو تقصير قد تترتب عليه عواقب نفسية واجتماعية وخيمة، فهذه الفئات تخزن طاقات جبارة وجب استثمارها.

قائمة المراجع:

1. بوشوك، المصطفى بن عبد الله. (1994). تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها: دراسة نظرية وميدانية في تشخيص الصعوبات - اقتراح مقاربات ومناهج ديداكتيكية - بناء تصنيف ثلاثي الأبعاد في الأهداف اللسانية. الطبعة الثانية، الرباط، الهلال العربية للطباعة والنشر.
2. بيت كوردر. (أبريل 1990). ماذا تعني الأخطاء اللغوية للمتعلمين؟، ترجمة الشامي موسى، المجلة المغربية لتدريس اللغات، العدد 2، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط.
3. بن الفقيه، العربي. (أكتوبر 2001). "الدماغ والبحث عن آثار الذاكرة". مجلة علوم التربية، العدد 21، مطبعة النجاح الجديدة.
4. الجسماني، عبد العلي. (1994). علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية والتربوية. الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، الدار العربية للعلوم.
5. الدريج، محمد. (1992). نحو بيداغوجية جديدة للتعبير: مقتضيات دراسة النصوص. الدليل التربوي، تدريسية النصوص. إشراف محمد الدريج، تأليف جماعة من الأساتذة، الجزء الثاني، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.
6. كورباليس، مايكل. (2006). "في نشأة اللغة، من إشارة اليد إلى نطق الفم". ترجمة محمود ماجد عمر. عالم المعرفة، عدد 325، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شركة مطابع المجموعة الدولية.
7. محمد، أحمد السيد. (1998). اللسانيات وتعليم اللغة. كلية التربية، جامعة دمشق، سلسلة الدراسات والبحوث المعمقة. تونس، سوسة، دار المعارف للطباعة والنشر.
8. مطاوع، ابراهيم عصمت. (2002). التنمية البشرية بالتعليم والتعلم في الوطن العربي. الطبعة الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي.

9. نبيل، عبد الهادي. عمر، نصر الله. سمير، شقير. (2000). بطء التعلم وصعوباته. عمان، الاردن، دار وائل للنشر.
10. السيد، محمود أحمد. (1988). اللغة تدريساً... واكتساباً. الطبعة الأولى، الرياض، المملكة العربية السعودية، دار الفيصل الثقافية.
11. العزة، سعيد حسني. (2002). المدخل إلى التربية الخاصة للأطفال ذوي الحاجات الخاصة: المفهوم، التشخيص، أساليب التدريس. عمان، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، ودار الثقافة للنشر والتوزيع.
12. الشنطي، صالح محمد. (1996). المهارات اللغوية، مدخل إلى خصائص اللغة العربية وفنونها، الطبعة الرابعة، دار الأندلس للنشر والتوزيع.
13. الخولي، محمد علي. (د.ت). المهارات الدراسية. الرياض، المملكة العربية السعودية، مكتبة الخريجي.
14. BELLENGER, Lionel. (2001). L'excellence à l'oral: développer son charisme. Collection Formation permanente. E.S/T. éditeur.
15. Bourdin, Dominique. (2004). De l'oubli, Dynamique du fonctionnement psychique. ARMAND COLIN Editeur, Paris.
16. De Vecchi, Gérard. Carmona-Magnaldi, Nicole. (1996). Faire construire des savoirs. Hachette éducation.
17. Jacques Deschênes, André. (1990/1991). Les entretiens Nathan, La lecture : une activité stratégique. Québec, Canada.
18. -Lieury, Alain. (1997). Mémoire et réussite scolaire. 3^{ième} édition, Dunod, Paris.
19. Yves, Jean. More, Tadié. (1999). Le sens de la mémoire. Editions Gallimard.

الدور المتجدد للأب في الطفولة المبكرة من منظور علم النفس المعاصر وعلاقته بالصحة النفسية للطفل

د.بن عبد الله محمد/جامعة وهران 2

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الدور المتجدد للأب في الطفولة المبكرة وعلاقته بالصحة النفسية لدى الطفل من منظور علم النفس المعاصر.

هذا المنظور الجديد يريد أن يتجاوز الطرح القديم الذي ظل منشغلا بعلاقة الأم وطفلها بحجة أن الرضيع في هذه الفترة هو مجبول على التعلق بها وهو في حاجة ماسة أكثر إلى تفاعله معها وإلى عنايتها ليظفر بالتوازن العاطفي ويتجنب الحرمانات المخلة به. وهو في نفس الوقت يحصر دور الأب في دعم الأم ومساندتها والاعتناء بطفله من خلالها.

و في المقابل يحاول التنظير الجديد أن يعيد الاعتبار لدور الأب في هذه المرحلة ويهتم بحضوره المبكر وأهمية وظيفته الاجتماعية التي يؤديها إلى جانب الأم من أجل تلبية حاجيات الطفل بفضل جودة مشاركته الملائمة والفعالة. هذه المشاركة التي تسهم في تزويد الطفل بكثير من المهارات والقدرات الضرورية لبناء شخصيته ولتشكيلته النفسية العاطفية بأبعادها المختلفة الحسية والحركية والتعليمية والمعرفية التي تكسب الطفل كثيرا من الخصال وتصرفه عن كثير من الإخفاقات.

الكلمات المفتاحية: دور الأب، الطفولة المبكرة، الصحة النفسية.

مقدمة:

حينما نتصفح الأدبيات ذات الصلة بالعلوم الإنسانية وعلوم الطب وعلم النفس نكتشف بأن المعارف التي أنتجتها هذه العلوم حول مسألة الأب ظلت متصارعة لعقود وإلى يومنا هذا.

هذه الصراعات هي بالطبع مرتبطة بالنظرة الاجتماعية للدور الذي يري من الأب ممارسته بجانب الطفل وبخاصة في السنوات الأولى من حياته.

وإذا راجعنا تاريخ إنتاج هذه المعارف منذ أن بدأ الاهتمام يوجه بالدرجة الأولى إلى الطفل ككائن بشري في حاجة إلى رعاية نفسية وليس فقط ككائن ينظم حول "شفويته" (oralité) كما يقول (Gérard Neyrand, 2011)¹ تبين لنا بأن مسألة الأب ودوره ووظيفته ضمن نسق الأبوة تمت تناولها من خلال تنظيرين اثنين.

التنظير الأول الذي ركز كل اهتمامه على علاقة الأم بطفلها من أجل تحقيق التوازن العاطفي لدى الطفل وبخاصة خلال السنة الأولى وتفادي الاضطرابات التي يمكن أن تلحق به بسبب الحرمانات العاطفية لم ينشغل في هذه المرحلة بحرمان الأب ولا بحضوره المادي بجانب الطفل إلا كعنصر داعم لموقف الأم كما كان يرى جاك لاكان من خلال مناقشته عن مبدأ "الأم الوحيدة" (Jean Lecamus, 1995)².

هذا الإبعاد "المفيد" للأب في هذه المرحلة بالذات تبناه كثير من السيكلوجيين من أمثال (Spitz, 1945, 1958) و (Bowlby, 1951, 1969) بحجة أن الرضيع في هذه الفترة هو مجبول على التعلق بأمه وهو في حاجة ماسة أكثر إلى تفاعله معها وعنايتها لتفادي "الغرق السيكلوجي" (Le naufrage psychologique) المفضي إلى الاضطرابات (الاكتئاب الخوري، مرض المصححات (سبيتس) وقلق الانفصال (بولبي)).

هذا الإبعاد وهذا التهميش كما يفضل جيرار نايرند وصفه لم يمكنه من ممارسة وظيفته الأبوية الضرورية لتنمية الطفل والاستفادة من حضوره (R. G. Aubry, 1960, 1961) وظل دوره محصورا في ممارسة وظيفته كعنصر داعم وكممثل رمزي للنسق الاجتماعي ومساهمته في تكوين النسق الأسري من خلال وجوده الرمزي (جاك لاكان).

وظل هذا الإبعاد مستمرا إلى نهاية السبعينيات بدعم من النظرة المنددة بتعسف السلطة الأبوية التي أفضت إلى تراجع الصورة الأبوية وتقهر مكانته بسبب فقد سلطته والتحكم في الإنجاب (Michel Tort, 2005)³ وبسبب الاستراتيجيات الأمومية التي أدت إلى الاعتداءات على الآباء وأطفالهم (Clerget, 1992 ، Delaisi De Parseval, 1980 في ميشال طور).

وفي مقابل هذه النظرة الكلاسيكية عن دور الأب برزت قناعة أخرى تبناها كثير من الباحثين من أمثال (لوكامو 1994-1995، (Delaisi 1985 B. Cyrulnik, 1989 ، E. Sullerot, 1992 ، Bataille P. ، Hurstel, 1991).

¹ Neyrand Gérard (2011) , l'enfant , la mère et la question du père , PUF , Paris.

² Le Camus Jean (1995), Les interactions père-enfant en milieu aquatique, Revue internationale de pédiatrie; 255: 7-17

³ Tort Michel (2005) , Comment le « père » devient la cause des pathologies familiales , Actuel Marx , 1 , 37 , p. 89 - 125 .

هذه القناعة انصرفت إلى الانشغال بإعادة الاعتبار إلى وظيفة الأب والمطالبة بحضوره في وقت مبكر من أجل تقديم الرعاية الضرورية للطفل واستقباله ومواجهة "التدهور الاجتماعي لصورة الأب"، (جاك لاكان 1938) ومن أجل أن يسترجع الآباء مكانتهم و أن يتمكنوا من نسج رباط فعال للتعلق واكتساب الدور المريح والمهدئ لأن السياق الثقافي في نظرهم أصبح مزودا بالمعارف العلمية الجديدة عن الأب وعن عالم الرضيع (بوريس سيرونينيك 1989)¹ وليس فقط لأن الأب أصبح يمارس الدور المساند والحامي التي كانت تمارسه فيما مضى النساء القريبات (جون لوكاميو و أديل ايسبينوزا).

ويبدو أن هذا الالتزام المبكر للأب الذي يتسم بكثير من الرمزية في الدول الغربية على وجه الخصوص أصبح متبنيا بقوة من قبل الزوجين وبالتالي صار الأب يتسم بجودة التوافق الأبوي الذي يعادل التوافق الأمومي (Labrell, 1995). النظرة الأخيرة هذه المنبثقة عن التحولات في الأدوار الاجتماعية للآباء رغم اعترافها بالتوافق الأبوي تريد أن تمنح لكل طرف في الأسرة أسلوبا خاصا ومتميزا في التعاطي مع الطفل في هذه المرحلة المبكرة.

هذه التناولات المتنوعة هي التي نريد أن نستجلبها في هذه الورقة ونركز فيها بالدرجة الأولى على الدور المتجدد للأب وعلاقته بالصحة النفسية الإيجابية للطفل من منظور علم النفس المعاصر من خلال العناصر التالية:

1 . مدلول الأب .

2 . التنظير الكلاسيكي لدور الأب ووظيفته ضمن النسق الأسري.

3 . التنظير المتجدد للدور الأبوي من منظور علم النفس المعاصر وعلاقته بالصحة النفسية للطفل.

مدلول الأب :

مدلول الأب تم التطرق إليه من خلال عدة تناولات أدبية، نفسية، دينية، اجتماعية و ثقافية، إيديولوجية وحتى سياسية.

وقبل أن ننصرف إلى الاهتمام بدور الأب من منظور علم النفس الكلاسيكي و علم النفس المعاصر يجدر بنا أن نلتفت إلى مدلول هذا المفهوم من خلال الطروحات الأخرى التي حاولت أن تكشف عن أبعاد مختلفة متمثلة عند البعض في الجانب البيولوجي أحيانا وعند البعض الآخر في الجانب الاجتماعي والثقافي.

إن مدلول الأب بالنسبة لبعض الباحثين لا يمكن أن يتحدد من خلال النظرة البيولوجية النفسية الحتمية، بل هو مفهوم ثقافي بامتياز إذ أن وظيفة الأب نجدها تتغير بتغير الأزمنة و الأمكنة. وبالتالي فإن وجوده قد يبدو للبعض ضروريا و بالنسبة للآخرين نسبيا فحسب. وجوده ضروريا لأنه يمثل السلطة القانونية التي تتكفل بضبط النظام ضمن الأسرة و الحرص على سلامتها و استقرارها. و لكن هذه السلطة هي تتعرض اليوم في بعض المجتمعات إن لم يكن في أغلبها إلى نوع من التمهقر، و بات دور الأب كمثل اجتماعي يواجه كثيرا من الصعوبات و بخاصة فيما يتعلق بتدبير شؤون الأسرة وفق معتقداته الدينية أو الإيديولوجية أو السياسية. و قد يجد الأب نفسه حينئذ متذبذبا بين الامتثال للقانون و دعمه و القبول بالتخلي عن سلطته

¹ Cyrulnik Boris (1989) , sous le signe du lien , Hachette , Paris.

و بين الإصرار على إبراز رجولته و مازوشيته. و بالتالي قد يجنح إلى ممارسة إما دور المستبد أو دور المنسحب المجرد من مسؤوليته الذي لا يحظى بأي تقدير ولا أي احترام. و قد يتولد عن هذا التذبذب و هذا الاختلال في الأدوار اختلال في القيادة قد يؤدي إلى صراع بين النماذج التربوية يضر بالأطفال و بالتوافق الأسري في حد ذاته (Robert Neuburger, 2015).¹

مفهوم السلطة الأبوية بحكم التطورات التي حدثت في كثير من المجتمعات و بسبب "الثورة الأنتربولوجية" التي ترفض حصر التأثير على العلاقات الاجتماعية في العامل البيولوجي النفسي و بحكم النظرة المتجددة التي تسعى إلى تجاوز هذه الازدواجية و تحقيق المعادلة الرمزية بين الزوجين من أجل التصدي لمسببات الاختلالات الأسرية يكون قد تحول من سلطة ذكورية أبوية إلى سلطة ثنائية جنسية و زوجية منشغلة أكثر بالعلاقة مع الطفل و مصلحته و مستعدة لعدم الخلط بين الدور الاجتماعي و الوظيفة النفسية البيولوجية (Gerard Neyrand, 2014).² ولكن يبدو أن هذا المسعى الذي يريد إعادة توزيع الأدوار بين الأبوين و إنهاء التمايز ضمن النسق الأسري يصطدم ببعض الصعوبات في الواقع بسبب عدم القدرة على الامتثال للمعايير الجديدة المستحدثة أحيانا من قبل كلا الزوجين و بسبب استحالة القيام باستبدال المكانات المحددة لكل منهما. إن احترام المكانة الأبوية هي التي تجعل الطفل يذعن للسلطة الأبوية و يمثل لقانونه ما دامت هذه السلطة تظل شرعيتها و مصداقيتها مرتبطة بانتماء الطفل إلى السلالة الأمومية و الأبوية (Françoise Hurstel, 2001).³

و ضمن هذا السياق فإن (Colette Chiland, 2001)⁴ تصر على اعتبار الأب ذلك الرجل الذي يتكفل بنقل الاسم و الأملاك و يتمتع بالمسؤولية التربوية و يؤدي الواجبات تجاه الطفل و يستحق بدوره العناية خلال الشيخوخة. وهو الذي يجنح حاليا إلى نسج علاقات من الحنان مع أبناءه الصغار و الاهتمام برعايتهم دون أن ينتابه أي شعور بالنقص في رجولته. و هو الذي يقوم بدور أساسي في بناء نرجسية طفله السليمة لكي يتمتع بالسعادة. وهو يمثل العمود الفقري الذي يمكن من رفع رأس هذا الطفل.

و لكن مشاركة الأب في الاعتناء بطفله و رعايته تختلف هي الأخرى باختلاف الثقافات و الأجيال (Alain Bouregba, 2011).⁵ فالأب كما تذكرنا كولت شيلاند لا يمكن أن يعد رجلا في بعض الثقافات إلا إذا أظهر و أثبت بالفعل رجولته و أدى واجبه بإنجاب له لابن أو لعدة أبناء.

و هي الخاصية الأولى التي ينشدها هذا الأب في المجتمع المغربي كما يتضح من خلال الملمح الذي يحاول رسمه عبد الوهاب بوحدية وهو يتحدث عن "الآباء المغاربة في بحثهم عن الشرعية" وعن استراتيجيات التحالف في الأسرة (عبد الوهاب

¹ Neuburger Robert (2015), Qu'est - ce qu'un père ? , Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux , 1 , 54 , p. 73 - 80

² Neyrand Gérard et Zaouche - Gaudron Chantal (2014) , le livre blanc de la résidence alternée , enfance et parentalité , Eres , Toulouse

³ Hurstel Françoise (2001) , le père comme Alter , dans la problématique paternelle , Eres , Toulouse

⁴ Chiland Colette (2001) , a-t-on besoin du père ? , in Chantal Zaouche - Gaudron , la problématique paternelle , « Petite enfance et parentalité » , Eres , Toulouse , , p.105 - 114

⁵ Bouregba Alain (2011) , l'enfant et son parent . L'histoire d'une empreinte, Dunod , Paris

بوحديبة، 1995)¹. إنه الأب الذي تتجاوزه مسؤوليته للانشغال بذريته و نسله لأنه مغمور بالبحث المذهول عن البقاء والخلود. و لهذا فهو يجعل من المرأة الشريك الحتمي والضروري. إنه القائد الملهم الذي لا ينازع في تدبير شؤون الأسرة والتكفل بنسج الاستراتيجيات لإبرام الأحلاف و توزيع الأدوار. فالرجل قبل أن يكون أبا هو يتميز بمكانة و دور، لأنه مكلف بتأدية رسالة و مهمة و الطفل هو خليفته لأنه مكلف بوعد و ضمان المستقبل. و لكنه قد يظهر بمظاهر أخرى حينما لا يوفق في تحقيق هذه الأهداف و ييؤ بالفشل بسبب تعدد الأدوار و المكنانات بالرغم من توفر النموذج المثالي المستمد من المرجعية الدينية و الثقافية المتمثل في الأب بامتياز أو "الأب الجميل" كما يقول بوحديبة. ولأن الأدوار ضمن الأسرة المغربية طرأت عليها كثير من التحولات فيبدو أن صورة الأب انتقلت من مكانة "أفضلية" *précellence* الأب إلى "الشراكة المتساوية" للزوجين ، الأمر الذي أضحى يحملهما المسؤولية و الالتزامات المشتركة أمام أطفالهم لتنشئهم في كنف الحب و العطف. وبالتالي تكون هذه التحولات قد تمكنت من وضع نهاية لـ "إمبراطورية" الآباء و "مملكة الأمهات". و لم تعد صورة الأب في نظر بوحديبة تتمتع بتلك المركزية و لا بتلك المهابة التاريخية.

فقدان الأسرة المغربية لهذه القيم و تجريد الأب من دوره كمراقب وكمحاسب هو الذي أفضى إلى اختلال المعالم و ضياع الأبناء. و لتجاوز هذه الوضعية المؤلمة ينصح الباحث بترسيخ عملية الحوار و القبول بالإسهام في عملية بناء مشتركة تجند كل الشركاء الآباء و الأمهات.

هذه النظرة الاجتماعية الثقافية للوظيفة الأبوية يتبناها كذلك (دانيال كوم، 2004)² ويطالب بإعادة الاعتبار للأب غير "المعين *celui qui est*" الذي أرغم على الاستقالة ليتمكن من جديد من ممارسة مسؤوليته الضرورية ضمن وجود الطفل لإسعاد صوته و ليظفر بنوع من الاحترام من خلال إعادة النظر في العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة و الاعتراف بوظيفته من الناحية الاجتماعية و تحقيق تأهيله عن طريق تأكيد شرعيته. إن نفي الأب و تجريده من سلطته و مكانته و استبدالها بمصلحة الطفل قد جنت على الطفل أثارا سلبية يقول دانيال كوم لأنه حرم من ممارسة ما هو مطلوب منه. و المطلوب منه في تصوره هو قدرته على تقديم الخدمة ليس بالنظر إلى مهارته الأبوية و إنما من منظور المبدأ المنظم للمهنة. ويقصد بمبدأ المهنة ممارسة الوظيفة في إطار النسق الذي يسمح للأطراف المختلفة بتبادل الخدمات. إنه ليس ذلك الأب المقيد بأي تكليف أو أي دور أو أي مهنة محددة مسبقا. وبالتالي فهو يعترض على النظرة المعيارية لدور الأب التي تميز بين السلوك الأبوي و السلوك الأمومي و يعتبره تمايزا نسبيا في إشارة واضحة إلى مواقف جون لكامو و فناعاته السيكلوجية بحجة ما يصفه بنشئت الوظيفة الأبوية و تجمعها و توزيعها و تكيفها مع سيناريوهات الواقع المتعددة التي تمنح الطفل فرصة التعبير خارج العلاقة الزوجية المقدسة.

¹ Bouhdiba Abdelwahab (1995), les pères maghrébins en quête de légitimation, in Quêtes sociologiques, Eres, Tunis.

² Coum Daniel (2004), « le père est mort, vive le père » in Daniel Coum, qu'est-ce qu'un père, Eres, Toulouse, p. 7 - 32

2. التنظير الكلاسيكي لدور الأب ووظيفته ضمن النسق الأسري :

الاهتمام بالأم الوحيدة :

بعد العقدين الأولين من القرن العشرين بدأ الاهتمام موجهاً بالدرجة الأولى إلى الرضيع ككائن بشري في حاجة ماسة إلى إشباع "شفويته"، و لم ينصرف الباحثون الأوائل للانشغال بالظروف العلائقية لدى الأطفال الصغار و توازنهم العاطفي إلا بعدما اقتنعوا بأن حرمان الطفل من العناية الأمومية و الرباط العاطفي القوي قد يخل بصحته العقلية و بسواء الأسرة كخلية اجتماعية (Michel Tort, 2005). فالرضيع و الطفل خلال السنوات الأولى من حياتهم محتاجان بالأساس إلى مناخ دافئ و إلى جودة العناية للحصول على الرضا والسعادة و الارتياح النفسي (Bowlby John, 1951). في هذه المرحلة إذن بالنسبة لبولبي التفاعل بين الأم و طفلها هو الذي يجب أن يحظى بكل التقدير لأن غياب العناية أو عدم القدرة على الاعتناء بالطفل قد يؤدي إلى الحرمان العاطفي. والحرمان العاطفي قد يتولد عنه تداعيات تخل بصحته النفسية تتمثل فيما يعرف بـ "القلق الأولي" "l'angoisse primaire". هذا القلق الناجم عن الانفصال و عدم تلبية حاجة الطفل إلى التعلق يتبدى في علامات الاحتجاج و الأسى والانفصال (Marcelli Daniel, 2006, Ajuriaguerra J. De, 1980). و قد تتأخر عملية اكتساب اللغة حتى و إن تخلص من الحرمان بعد السنة الثانية. فإذا بدأ هذا الحرمان خلال السنة الأولى واستمر لثلاث سنوات فقد يؤثر على العمليات العقلية والشخصية بشكل نهائي (Ainsworth في مرسيلي دانيال).

و في نفس السياق يحاول بولبي إقناعنا بأن عدم الاهتمام بالأب في هذه المرحلة يعود إلى الأهمية الكبرى التي تميز علاقة الأم بطفلها خلال السنوات الأولى من حياته. بينما "الأب بالنسبة للطفل الصغير لا يمارس إلا دوراً ثانوياً وأهميته لا تزداد إلا حينما يصبح الطفل أقل إحساساً بالحرمان من الرعاية الأمومية" (مشال طور).

(Spitz, 1958) هو الآخر يرى بأن الطفل يجنح إلى التعلق بأمه قبل الشهر الثامن و يصبح حضور الأم بجانب طفلها ضرورياً بعد السنة الثانية عندما يتمكن الطفل من التعرف على أمه. فإذا عانى الطفل من حرمان جزئي فقد يتعرض إلى حالة الاكتئاب الخوري (dépression anaclitique) يتبدى في العلامات الأساسية الثلاثة المتمثلة في الأنين و في التذمر و فقد الوزن و توقف النمو و في الانعزال و رفض الاتصال (د. مرسيلي). وفي حالة معاناته من حرمان كلي فقد يصاب بمرض المصححات (hospitalisme) (جرار نيراند). هذا الاضطراب يسلم الطفل إلى وضعية جمود و إلى تفاقم فقد الوزن و إلى تأخر واضح في المجال الحركي بعد توقف البكاءات. وإذا استمر الحرمان لخمسة أشهر تحول التأخر النفسي الحركي و التدهور العقلي إلى اضطرابات مزمنة.

(جيني أبري 1961) في فرنسا من خلال اهتمامها بالآثار السلبية الناجمة عن الحرمان العاطفي بسبب غياب رعاية الأم بادرت هي الأخرى إلى دعم إشكالية الحرمان الأمومي و التحذير من الاضطرابات الخطيرة (تشوه كامل للشخصية، معاناة) التي يمكن أن تلحق بالطفل من جراء هذه الممارسة وإن كانت تعتبر بأن هذه الاضطرابات يمكن أن تكون قابلة للتحسن بفضل العلاج النفسي.

و قد تكون الأم حاضرة و الطفل بجانبها ولكن بسبب نقص الرعاية الأمومية التي تسميه (Odile Bourguignon, 1984)¹ بالعوز الأمومي (privation maternelle) فإن الطفل قد يتعرض إلى نفس الزملة المميزة بنفس الخصائص الإكلينيكية.

دور الأب المساند والداعم للأم:

بالنسبة لفنيكوت المحلل النفسي الإنجليزي فإن الأب في هذه المرحلة الطفولية المبكرة "يلمع بغيابه" (François, J. Pontalis, 2003)² لأنه لا وجود للأب إلا في الضاحية، ضاحية الخلية والنواة الأساسية المكونة من الرضيع و أمه (فنيكوت، 1956، 1978 في Igor Tchernicheff, 2005)³. بل إن الأب عنده هو ممزوج بالأم و متماهي معها و لم يعبأ بوجوده إلا في وقت متأخر حينما يتمكن من خلافة الأم. و ظل انشغاله هو الآخر موجه للأم الطيبة و المقبولة و العادية و السيئة. و يكون الأب المفضل و الطيب عنده هو من يمارس عدة وظائف مع طفله مباشرة أو غير مباشرة من خلال الأم و بيتها. يمارس وظيفة الدعم والعطف و الحماية بفضل مهاراته و قدراته الأمومية. إنه الأب المكمل للأم أو البديل الأمومي الممهّد والرأي للثلاثية الأوديبية. الأب المجسد للقانون والمعلم لمدلول وقول كلمة "لا" و معنى الممنوع الذي يمكن الطفل من التعبير وكضم الكراهية تجاه الأم. الأب المبدع المعين على التقمص و مصدر للغواية و الجذب بالنسبة للطفل (فرانسوا دوبارك). و لكن رغم هذه المهارات التي يمتلكها فإنه يخفق في التكيف مع الطفل بسبب غيابه المحتوم و حضوره النادر إذ لا وجود له إلا في الكواليس و في مخيلة الأم (فنيكوت، 1975 في تشرنيشاف).

إبعاد الأب الذي لم يقو على ممارسة واجبه الأنتربولوجي (الأب المنجب و الشرعي و المربي في إطار الزواج في نظر هيرستل فراسواز، 2001) والمتمثل في نظر (Irène Théry) في (مشال طور) في مأسسة البنية الرامية إلى مأسسة الحدود باتجاه كل طفل ضمن النسق الأسري سببه يعود إلى عدم الحصول على الدعم من قبل التركيبات الاجتماعية، و إلى عملية الخلط بين المكانة الاجتماعية و الوظيفة الأوديبية و تسوية مفهوم الأبوة بنمط الأمومة و إلغاء الأب كطرف ثالث بالنسبة لهيرستل وإلى قصر الأبوة على الجانب البيولوجي وتفشي ظاهرة العزوبة (إيران تيري في مشال طور).

(كرستيان أليفي، 1994) تعتقد من ناحيتها بأن الآباء منعوا من ممارسة أبوتهم من قبل النساء لثلاثة أسباب:

النساء يعتبرن أنفسهن في أغلب الأوقات بأنهن يمثلن الوالد الضروري الوحيد لأنهن في حاجة إلى الشعور بأنهن ضروريات للطفل من أجل تعزيز هويتهم الخاصة و من أجل الإثبات للجميع بأنهن هن الأمهات.

الرجال لا يجرأون أخذ المكان الذي كانت تشغله من قبل أمهاتهم و ليس آباءهم.

المؤسسة تهتم أكثر بتوازنها المالي و سيرها الجيد أكثر مما تهتم بتوازن و سير الأسر التي تستخدم أحد أعضائها.

¹ Bourguignon Odile (1984) , mort des enfants et structures familiales , PUF , Paris.

² Duparc François (2003) , le père chez Winnicott (est- il suffisamment bon) ? in Jean Guillaume et al , le père , l'esprit du temps , « Perspectives psychanalytiques » , , p. 205 - 231.

³ Tchernicheff Igor (2005) , la question du père chez Winnicott et chez quelques autres, Empan,57,p. 142-152.

و أما فرانسواز هرستل فترى بأن إشكالية الحرمان العاطفي هي التي تسببت في إقبار إشكالية الحرمان الأبوي، بينما يرى آخرون بأن الآباء المحرمون (carents) قد تم إبعادهم خلال القرن العشرين من قبل منظري التربية و معدي الصياغات و التشريعات القانونية (جرار نيراند).

وقد تولد عن هذا التهميش أبناء غير منتسبين (désaffiliés) و مشتتين (hamelétisés) و مغيبين (manqués) (مشال طور و Corneau Guy, 1989)¹.

و إذا كان مشال طور يعتقد بأن تناول هذه المسألة بهذا الشكل يهدف بالدرجة الأولى إلى "تمريض" الجديد و تزكية القديم فإن هرستل تراها وعكة أبوية يمكن تجاوزها من خلال ثلاثة حلول: حل نظري متمثل في الأوديب اللكاني (اسم- الأب) و حل انتربولوجي و قانوني و حل نفسي تحليلي.

حل لكاني يجعل من الأب أبا رمزيا صاحب السلطة الطبيعية التي تسمح بتحقيق التمايز الجنسي و الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة. و حل انتربولوجي قانوني لأنه يتمتع بمبدأ العقل و المبدأ العالمي الذي يمكن من مواصلة عملية التناسل و مواجهة "طابو زنا المحارم" (Legendre في مشال طور). و حل نفسي تحليلي لأنه بفضل "الكلمة" يساعد على تفادي "التأنيث" (le féminisme) من منظور (Françoise Dolto).

الدور الرمزي للأب :

كما كان يعتقد جاك لكان فإن وظيفة الأب تظل رمزية و معبرة عن التمثل البنيوي للنظام العلائقي الأسري الذي يمنح لكل عضو مكانته و دوره الخاص . فمن خلال اللغة يتمكن الأب من الظفر بمكانة مرموقة و تحقيق أبوته (le parlêtre). بمعنى آخر فإن الكلام عوض الاتصال البدني هو الذي يسهم في الحصول على الحب العاطفي و الاحترام من قبل الأطفال (فرانسواز دلطو، 1990). إن وظيفة الأب وفق (Bernard This, 1980) ، في جرار نيراند) المناصر لنظرة جاك لكان تسمح بالتفريق بين الطفل و أمه لأن الأب يحقق عملية التثليث (trinifie) و يمنع من الخلط و الدمج الأصلي و المتخيل. فالطفل من هذا المنظور لا يعد صناعة أمومية صرفة وإنما كممثل برمزي هو نتاج زوج منجب و طفل رجل و امرأة. إن وظيفة المدلول الممثلة في "اسم- الأب" (le Nom-du-père) وفق عبارة جاك لكان (1957) وليس الأب الحقيقي أب الديانات و الثقافات هي التي تشرط الأبوة و تثبت إلحاق الإنجاب بالأب و الاعتراف به.

وهو الموقف الذي يدعمه (Aldo Naouri في جرار نيراند) بتأكيدده على ضرورة تقوية الرباط الأبوي و حضوره المبكر إلى جانب الأم كطرف محاور و مشارك لتحقيق الأبوة و تمايز الأدوار بين الزوجين، دور الأم المرتبط بالرغبة و دور الأب ذات الصلة بالقانون و الممارس لوظيفة الكلام. "الأبوة يقول برنار تيس هي الأساس مرتبطة بفعل الكلام. إن الكلمة هي التي تشكلنا و تجعل منا "أبا" أو "ابنا" أو "بناتا". إننا نعتقد أحيانا عن سذاجة بأننا نحن الذين ننتج و نتحكم في الكلام، و لكن في الواقع الكلام هو

¹ Corneau Guy (1989) , père manquant , fils manqué , Editions de l'homme , Québec.

الذي يجعل منا كائنات متكلمة (parlêtre)، مدعنة لقوانينها" (برنار تيس، 1980)¹ وهو بهذا المسعى يخلص في النهاية إلى الاعتقاد بأن الأمومة مطلب و مكسب حقيقي وأن الأبوة دين (une dette) و حضور رمزي .

3. التنظير المتجدد للدور الأبوي من منظور علم النفس المعاصر

وعلاقته بالصحة النفسية للطفل :

الأب الحاضر والمفيد :

انتقاد نظرية التعلق من قبل (Wallon, 1954) و أتباعه من أمثال (Irene Lezine) و (Stambak) هو الذي يكون قد مهد لتوجيه الاهتمام في بداية الأمر إلى حرمان الأب الذي اعتبر عاملا مضرا بنمو الطفل ضمن النسق الأسري حيث يقوم كل عضو من أعضائه بدوره الخاص إلى جانب دور المحيط.

لكن مسألة الأب أصبحت في الواقع تحظى بكثير من الاهتمام منذ بداية السبعينيات لاقتناع كثير من السيكولوجيين والباحثين بأهمية دوره الاجتماعي و وجوده بقرب الطفل إلى جانب الأم في وقت مبكر من أجل تلبية حاجياته و التكفل بحقوقه المعترف بها و من أجل توفير الرعاية المطلوبة لتقوية الرباط الأبوي و تزويده بالحنان و الظفر بالاعتراف و التقدير و المساهمة في نفس الوقت في تحقيق التوازن بين الأبوين في مجال التأثير على الطفل (Catherine Valabregue, 1968)².

فهذا روني زازو (René Zazzo, 1975) السيكولوجي الذي ارتبط اسمه بتعديل مقياس الذكاء لبينييه وسيمون نجده هو الآخر في مطلع السبعينيات بالرغم من اعترافه بالدور الأساسي للأم في الأشهر الأولى المشروط و الضروري لتحقيق توازن شخصية الطفل يرفض أن يجعل من العلاقة الثنائية بين الأم و طفلها علاقة مطلقة و يدعو إلى تجاوزها بحجة أن جودة هذه العلاقة إنما تعود في نظره إلى جودة الرباط الزوجي. وهو يستعين في تبنيه لهذا الموقف بالأعمال العلمية التي تثبت بأن التربية الفعالة تظل مرتبطة بجودة العناية التي يمارسها كل شخص. و من ثم يصبح حضور الأب إلى جانب الأم في هذه المرحلة المبكرة أمرا مهما ملحا من أجل تقديم الرعاية المطلوبة لاستفادة الطفل بمزاياه النفسية.

و رغم اعتراف البعض بصعوبة التسوية بين دوري الأبوين خلال هذه السنوات المهمة لمستقبل الطفل فإنه يوجد من يصير على المطالبة بممارسة هذا الدور إلى جانب الأم من أمثال (برنار تيس، 1980) عبر كتابه "الأب: شهادة ميلاد، le père: acte de naissance" الذي يدعو من خلاله إلى ضرورة ملازمة الأم أثناء الحمل لاشتراكه في عملية الاحتضان (la couvade) ومقاسمته آلام الأم و أحاسيسها. ثم يأتي من يهتم كذلك بالاتصال البدني و يعده وسيلة مفضلة لحصول الأب على مودة الطفل دون أن تؤثر هذه الوسيلة بأي شكل من الأشكال في رجولته (Olivier Christiane, 1994)، في جرار نيراند، جون لكامو، 2001)³.

¹ This Bernard (1980) , le père : acte de naissance , Seuil , Paris.

² Valabregue Catherine (1968) , la condition masculine , Payot , Paris.

³ Le camus Jean , la fonction du père dans les premières années de la vie de l'enfant . Perspectives ouvertes par la psychologie du développement , in Chantal Zaouche - Gaudron (2001) , la problématique paternelle , Eres , Toulouse , , p. 75-93.

(Geneviève Delaisi De Parseval, 1981)¹ هي الأخرى تعد من المناصرين لإعادة الاعتبار للدور المتجدد للأب من خلال إصدارها "حيز الأب" (la part du père). ما يميزها هو حرصها الشديد على التأكيد بتحويل مبدأ الأب إلى "كمية تافهة" بسبب التغطية الإيديولوجية والواقع الفسيولوجي. و تستعين في موقفها هذا بحجة التشابه الموجود بين الأب و الأم في مجال السير النفسي و الطابع الإنساني (دولايسي، 1981). وهي تجنح في نفس الوقت إلى البراءة من العناصر الأوديوية الكلاسيكية و من نظريات الحرمان الأمومي التي تراها قد أسهمت في ترسيخها للثقافة السائدة في المجتمع الغربي و تأييدها لهذه الاعتقادات التي جردت الأب من أبوته و حرمنه من فرصة تحقيق رغباته المتخيلة عن مستقبل الطفل. وتقتح دولايسي من أجل إعادة الاستثمار في الأب ضمن النسق الأسري الاهتمام بأخذ القرارات بالتراضي مع الزوجة قبل الإنجاب و الامتثال إلى أسلوب التحوار والتواصل بين الزوجين الذين يقرران معا مجيء الطفل و يحققان معنى الأبوة قبل الشروع في تربية الطفل. ولأن نمو الطفل يظل خاضعا لتأثيرات المحيط خلال السنتين الأوليين كما ترى (Hélène Stork, 1995) في (جرار نيراد، 2011)² فإن هذه التأثيرات لكي تكون مؤائمة و مفيدة، يجب أن تحدث في وسط من العلاقات الودية و المنسجمة التي تغذي عاطفية الطفل. ولهذا تنصرف دولايسي إلى التأكيد على رفض التسوية بين الوظيفة الاجتماعية للأب المتمثلة في السلطة والقانون والوظيفة النفسية بالرغم من الهيمنة العاطفية والتربوية التي تتمتع بها الأم بدعم من المشرع وبخاصة بعد الطلاق و بالرغم من التأثير الأكثر تسكيننا لجسم النساء.

ومع ذلك و بفضل المعارف العلمية التي أحدثت تحولات هامة في الأدوار الاجتماعية ضمن السياق الثقافي والأسري الجديد و غيرت دارات التعلق فإن "الرجال الأموميين" (maternels) كما يصفهم (Cyrulnik, 1989 Boris) أصبح بإمكانهم الحضور إلى جانب الأم خلال الأيام الأولى من الحياة (Jean Le camus, 1991) من أجل تعزيز عملية التعلق و ممارسة دور المهدي الكبير وذلك منذ المرحلة الحساسة للحمل و في اللحظات الأولى التي تتبع فعل الولادة لأن المولود الجديد في حاجة ماسة إلى الالتزام المبكر للأب واحتضانه ورعايته من قبل الزوجين و ليس من قبل الأم فقط (لوكامو ، اسبنوزا، Spinoza Odile ، Jean le Camus 1991)³. الالتزام المبكر للأب يبرره هذان الباحثان بإمكانية انغماس الرضيع ضمن شبكة من الروابط العائلية بفضل تعدد اللقاءات المبكرة والدائمة التي تعرض على الرضيع الغربي - و لاسيما الرضيع الفرنسي - في الوقت الراهن. و بالتالي فإن التعلق الوحيد (monopotropie) لم يعد مقبولا في نظرهما رغم ميل الطفل بالفعل إلى تعلقه بالصورة الأمومية أو بشخص أو عدة أشخاص مألوفين (أنسورث، 1985) في (جرار نيراند).

ونفس الطرح يتبناه (Joël Clerget, 2008)⁴ حينما يطالب بحضور الأب ومشاركته الفعالة إلى جانب الأم خلال مرحلة الانشغال الأمومي الأولى لكي تصبح هذه الأم طيبة بالفعل في نظره. إن الآباء يقول كلرجي يشاركون في حياة الرضع بعنايتهم ومنحهم الرعاية

¹ Delaisi De Parseval Geneviève (1981) , la part du père , Seuil , Paris.

² Neyrand Gérard (2011) , l'enfant , la mère et la question du père , PUF , Paris.

³ Spinoza Odile , Jean le Camus (1991) , les relations interpersonnelles précoces , in la socialisation de l'enfance à l'adolescence , PUF , Paris.

⁴ Clerget Joël (2008) , « Père naissant » , Comment un garçon devient-il papa ? , « Enfance et parentalité » , Eres , Toulouse , , p. 27 - 49.

والاهتمام وحضورهم الفعلي. إن الرضيع بهذه الطريقة يتموضع و ينخرط بين أبيه و أمه التي ليست بالكلية له و ليست كلها له، إنه يكتشفهما معا، إنه يحيى بهما، إنه يلتقي و يجد أباه في أمه في علاقة ثلاثية ضمن الفضاء المشكل بالأب و الأم. فلا توجد أم إلا من خلال ارتباطها بشخص الأب، و ليس كطرف ثالث بينهما أو مفروق كما تريده العقيدة التحليلية النفسية.

إعادة الاعتبار للأباء نجدها كذلك تحققت بفضل "الممارسات الوالدية للرعاية الأبوية للطفل و بفضل الإرادة التقليدية لمقاومة التدهور الاجتماعي لصورة الأب التي خاضها في وقت مبكر جاك كان" و بدعم من المهنيين الذين بادروا إلى دعوة الآباء حضور أماكن استقبال الأطفال المنشأة (من روضات و مدارس تحضيرية و دور خضراء و دور لعب) لاقتناع البعض (, Singly, 1998) بضرورة تحقيق المساواة بين الرجال و النساء في مثل هذه الأماكن طالما أن هناك نظريات قديمة (فرويد، كان) ترى بأن تشكيل الذات و حصوله على الاستقلالية يتطلب و جود عائلة بأب و أم من جنسين مختلفين (جرار نيراند).

وإذا كان فينيكوت و من حدا حدوه يرى بأن "الأب غير قادر على الانتفاع بمتعة الدور الذي يجب أن يمارسه و غير قادر على مشاركة الأم المسؤولية الكبرى ذات الصلة بتعلق الرضيع بأحد الأشخاص" (جرار نيراند، 2002)¹ بسبب انشغاله بمحيط الأم و تهيئة طفله للانفتاح على الحياة الاجتماعية و انصرافه إلى القيام بدوره المتمثل في فصم الرابطة الأولية بين الأم و الطفل فإن أصواتا عديدة في صفوف الإكلينيكين ظلت تتعالى خلال العقود الأخيرة لتعلن بأن الوظيفة الوالدية إنما تكمن فيما "يقدمه الوالد للطفل من أجل مسانده و مساعدته على تشكله" (شانطال زاوش - جودرون). و من خلال رفضها للمحتويات النظرية المحددة للأدوار الوالدية القديمة تريد هذه الأصوات أن تستبدلها بالنظرة الوالدية الثلاثية (أم - أب - طفل) لأن النظرة الثنائية (أم - طفل) في نظرهم ليست طبيعية و إنما هي ثقافية (جرار نيراند). و من ثم فإن دور الأب لا يمكن أن يكون ثانويا و إنما هو ضروري منذ مجيء الطفل إلى الوجود للظفر بمودته و تلبية حاجياته و الاستفادة من الاتصال البدني بقربه. و لما كانت الأبوة مثل الأمومة في نظر هذا التوجه الأخير عملية نفسية ديناميكية و ليست غريزية فإن حرمان الأب من ممارسة هذا الدور و إخصائه من أبوته "كما تقول دولابسي قد يسبب له إعاقة كبرى يترتب عنها تداعيات خطيرة. و بالتالي فإن إلحاق الطفل بأبيه و إبعاده عن أمه في بعض الحالات و اعتباره عملا مضرا يبدو في نظر (جرار نيراند، 2002) غير صحيح بل مؤذيا للطفل لأن الدور الإيجابي يتمثل في قدرة الراعي و المربي على الإصغاء لحاجيات الطفل و تلبيةها.

التعلق المزدوج :

(Elisabeth Badinter, 1992)² غير المحسوبة على التيار التقليدي و المعروفة بقناعاتها النسوية تجنح هي الأخرى إلى جانب نظيرتها إفلين سولرو (Evelyne Sullerot 1992)³ و في وقت متزامن إلى المطالبة بإيجاد حيز مناسب للأب للتكفل بالرضيع و تنافح عن تبني نظرية التعلق المزدوج بحجة أن "العلاقة الجديدة بين الأم / الأب تقدم نقضا صارخا لنظرية تعلق الرضيع الحصري بالأم (جون بولبي) و لتنتجتها: الرضيع لا يمكن أن يتعلق إلا بشخص واحد ... و تستند في ذلك على أعمال (M. Lamb)

¹ Neyrand Gérard (2002) , de l'incapacité présumée du père à s'occuper du bébé . La question de la résidence alternée du jeune enfant , Dialogue , 2, 156 , p. 111 - 117.

² Badinter Elisabeth (1992) , XY , de l'identité masculine , Odile Jacob , Paris.

³ Sullerot Eveline (1992) , quels pères ? , quels fils ? , Fayard , Paris.

و (M. Yogman) المنجزة في مجال علم النفس التجريبي الأمريكي التي تثبت عكس هذا الرأي الأخير وتؤكد على أن الرضيع يتعلق بالوالد الذي يستثمر أكثر في مولوده دون أي فرق بين الجنسين. "إن قدرة الآباء على إقامة علاقة ثرية مع أطفالهم في سن مبكرة جدا تعتبر حقيقة ويمكن إثباتها بشكل كامل يقول (ميكائيل يوجمان، 1987) في (جرار نيراند). خلافا للنظريات القديمة التي كانت تعتبر العلاقة مع الطفل مسألة غريزية و محددة بيولوجيا وأمومية بشكل حصري، فإن الفحص الدقيق للمعطيات الحيوانية والأنثروبولوجية والاجتماعية في الغرب يناقض في الوقت الراهن طرح عدم الكفاية الأبوية بالنسبة للأطفال الصغار". (Michèle Ferrand, 2004) هي الأخرى تصطف ضمن من يصر على إلحاق تربية الأطفال والتكفل العاطفي بهم بالمسألة الجنسية وتعتبر أنها مسألة إنسانية قبل كل شيء، لا علاقة لها بالغريزة الأمومية. وهي بالتالي ترى بأن الرجال يتمتعون بنفس المهارات حينما يقررون التكفل برعاية رضيعهم. فبعض الأدوار الزوجية (مثل السلطة الأبوية) في نظرها قد لا تتمحض بالضرورة إلى عامل الجنس. ومن هنا فإن الطفل بإمكانه أن يستفيد من تربية أمه كما يستفيد من تربية أبيه أو أي شخص آخر يقوم بدور المربي مهما كان جنسه.

(R. G. Andry, 1961) كان من السابقين هو الآخر في الستينيات إلى المطالبة بعدالة أبوية لتربية الأطفال والتنديد بهيمنة الأم في علاقتها مع الطفل وتمهيش الأب من خلال منحه العناية المطلوبة لممارسة دوره الأبوي الضروري لتنمية الطفل ووقايته من الانحرافات (جنوح الأطفال) التي يمكن أن تلحق به بسبب هذا التمايز.

وبالتالي فإننا نجد كثيرا من الباحثين في الغرب (Le Camus و Labrell و Zaouche-Gaudron و Guy Corneau إلخ...) قد انحازوا إلى هذا الرأي ويرفضون أن يظل الأب ينظر إليه كـ"زائدة" (appendice) للأم، لأن الرضيع في نظرهم هو قادر على إقامة عدة علاقات ثرية في نفس الوقت. و إن تميزت مساهمة الأب عن دور الأم بسبب خصوصية مكانته فإنها تبقى ضرورية في تصورهم لأنها تحدث انعكاسات إيجابية على نماء الطفل. ومن ثم فإن وظيفة الأب تستدعي أن تمارس بشكل مباشر دون أي وساطة عبر كلمة الأم وتمثلاتها خلال التفاعلات الحقيقية والهوامية للحياة اليومية لأن الآباء مثل الأمهات لا تنقصهم المهارات المطلوبة لرعاية أطفالهم وإن كانوا أقل كفاية منهن. لكن دورهم الأساسي يكمن في جودة حضورهم (لوكامو، زاووش كدرون، 1998)¹.

هذا النموذج الأبوي الجديد كما نلاحظ يريد أن يجعل من الأب أبا طيبا و هادئا و مريحا و حاضرا و مفيدا . دوره الاجتماعي الأسري و المشكل للهوية الجنسية يظل متميزا عن الوضعية النفسية للمرأة و عن مكانة الأم لأنه غير قابل للاستبدال مع دور الأم (Françoise Hurstel, 1997)².

¹ Le camus Jean , Chantal Zaouche -Gaudron (1998) , la présence du père auprès du jeune enfant : de l'implication accrue à l'implication congrue . Psychiatrie de l'enfant , XLI , (1) , 297 -319.

² Hurstel Françoise (1997) , identité masculine , inversion des rôles parentaux , fonction paternelle , Enfance , vol 50 , 3 , p. 411-42.

الاهتمام بجودة العلاقة لحسم الصراع :

ينصرف بعض الباحثين (Chivot, 1981) في (جرار نيراند) لحسم الصراع بين دور الأب و دور الأم في المرحلة الطفولية المبكرة إلى التركيز على جودة العلاقة مع الرضيع أكثر من التركيز على مكانة الشخص أو الأشخاص الذين ينشغلون برعايته. فالأم كالأب أو أي شخص آخر يمكن أن يصبح شريكا أساسيا للطفل الصغير بشرط أن يحتفظ كل من الأبوين بأدوارهما الخاصة. وبالتالي قد يكلف الأب إلى جانب الأم بأنشطة الكلام واللعب والتنشئة الاجتماعية. كما يمكن أن يوجه اهتمامه إلى مراقبة سلوك الطفل والمشاركة في تنظيم قواعد الحياة الأسرية وفي استثارة لغة الطفل من خلال محتوى الحوار و شكله. و بإمكانه كذلك أن يسهم في تهيئة الطفل لإقامة جسر مع العالم الخارجي من خلال تشجيعه على حل مشاكله بنفسه عوض تقديم المساعدة له كما تفعل الأمهات في نظر (Labrell, 1995) في (جرار نيراند، 2011).

هذا الدور المتميز للأب و المتكامل مع دور الأم ينافح عنه بقوة الباحث و الأستاذ الجامعي جون لوكامو في عدة إصدارات منذ التسعينيات حيث نجده يبرز هذا الدور الأساسي من خلال إحدى العناوين "الأب المربي للطفل الصغير" (Le père éducateur) (Jean le Camus, du jeune enfant, 1999)¹ الذي يكشف من خلاله عن وظيفته الخاصة التي يمارسها منذ ولادة الطفل بالتوازي مع الأم و ليس من خلال خطابها. فهو الأب الممثل لما يسميه "نموذج الوظائف الوالدية المتزامنة". الأب الموصوف بالأب المجسد، العي، الحاضر والملتزم الذي يتحرك ضمن واقع تفاعلات الحياة اليومية قبل ممارسته لوظيفته الرمزية. الأب الأليف، المهتم والحنون، الأب "الشمس" إلى جانب الأم "القمر" الذي يترتب عن حضوره المبكر تداعيات إيجابية على البناء النفسي للطفل الصغير (جون لوكامو، 1999).

وظيفة هذا الأب يعتبرها (جون لوكامو) متعددة الأبعاد. فهي ليست مقصورة على الجانب الاجتماعي وإنما تعنى كذلك بالأبعاد الأخرى الحسية و الحركية و التعليمية و العاطفية. فهو يساعد على تحقيق استباقية النمو والتحرير على الكفاية و مواجهة التحدي. و دوره مهم في بناء و اكتساب المعارف خلال الطفولة الأولى. وهو يؤدي دور الممارس لعملية التواصل غير اللغوي و التبادلات الترفيهية والتشجيعات ويزوده بمدلول الممنوعات. وهو بهذا الأسلوب يسهم في بناء شخصية الطفل و تشكيلته النفسية العاطفية (جون لوكامو). بل إن الحضور المبكر للأب بجانبه قد يعود عليه هو ذاته بالنفع، فقد يظفر حينها بكثير من الرضا بسبب ممارسته لوظيفته الأبوية والحصول على الاعتراف بهويته الذكورية. "إن الآباء يقول (Pruett, 1993) نقلا عن (جون لوكامو) أستاذ الطب النفسي في جامعة يال Yale بالولايات المتحدة بفضل مشاركتهم يشعرون بتقدير أحسن لذواتهم وهم أقل عرضة للمرض العضوي و يتمتعون بعلاقات تكون زوجاتهم خلالها أكثر رضا و لديهم أطفال أقدر على التكيف مع ضغوط الحياة".

وعوض التركيز على وظيفة الفصل و التجنس (sexuation) والتسمية (nomination) أو على دور الأب الذي يتكفل بنقل "قانون الفرق بين الأجيال" فإن (جون لوكامو) باستناده إلى دراسات علم النفس المعاصرة والبحوث التي أجراها مع فريقه بجامعة تولوز (Toulouse) يعتقد بأنه لا مجال للتسوية بين وظيفة الأم ووظيفة الأب المتمثلة في بناء شخصية الطفل كما

¹ Le Camus Jean (1999) , le père éducateur du jeune enfant , Puf , Paris.

يتضح ذلك من خلال مواقف كثير من الباحثين منذ الثمانينيات. إن الأب من منظور (Postic, 1993) مثلاً يمثل "القانون و يحدد ما هو مسموح أو ممنوع ويراقب الرغبات" و "هو يجسد بصورة حياة ممنوع زنا المحارم" في حين أن الأم "تجسد العالم المحمي للأسرة". وبالتالي عوض الفدح في هذه النظرة الجديدة لوظيفة الأب من قبل "حراس القصر" كما يقول جون لوكامو فإنه يدعو إلى القبول بإيجاد "مكان للأب في الحياة اليومية" كما فعل و اقتنع بذلك كثير من المحللين النفسيين المعاصرين الفرويديين من أمثال (De Parseval, 1980) و (Chiland, 1983, 1990) و (Lebovici, 1983, 1990, 1997) واللكانيين من أمثال (This, 1980) و (Clerget, 1990) ومن البديهي و الطبيعي في نظره أن يتخلى علماء النفس في الوقت الراهن عن هذه النظرة المجازية الصرفة للأب المنحازة لتقديس الأب "كاسم" و يقتنعوا بدور الأب المجسد و الحاضر و الفاعل في الحياة اليومية (جون لكامو، 2001)¹. وهو بهذا الطرح يتبنى مفهوم "المشاركة المتباينة" (l'implication différenciée) وهو يقصد بها ما قد يقدمه كل واحد من الأبوين من دعم تربوي للطفل و ما يسمح به حضور كل واحد منهما من تلبية لحاجياته. وبهذا الأسلوب يمكن أن نبقى على نوع من الاختلاف في مجال التحرك بين الأبوين و التكامل بين الأدوار. و نبقى كذلك الباب مفتوحاً أمام تعدد نماذج التنشئة الاجتماعية لتمكين الأنساق الأسرية من اختيار الأسلوب المفضل لتربية أطفالهم.

دور الأب، من المشاركة المتزايدة إلى المشاركة الملائمة (De l'implication accrue à l'implication congrue):

المشاركة المتزايدة تعني المشاركة في الأفعال الوالدية المطلوبة لرعاية الطفل من قبل الأب الجديد الحاضن (nourricier). هذه المشاركة يراها (جون لكامو) مفيدة حينما تتوجه لعناية الطفل والتربية الأولية و اللعب و تتميز بعلاقة جيدة بين آباء حنونين وأطفالهم. آباء يشاركون أمهاتهم باستمرار من خلال اهتمامهم وتحفيز أبناءهم على الرياضة ومراقبة عملهم الدراسي والتواصل مع أساتذتهم و التكفل بهم مادياً.

وتتبدى هذه المشاركة المتزايدة في نظر الباحث الأمريكي (Lamb) وزملائه في التفاعل والاستعداد والمسؤولية. و قد نجدها متباينة بينهم بسبب عوامل التحفيز والمهارات والدعم الاجتماعي الممنوح والممارسات المؤسسية. وتكون في الغالب مصحوبة بتداعيات وأثار إيجابية على الطفل في مجال الهوية الجنسية والنجاح الدراسي والتكيف الاجتماعي حينما تكون العلاقة تتميز بجودة عالية وحرارة وثيقة. وتتجلى أكثر على مستوى شخصية الطفل من خلال مهاراته المعرفية و التعاطف والمرونة في اتجاهاته نحو أدوار الجنس والخصائص الإيجابية (l'internalité) والنفسية الداخلية.

هذه المعارف التي أسهم (Lebovici, 1983) في ترويجها ضمن الفضاء الفرنسي و تبناها جون لكامو وكثير من الباحثين المشار إليهم سلفاً تؤكد و تعزز أهمية التدخل و مشاركة الأب للأب في وقت مبكر.

و لكن الباحثين و السيكولوجيين المنشغلين بهذا التدخل المبكر للأب في العقود المتأخرة لم يعد اهتمامهم موجهاً إلى المشاركة المتزايدة أي إلى ضرورة المشاركة ومدة الحضور وفوائدها وإنما انصرف انشغالهم إلى ما يصفونه بالمشاركة "الإيجابية" (Pleck,

¹ Le camus Jean , la fonction du père dans les premières années de la vie de l'enfant . Perspectives ouvertes par la psychologie du développement , in Chantal Zaouche - Gaudron (2001) , la problématique paternelle , Eres , Toulouse , , p. 75-93.

(1997) أو المشاركة "الملائمة" (جون لكامو، 1999) أي إلى جودة المشاركة وإلى طريقة التعامل مع الطفل وإلى نمط شخصية الأب وجنسه واستراتيجياته التربوية (Lamb, 1997 و Parke, 1996).

لجودة التفاعلات بين الأب و الطفل انعكاسات إيجابية على نمو الطفل (Daniel Paquette, 2004)¹. فقد تقيه من التعرض إلى مشاكل التكيف الاجتماعي والإخفاق المدرسي والإدمان والانتحار واضطرابات السلوك المختلفة (الفرط الحركي و الانتباه و السلوكيات العدوانية و السرقة والاندفاعية والعناد والكذب والتخريب وعدم احترام القوانين). و قد تسهم الأساليب التربوية المعتمدة من قبل الأب في تقوية تعلق الطفل بأبيه و تكسبه كثيرا من الخصال. هذه الأساليب الضرورية المكتملة لما تقوم به الأم هي أساليب مميزة تعتمد في الغالب على التفاعلات البدنية والإثارة من خلال اللجوء إلى استخدام الألعاب البدنية القوية المتمثلة في المصارعة و القفز على الركبتين و محاكاة الحصان و الرمي في الهواء التي تهدف إلى زعزعة استقراره الانفعالي ونموه المعرفي و تدريبه على المخاطرة و حمله على أخذ المبادرات والاستكشاف والمغامرة ومواجهة العوائق والتخلي بالجرأة أمام الأجنبيات وتأكيد الذات (دانيال باكات، 2004). إن الأب من خلال ممارسته لهذا الدور الأساسي بحسب السيكلوجيين المعاصرين من أمثال (جون لكامو، 1995) و (لامب، 1984) و (يوقمان، 1987، 1994) و (باكات) كما مر معنا يساعد على تحقيق استقلالية الطفل وانفتاحه على العالم ويقوي رغبته في النجاح بعد تزويده بكثير من الدفء و تعزيز عزيمته بمراقبته وجودة علاقته الزوجية منذ السنوات الأولى من حياته.

هذه الخصائص الإيجابية المميزة للأباء "الطيبين" (Abramovitch, 1997) هي التي تسمح بارتقاء الطفل إلى مستوى عال من الارتياح النفسي. وهي التي تمكنهم من التمتع بدرجات أعلى من التعاطف ومن الخصال الداخلية الإيجابية (l'internalité) ومن الأمن والمرونة في الهوية الجنسية، مقارنة بأطفال العائلات التقليدية غير المشاركة بشكل فعال (Sagi, 1982)، (Radin, 1981)، (Pruett, 1983) في (جون لكامو، 1999). كما أن النمو النفسي لدى هؤلاء الأطفال قد تحسن بشكل واضح (رادان، 1994) ونفس الملاحظة يسجلها (Pleck, 1997) فيما يتعلق بالمهارة المعرفية و مرونة أدوار الجنس والتعاطف والخصال الداخلية الإيجابية.

وفيما يتعلق بالتداعيات الإيجابية لهذه المشاركة الأبوية الملائمة والفعالة على الأطفال فإن (جون لكامو، 1999) يتحدث عن ديناميكية أكبر وعن النضج العاطفي وعن التفاعل الاجتماعي الذي يتميزون به. وهم في نظره ميالون أكثر إلى المصارعة والانتساب (agonistiques et affiliés).

وهم أكثر استعدادا لقبول أقرانهم وممارسة اللعب الجماعي معهم، ويشعرون بأكثر قدر من الأمن في غياب آباءهم، و إنجازاتهم تبدو مميزة عن إنجازات غيرهم.

¹ Paquette Daniel (2004), la relation père - enfant et l'ouverture au monde, Enfance, 2, Vol 56, p. 205 - 225.

الأب المنجز لكل هذه النتائج هو بالفعل أبا "طيبا" وأبا "هادنا جدا" (Godard-Bouchard, 1989) وأبا قريبا مشبعا بالانضباط ومعني بالرعاية ومشجعا على الاستقلالية وحاضرا جدا (Gaudron-Zaouche, 1997)¹.

الخلاصة التي ينتهي إليها جون لوكامو أن الأب المناسب لانتظاراته وطموحاته وتوصياته هو الأب المشارك المتميز، الأب الذي يمكن الطفل من الظفر بالحماية و الاحترام من الأبوين، الأب الذي يتدخل في الوقت المناسب دون أن يخشى الإفصاح عن حنانه وعطفه الذي يعلم بأنه يتمتع مثل الأم بالقدرة على الإسهام في النماء المتعدد الأبعاد للطفل.

إن الدور الحقيقي للأب (جون لكامو، 2000)² لا يتمثل في قول "لا، لا لكل شيء" كما يعتقد (Aldo Naouri) وإنما يكمن في مساعدة طفله على الانفتاح على العالم. إن قرب الأب من الطفل وارتباطه به والتفاعل معه قد يثمر بناء للغيرية والهوية لدى الطفل وعلى الحصول على استقلاله الاجتماعي والاندماج ضمن أوساط أخرى وعلى اكتساب القدرة على تحمل فراق الأم ومواجهة الصعاب وابتكار الحدود الجديدة والاستفادة من مخالطة الآخرين (جون لكامو، 2006). إنه الأب المهتم في التفكير في كيفية الوصول بهذا الابن إلى الرشد والنضج الكامل من جميع النواحي النفسية والمعرفية والاجتماعية الذي يروم بناء ذاته كشخص متميز ومستقل (جون لكامو، 2002).

إنه الأب الذي يسهم في تقاسم المسؤوليات إلى جانب الأم ويستثمر في موقف الفاتح والمستثير والمحرك والمناخ للأحلام. الأب الذي لا يقيم الحواجز وإنما من يشعل الأنوار ويلتزم في وقت مبكر برعاية طفله وبمداعبته من خلال ألعاب المرحلة الأولى من العمر وأنشطة اليقظة والمنافسة الرياضية المحاكية والانفتاح على البيئة وعالم الآخرين ومواجهة محن الحياة. وبهذا التعاطي إلى جانب الأم مع البعد الانفعالي والتربوي للطفل و بوعي كامل و متعة مريحة يتمكن الطفل من أن يكبر بشكل جيد (جون لكامو، 2011)³.

وفي الختام يحاول (جون لكامو، 1999) إقناعنا بهذا الطرح الذي يتقاسمه معه الكثير من السيكلوجيين في هذه العقود الأخيرة بكلمة جامعة ومختصرة يؤكد من خلالها أن العالم في حاجة إلى "نعم" الأب وليس إلى "اسم" الأب.

قائمة المراجع:

1. Badinter Elisabeth (1992), XY, de l'identité masculine, Odile Jacob, Paris.
2. Bouhdiba Abdelwahab (1995), les pères maghrébins en quête de légitimation, in Quêtes sociologiques, Eres, Tunis.
3. Bouregba Alain (2011), l'enfant et son parent. L'histoire d'une empreinte, Dunod, Paris.
4. Bourguignon Odile (1984), mort des enfants et structures familiales, PUF, Paris.

¹ Zaouche - Gaudron Chantal (1997), la différenciation paternelle et le père suffisamment présent, Neuropsychiatrie de l'enfance et de l'adolescence, 45(3), 153-161.

² Le Camus Jean (2000), le vrai rôle du père, Odile Jacob, Paris.

³ Le Camus (2011), un père pour grandir : Essai sur la paternité, Robert Laffon, Paris.



5. Chiland Colette (2001) , a-t-on besoin du père ? , in Chantal Zaouche - Gaudron , la problématique paternelle , « Petite enfance et parentalité » , Eres , Toulouse .
6. Cyrulnik Boris (1989) , sous le signe du lien , Hachette , Paris.
7. Clerget Joël (2008) , « Père naissant » , Comment un garçon devient-il papa ? , « Enfance et parentalité » , Eres , Toulouse .
8. Corneau Guy (1989) , père manquant , fils manqué , Editions de l'homme , Québec .
9. Coum Daniel (2004) , « le père est mort , vive le père » in Daniel Coum , qu'est- ce qu'un père , Eres , Toulouse
10. Delaisi De Parseval Geneviève (1981) , la part du père , Seuil , Paris .
11. Duparc François (2003) , le père chez Winnicott (est- il suffisamment bon) ? in Jean Guillaume et al , le père , l'esprit du temps , « Perspectives psychanalytiques .
12. Hurstel Françoise (1997) , identité masculine , inversion des rôles parentaux , fonction paternelle , Enfance , vol 50 , 3.
13. Hurstel Françoise (2001) , le père comme Alter , dans la problématique paternelle , Eres , Toulouse .
14. Le Camus (2011) , un père pour grandir : Essai sur la paternité , Robert Laffon , Paris .
15. Le Camus Jean (1999) , le père éducateur du jeune enfant , Puf , Paris .
16. Le Camus Jean (2000) , le vrai rôle du père , Odile Jacob , Paris .
17. Le camus Jean , Chantal Zaouche -Gaudron (1998) , la présence du père auprès du jeune enfant : de l'implication accrue à l'implication congrue . Psychiatrie de l'enfant , XLI , (1) , 297 -319 .
18. Le camus Jean , la fonction du père dans les premières années de la vie de l'enfant . Perspectives ouvertes par la psychologie du développement , in Chantal Zaouche - Gaudron (2001) , la problématique paternelle , Eres , Toulouse .
19. Le Camus Jean (2006) , le devenir père : merveilles et déconvenues , Informations sociales , 132 .
20. Le Camus Jean (2006) , ton père tu découvriras pour de vrai , Spirale , 3, 39 , p . 12 - 20 .
21. Le Camus Jean (2002) , le père - bébé , Devenir , 2 , Vol 14 .
22. Neuburger Robert (2015) , Qu'est - ce qu'un père ? , Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux , 1 , 54 .
23. Neyrand Gérard (2011) , l'enfant , la mère et la question du père , PUF , Paris.
24. Neyrand Gérard (2004) , Autorité parentale et différence de sexes , quels enjeux ? , Dialogue , 3 , 165.
25. Neyrand Gérard (2002) , de l'incapacité présumée du père à s'occuper du bébé . La question de la résidence alternée du jeune enfant , Dialogue , 2, 156 , p. 111 - 117 .
26. Neyrand Gérard et Zaouche - Gaudron Chantal (2014) , le livre blanc de la résidence alternée , enfance et parentalité , Eres , Toulouse .
27. Paquette Daniel (2004) , la relation père - enfant et l'ouverture au monde , Enfance , 2 , Vol 56 .



28. Spinoza Odile, Jean le Camus (1991), les relations interpersonnelles précoces, in la socialisation de l'enfance à l'adolescence, PUF, Paris.
29. Sullerot Eveline (1992), quels pères ?, quels fils ?, Fayard, Paris.
30. Tchernicheff Igor (2005), la question du père chez Winnicott et chez quelques autres, Empan, 57.
31. This Bernard (1980), le père : acte de naissance, Seuil, Paris.
32. Tort Michel (2005), Comment le « père » devint la cause des pathologies familiales, Actuel Marx, 1, 37..
33. Valabregue Catherine (1968), la condition masculine, Payot, Paris.
34. Yogman Michael, la présence du père in Geneviève Delaisi de Parseval et al (1987), Objectif bébé, Le Seuil.
35. Zaouche - Gaudron Chantal (1997), la différenciation paternelle et le père suffisamment présent, Neuropsychiatrie de l'enfance et de l'adolescence, 45(3), 153-161.

المنشط السياحي في مواجهة التغير الاجتماعي والثقافي الناجم عن السياحة الجماهيرية في الجنوب الشرقي التونسي د.محمد الفاضل الحاج الساسي/جامعة تونس

ملخص:

توفر مهنة التنشيط السياحي اتصالا مكثفا بين المحلي والوافد. وينجم عن هذا اللقاء غير المتكافئ في موازين القوى تغيرات ثقافية واجتماعية خاصة لدى الطرف الأضعف أي المحلي رغم ما يمكن أن يحمله من مصادر للقوة قد تجعله قادرا على فرض نمطه الثقافي وجعله محل تقدير الآخر. ولكن الواقع أجبر المنشط السياحي على التمرد على مرجع قيم الثقافة المحلية وتبني ثقافة الوافد حد الانصهار والذوبان. وقد حاولنا في هذا البحث عرض بعض من مظاهر التغير الاجتماعي والثقافي الذي يمكن أن يحدث عند المنشط السياحي بنوعيه القار والموسمي وتحديد أسبابه وعوامله بالاعتماد على منهجين يكملان بعضهما البعض: المنهج الكمي والمنهج الكيفي، وأدوات تساهم مجتمعة في إضفاء أكثر مصداقية على البحث: الملاحظة والاستبيان والمقابلة.

الكلمات المفتاحية: التنشيط السياحي، التغير الاجتماعي، التغير الثقافي، الجنوب الشرقي التونسي.

مقدمة:

تعتبر السياحة في الجنوب الشرقي التونسي العمود الفقري للحياة الاقتصادية. وقد أدخلت منذ نشأتها في الجهة تغيرات اجتماعية وثقافية كبيرة حتى أصبحت ظاهرة شاملة ومادة طريفة للباحثين في عديد الاختصاصات. ورغم تنوع البحوث السوسيولوجية والسوسيو-ثقافية حول هذا الموضوع وخاصة أطروحتا عادل الوشاني وحافظ بن عمر، إلا أننا نكاد نجد منها من تناولت بالدرس واحدة من أهم حلقات هذا القطاع: التنشيط السياحي. هذه المهنة التي تجعل المحلي في تماس وتفاعل مباشر مع الوافد مع ما يتضمنه هذا اللقاء من فرص للتبادل والاقتباس والتكامل الثقافي وخاصة لدى المنشيطين اللذين يعتبرون الأكثر تواصلًا مع السياح، وبالتالي هم الأكثر عرضة للتغيير الاجتماعي والثقافي. وتتطلب مهنة التنشيط السياحي توفر عديد الميزات النفسية والثقافية والتكوينية التي تجعل الفرد قادرًا على التواصل السليم مع سياح من ثقافات تتناقض قيمها في غالب الأحيان مع الثقافة المحلية. وبما أن هذا التواصل يعرف أوجه في هذه المهنة كمًا (المدة الزمنية) وكيفا (القرب والحميمية)، فإن إمكانية التغيير الاجتماعي والثقافي ستكون في أعلى درجاتها خاصة مع توفر أرضية خصبة للتغيير ومستعدة له والتي تتجاوز المنشط لتشمل الواقع الاجتماعي والثقافي المعيش وغيرها من العوامل التي تساهم في جعل المنشيطين بين سندان هذه العوامل التغييرية الضاغطة ومطرقة الثقافة المحلية الضابطة. وغالبا ما تنتهي هذه الوضعية بالتمرد على ما يسمى في الفكر الفلسفي بمرجع القيم الذي يمثل المحور الرئيسي الذي يدور حوله التفكير لكل ثقافة¹. إنه مجموع المسائل المتعلقة بما هو صواب أو خطأ، وما هو حق أو باطل... والذي يفعل مفعوله كعامل توحيد لتلك الثقافة¹. وهو ما اتجهت إليه همتنا في هذا البحث الذي حاولنا من خلاله كشف قدرة التنشيط السياحي التغييرية على ممتنه، وتبيان مظاهر هذا التغيير وشرح أسبابه.

الإشكالية:

تدور إشكالية البحث حول الإجابة عن الأسئلة التالية:

ماهي مظاهر التغيير الاجتماعي والثقافي التي يمكن أن يسببها العمل في التنشيط السياحي؟ وما هي العوامل المساعدة عليه؟ وكيف السبيل إلى تقديم منتج سياحي قادر على تثمين الثقافة المحلية وحماية المنشيطين السياحيين من الانصهار والنوبان في ثقافة الوافدين مع الحفاظ على المردودية الاقتصادية لهذا النشاط وتدعيمه؟

الفرضيات:

- الفرضية الأولى: إن التنشيط السياحي يجعل ممتنه يتمرد على مرجع قيم الثقافة المحلية وينصهر في ثقافة الوافد فاقدًا هويته.
- الفرضية الثانية: إن العمل الموسمي لبعض الطلبة والتلاميذ في التنشيط السياحي يؤثر سلبًا على نتائجهم الدراسية وينشر لديهم سلوكًا انتهازيًا وتواكليًا.

¹ سعدون حمادي: "الثقافة العربية والتحدي، القومية العربية والتحدي"، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995، ص 31.

منهج البحث:

يتخذ موضوع بحثنا من الإنسان والمجتمع موضوعاً ومادة له، مع ما تتميز به هذه المادة من وعي وغنى وتعقيد. وهذه السمات المتعددة الأبعاد تعسر البحث والتحليل والاستنتاج باستعمال ونهج واحد. لذلك فقد التجأنا إلى منهجين يكملان بعضهما البعض: المنهج الكمي والمنهج الكيفي.

أدوات البحث: استعملنا في هذا البحث تقنيات جمع البيانات التالية: الملاحظة والاستبيان والمقابلة.

1- المنظومة المفاهيمية

● مفهوم التغيير الاجتماعي:

يعتبر التغيير من أهم القضايا التي شغلت الفكر الإنساني ومن المباحث الأساسية لعلم الاجتماع التي صاحبت منذ نشأته. فقد اهتم علماء الاجتماع بدراسة هذه المشكلة اهتماماً كبيراً لشموليتها وتطرقها إلى العديد من الميادين ومجالات البحث. فبناء النسق أو النظام الاجتماعي في تغير شديد الوضوح ودائم. وظواهر المجتمع مترابطة ومتساندة وظيفياً وكل تغير يصيب جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية يصيب، عاجلاً أم آجلاً، حلقات السلسلة الاجتماعية الأخرى ولكن بدرجات متفاوتة بمعنى أن التغيير في الجزء يؤدي إلى تغير في البناء الكلي..

ويرى حسين عبد الحميد رشوان أن التغيير الاجتماعي هو المظهر الديناميكي للمجتمع الإنساني والحركة المستمرة التي تتم من خلال التفاعل الاجتماعي عبر الزمن، وتعبّر عن أنماط من العمليات والانتقال والتقدم، وتتم عن الاختلافات والتعدلات والدورات والتذبذبات التي تطرأ في طبيعة ومضمون وبناء الجماعات والنظم، وكذلك في العلاقات الاجتماعية وفحواه الذي يتمثل في العادات والعرف والنظم والقوانين واللغة خلال تتابع الزمن وبحيث يمكن ملاحظتها وتقديرها¹. وعلى هذا الأساس فإن كل الدراسات التي تعنى بالمجتمع هي دراسات تغييرية.

ويعتبر لوريس الراعي أن تناول التغيير الاجتماعي يشير إلى التحول الذي يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في بنائه الطبقي أو في نظمه الاجتماعية، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية أو في القيم والمعايير التي تؤثر في سلوك الأفراد والتي تحدد مكاناتهم وأدوارهم في مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينتمون إليها². كما يشير إلى الاختلافات المتعاقبة التي تقع عبر الزمن في بعض العلاقات الاجتماعية كالمعايير والدور والمكانة والبناء الاجتماعي وكذلك العائلة والملكية ودور المرأة ومكانة الزوج ومجتمع القرية. فإذا قلنا إن النظام العائلي قد تغير فإنما نعني بهذا أن ثمة اختلافات بين حالي العائلة التاريخية التي نعرفها عن طريق السجلات المكتوبة أو عن طريق الذاكرة³.

¹ حسين عبد الحميد رشوان: "التغيير الاجتماعي والتنمية السياسية في المجتمعات النامية"، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1988، ص 54.

² لوريس الراعي: "التغيير الاقتصادي في مجتمع بدوي"، ط 1، جروس برس، طرابلس، 1987، ص 14.

³ لوريس الراعي: المرجع السابق، ص 52.

• مفهوم التغيير الثقافي:

مثلما يتسم مفهوم الثقافة بالتعقيد فإن المفاهيم ذات الصلة به يشوبها أيضا نفس اللبس خاصة إذا وقعت دراستها في إطار علم الاجتماع الذي لا تفصل فيه بعض المدارس بين الثقافة والمجتمع. وفي هذا الإطار يندرج مفهوم التغيير الثقافي الذي ذهب البعض إلى أن دراسات التغيير الاجتماعي ما هي إلا دراسات للتغيير الثقافي. وكثيرا ما استخدم مفهوم التغيير الاجتماعي ومفهوم التغيير الثقافي كما لو كانا يدلان على المعنى نفسه. فنجد أن (ميرل) يقول إن كثيرا من النظريات التي تحاول شرح التغيير الاجتماعي هي واقعيًا تتعامل مع التغيير الثقافي فهو إذن يجعل من دراسة التغيير الاجتماعي دراسة للتغيير الثقافي. وكأنه لا تغير عنده إلا التغيير الثقافي.¹ في حين أن التغيير الثقافي أوسع نطاقا من التغيرات في البناء والوظيفة والتنظيم الاجتماعي. ونقصد بتلك التغيرات تلك التي تطرأ على كافة جوانب الحياة في المجتمع، ويتضمن ذلك الأسرة والدين والفن وقضاء "وقت الفراغ" والترويج والتكنولوجيا وهذا النوع من التغيرات إنما ينطوي على درجة عالية من التساند والاعتماد المتبادل. بمعنى أن التغيير في الجزء يؤدي تغيرات في البناء الكلي.

إن التغيير الاجتماعي جزء من موضوع أشمل وأوسع هو التغيير الثقافي الذي يشمل كل التغيرات التي تحدث في الثقافة بما في ذلك الفن والفلسفة والعلم والتكنولوجيا، بالإضافة إلى التغيرات التي تحدث في صور وقواعد التنظيم الاجتماعي، ومن ذلك نتبين أن التغيير الثقافي أوسع من التغيير الاجتماعي... كذلك نجد أن التغيير الاجتماعي ضروري وأساسي في حدوث التفاعل الاجتماعي وصيغ الثقافة بالصيغة الديناميكية المتغيرة، أما إذا لم يحدث التغيير الاجتماعي فإن الثقافة تتسم بصيغة الركود والجمود وبالتالي تصاب بالتقهقر والاضمحلال² مع الأخذ بعين الاعتبار التميز بين البناء الاجتماعي والبناء الثقافي، فالتغيير الثقافي مرتبط بدرجة كبيرة بالظواهر الثقافية كالمعرفة والأفكار والفن علما بأن هنالك صلة وثيقة بين المتغيرات الاجتماعية والمتغيرات الثقافية، فنمو وتطور العلوم والتكنولوجيا ومنظومة القيم والأفكار ووسائل وأدوات التعبير الفني والإبداعي لها الأثر المباشر على البناء الاقتصادي والاجتماعي.

• الجنوب الشرقي التونسي

يمتد الجنوب الشرقي التونسي على ثلاث ولايات هي قابس ومدنين وتطاوين. ويتركز النشاط السياحي بصفة خاصة في المنطقتين السياحيتين جربة وجرجيس التابعتين لولاية مدنين. وما تجدر الإشارة إليه ونحن بصدد دراسة التغيير الاجتماعي والثقافي الناجم عن التنشيط السياحي في هذه الجهة، الطابع المحافظ³ الذي يميز سكانها كما أشار إلى ذلك الدكتور فتحي ليسير في أطروحته الموسومة "نجع ورغمة تحت الإدارة العسكرية الفرنسية 1881-1939"، وتغلغل النشاط السياحي آخذا مكان

¹ محمد فؤاد حجازي: "التغيير الاجتماعي"، مكتبة وهبة، القاهرة، 1978، ص 131.

² عبد الحميد الزنتاني: "مسؤولية التربية اتجاه التغيير الاجتماعي في ليبيا"، اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب، مطابع وزارة الإعلام والثقافة، طرابلس، 1968، ص ص 33-34.

³ فتحي ليسير: "نجع ورغمة تحت الإدارة العسكرية الفرنسية 1881-1939"، أطروحة لنيل شهادة التعمق في البحث في التاريخ، تحت إشراف أ. محمد الهادي الشريف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1991، ص 18.

الفلاحة التي كانت تمثل العمود الفقري للحياة الاقتصادية، مع ما يحمله من قدرة تغييرية شاملة¹ تناولها بالدرس الدكتور حافظ بن عمر في أطروحته الموسومة "السياحة والتغير الاجتماعي في تونس دراسة استطلاعية وتحليلية في الآثار الاجتماعية والثقافية لتطور قطاع السياحة بالجنوب الشرقي". إذن فنحن إزاء مجتمع محلي كان حتى استقلال البلاد تقليديا بمؤسسات اجتماعية وثقافية وسياسية (القبيلة والميعاد والنجع...) طبعت حياته بسمات ترسخت لعدد الأجيال في مواجهة ظاهرة اقتصادية كبيرة قادرة على التغيير الاجتماعي والثقافي.

2- التنشيط السياحي: خدمة أم تفاعل؟

عرف مارك بويار (Marc BOYER) السياحة بأنها "مجموعة من الظواهر ناتجة عن التجوال والإقامة المؤقتة للأشخاص خارج حدود بلادهم قصد الترفيه وإشباع حاجاتهم الثقافية والحضارية"². ولا يكون ذلك إلا عن طريق أنشطة وبرامج محكمة التخطيط والإعداد ومتقنة التنفيذ والإنجاز من قبل فرق التنشيط السياحي.

وانطلاقاً من هذا المنظور يمكن اعتبار التنشيط السياحي أهم جزء في حياة النزّل، فهو الذي يضفي الحياة عليه بل هو حلقة الوصل والعمود الفقري الذي يربط السائح بالعالم الجديد الذي يزوره. وبالتالي فإن المنشط هو أكثر الفاعلين في القطاع السياحي الذي يتواصل مع السياح ويتفاعل معهم. وهو بهذه الطريقة أكثر الناس عرضة للتغير اجتماعياً وثقافياً خاصة مع توفر عوامل ملائمة مرتبطة بالمهنة والمنشط والمحيط.

2-1- الخصائص الاتصالية والإنسانية:

● اللقاء الأول وكسب ثقة السياح

عند الوصول إلى البلد المستضيف، يجد السائح في استقباله ممثلي وكالات الأسفار اللذين سيرافقونهم إلى النزّل وهم في أغلب الأحيان المنشطون العاملون فيها³. ويكون اللقاء الأول مع عينة من السكان المحليين القادرة بحكم تجربتها وتكوينها في القطاع السياحي على التواصل الجيد مع السياح. ويتدعم هذا التواصل الأول الإيجابي خاصة عندما يكون المنشط السياحي أول الناصحين والمرشدين. ففي هذا اللقاء يقدم المنشط لمجموعة السياح بسطة عامة حول خصوصيات المنطقة والفضاءات الترفيهية فيها، كما يحذرهم من أغلب الإشكالات التي يمكن أن تعترضهم سواء داخل النزّل أو خارجها، ويبدأ بعد ذلك في ممارسة التنشيط الذي يجعله بفضل تقنياتها وصفاته محل ثقمتهم وحبهم. فيصبح المستشار الأول لهم والميسر لتحقيق رغباتهم. ومن هنا تبرز قيمة هذا اللقاء الشكلية بكونه هو الأول مع السكان المحليين وقيمة مضمونه بكونه يمثل فرصة للنصح والإرشاد والثقة.

¹ حافظ بن عمر: "السياحة والتغير الاجتماعي في تونس دراسة استطلاعية وتحليلية في الآثار الاجتماعية والثقافية لتطور قطاع السياحة بالجنوب الشرقي"، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، تأطير أ. محمود الذواوي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2003، ص 97.

² عبد الرحمان أبو رباح: "السياحة العربية: أبعاد ومرتكزات"، منشورات الاتحاد العربي السياحي، 1975، ص 22.

³ مقابلة مع السيد دالي (اسم مستعار لحماية للمستجوب الذي كشف للباحث عديد النقاط الهامة والأسرار التي يمكن أن تسبب له إحراجاً أو تهديداً لمسيرته المهنية). والمستجوب منشط بنزل الفصول الأربعة بجزيرة، وهو صاحب خبرة ومسيرة مهنية بـ 10 سنوات.

● حلقة الوصل

بعد أن يكسب ثقة السياح يصبح المنشط السياحي حلقة الوصل بينهم وبين مكونات المحيط الذي يتحركون فيه. فيبوحون له بتدريباتهم وملاحظاتهم حول الخدمات داخل النزل ويطلبون منه مرافقتهم خارجها وتوجيههم إلى المرافق والخدمات حتى التي خارج النزل. فالمنشط ليس مقدم برامج وأنشطة ترفيهية فحسب، بل هو يجيد تقنيات التواصل والتفاعل مع السياح وربط علاقات تقوم على التمازج والإصغاء والتفهم وفي إطار من التفريغ الكلي لهذه المهام.¹ هذا التواصل المكثف والعمل الميداني يجعل منه الحلقة الأخطر في سلسلة الفاعلين في المجال السياحي.

● المرافقة المستمرة للسياح

المنشط السياحي مطالب بالتواجد المستمر داخل النزل لتقديم الأنشطة الترفيهية المتنوعة والممتدة على كامل فترات اليوم. فمنذ الصباح ينطلق التنشيط وينتهي في ساعات متأخرة من الليل. وما تجدر إليه في هذا الإطار أن المنشط هو الشخص الوحيد الذي بإمكانه مشاركة السياح حتى خلال فترات الأكل، بل هو مطالب بذلك للتواصل معهم ومعرفة انطباعاتهم وكسب ثقتهم أكثر. كما يطلب السياح من المنشط أخذهم إلى بعض المناطق أو الفضاءات الترفيهية الأخرى التي يمكن أن تكون خارج برمجة النزل الذي يسكنون فيه. فيكون المنشط هو الدليل السياحي الذي يقيم تحيل البعض من التجار أو العاملين في النزل والمقاهي والحانات وكراء السيارات والدراجات النارية والأحصنة والإبل وغيرهم من الذين يمكن أن يستغلوا وجود السائح خارج النزل ودون مرافقة للتحيل عليه أو سرقة أو الاعتداء عليه أو التحرش به...

● التنشيط السياحي مهنة توفر الصداقة:

بالخصائص التي ذكرناها تتكون بين السائح والمنشط السياحي علاقة متينة أساسها الثقة والحب ويتحول المنشط من وضعية العامل إلى وضعية الصديق الذي يوفر للسائح مناخا من الراحة النفسية والطمأنينة أثناء عطلته. والمنشطون السياحيون واعون بأهمية هذه العلاقة بل هم في محاولات دائمة لتدعيمها وتحسينها وذلك بتقديم النصح والتوجيه السليم والمعلومة الصحيحة والمرافقة المستمرة للسياح منذ وصولهم إلى وجهتهم السياحية. وهذه الطريقة يبني المنشط علاقة إنسانية تستمر في غالب الأحيان حتى بعد انتهاء العطلة السياحية أو تتطور إلى صداقات أو علاقات عاطفية أو زيجات...²

¹ يضرب المنشط المستجوب "دالي" مثالا يعكس أهمية المنشط. وهو مثال سلسلة نزل Club Med التي تسمى القائم بمهنة النشط بالمنظم/المنسق اللطيف (GEO= GEntil Organisateur) وفي هذه النزل كل العاملين هم منشطون. فحتى المدير وعاملة النظافة وعون الاستقبال يمكن أن يقوموا بالتنشيط. وهذه الحالة تختلف مع نزل FRAM التي لا تدخل في ميدان التنشيط أي غريب عن المهنة. فالمنشط عندها هو قائد عطلة Pilote de Vacances.

² يعتبر المنشط "دالي" أن المنشط الذي هو الذي يتمكن من ربط علاقة عاطفية مع سائحة في أقل وقت ممكن، أي في ظرف سنة أو سنتين على أقصى تقدير من دخوله إلى هذه المهنة. وفي إجابته عن سؤالنا حول عدم تزوجه من سائحة أكد على ندمه على تفويت عديد الفرص التي جاءت خلال مسيرته المهنية بسبب اهتمامه بجمع الأموال الذي كان سهلا. وما تجدر الإشارة إليه أن المنشط "دالي" قد اعتزل سنة 2015 التنشيط السياحي.

2-2- العوامل المغيرة في حياة المنشط السياحي

تنتهي مهنة التنشيط السياحي إلى المهن الثقافية التي يجد العامل فيها نفسه في فضاء متعدد الثقافات. فالناس من جنسيات متعددة، ويتكلمون لغات مختلفة ويتصرفون وفق عادات وتقاليد قد تكون في بعض الأحيان مشتركة، وفي أغلبها مختلفة ومتناقضة. ورغم الطابع الودي وغير الرسمي لهذا اللقاء فإنه يمكن أن يظهر بعض محاولات الهيمنة الثقافية من هذا الطرف أو ذاك وما يقابل ذلك من تداعيات متمثلة في التقليد أو الذوبان أو الانصهار. وغالبا ما يكون المنشط السياحي في هذه الوضعية نتيجة عدة عوامل منها ما يتعلق بشخصه ومهنته ومنها ما ترتبط بالمجتمع أو ثقافته ككل.

• التفرغ الكلي للمهنة:

رغم ارتباط مهنة التنشيط السياحي بالترفيه والترويح عن النفس إلا أنها تعتبر من أعسر المهن وأكثرها إرهاقا. فالمنشط السياحي مطالب بتنفيذ برمجة تمتد من الصباح الباكر وحتى ساعات متأخرة من الليل قد تصل أحيانا إلى طلوع شمس اليوم الموالي. وحتى خلال انقطاع فقرات التنشيط خلال فترات الأكل فإن المنشط مطالب بمرافقة السياح أو القيام بالتدريبات للعروض التنشيطية الليلية التي تليها العروض الفنية الراقصة والمسرحية.¹

وكل هذا الوقت يستدعي حضورا ذهنيا كبيرا مع ما يتضمنه من اتصال كثيف مع السياح وما يقتضيه ذلك من تحويل وتعديل لبعض الممارسات والسلوكيات والتصرفات المحلية التي نشأ عليها والتي قد لا تروق للسياح أو لا تتماشى مع ثقافتهم الغربية. هذه المكتسبات الثقافية تتلاشى شيئا فشيئا مع القطيعة المكانية الكبيرة التي يعيشها المنشط مع محيطه الاجتماعي. فهو مطالب بالتواجد المستمر داخل النزول خلال فترة الموسم السياحي التي يمكن ألا تتوقف إلا لمدة شهر أو شهرين.

ونظرا لأهمية المنشط في حياة النزول فإنه يتميز على بقية العاملين بتمتعته بالسكن المجاني والتغذية الكاملة والتمتع بأغلب الخدمات داخل النزول. وإذا كان المنشط متميزا فقد لا يتمكن من إيجاد فرصة للراحة السنوية أو حتى للاحتفال ببعض

¹ برنامج العمل اليومي حسب ما لاحظته وما قاله المستجوب "دالي" يتكون من الفقرات التالية:

7:30 صباحا الاستيقاظ

8:45 اجتماع المنشطين وتقسيم الأدوار وإعداد اللوازم للتنشيط

9:00 فطور الصباح بمرافقة السياح

من 9:30 إلى 12:30 تنشيط (كل نصف ساعة نشاط)

13:00 غداء بمرافقة السياح

13:30 - 14:30 تدريب Répétition على العروض يوميا كل بداية موسم

من 14:30 إلى 17:30 تنشيط (كل نصف ساعة نشاط)

من 18:00 إلى 19:00 راحة

20:00 عشاء مع السياح

من 20:30 إلى 22:30 عرض تنشيطي

من 23:00 إلى 01:00 مرافقة السياح في الملبى

من 01:30 إلى 03:00 تدريب Répétition على العروض يوميا كل بداية موسم

مع إمكانية واردة جدا في مرافقة بعض الراغبين في السهر خارج النزول حتى طلوع الفجر مما يعني إمكانية عدم تمكن المنشط من إيجاد وقت للنوم. ويشبهه المنشط "دالي" هذه الحالة بالعسكر أثناء الحرب.

المناسبات الدينية مع عائلته كممارسة الشعائر الدينية خلال شهر رمضان وغيرها من الواجبات الدينية التي تتقلص ممارستها تدريجياً عند العمل في التنشيط السياحي. والجدول التالي يعكس ذلك.

الجدول رقم 1: ممارسة الواجبات الدينية

هل تقوم بواجباتك الدينية التالية؟															
الزكاة والصدقات				صلاة الرحم				الصوم				الصلاة			
لا		نعم		لا		نعم		لا		نعم		لا		نعم	
%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت	%	ت
23.7	22	76.3	71	75.3	70	24.7	23	57	53	43	40	96.8	90	3.2	3

ف3% فقط من المنشطين السياحيين يقومون بأداء فريضة الصلاة وهي نسبة متدنية جداً. كما أن 43% منهم لا يصوم رمضان. ويجمع كل المنشطين المستجوبين حول توفر مناخ ثقافي لا يساعد على ممارسة تلك الشعائر الدينية ويتناقض معها، فلا يصح مثلاً - حسب ما يصرحون به- الصوم والصلاة في ظل مشاهدة العري ومجالسة السياح في الحانات. فكل هذه الظروف تؤثر على ممارسة الواجبات الدينية. وهو ما يبرزه الجدول التالي:

الجدول رقم 2: تأثير السياحة على ممارسة الشعائر الدينية

هل يؤثر عملك في التنشيط السياحي على ممارستك لواجباتك الدينية؟	
البيانات	
لا	نعم
0	93
0	100
	النسبة %

ومن خلال بعض للمقابلات العفوية مع المنشطين، أشار كثير منهم إلى أن بعض المنشطين انقطعوا عن ممارسة صلاتهم وصيام رمضان في حين أنهم ينحدرون من عائلات محافظة لا تقبل بأي حال من الأحوال ألا يصوم أحد أفرادها شهر رمضان

الذي يتميز بقداسة خاصة مقارنة بالفرائض الأخرى. هذا بالإضافة إلى التغير الحاصل في جوانب متعددة في شخصيتهم وطرق تواصلهم ولباسهم وغيرها من الجوانب التي تفرضها طبيعة العمل في هذا القطاع.

هذه الوضعية التي غالبا ما تروق للمنشطين الشبان تجعلهم يعيشون في قطيعة مع ما اكتسبوه خلال تنشئتهم الاجتماعية خاصة في ظل غياب أي رقابة اجتماعية أو ثقافية عليهم. فهم دائما داخل الفضاءات السياحية ويتعاملون مع سياح من ثقافات تختلف عن ثقافتهم الجنوبية المحافظة وتتناقض معها في أحيان كثيرة. وبفضل عاملي الوقت والتكرار يتطبع المنشط بسلوكات وممارسات ثقافية جديدة.

● هشاشة الوضعية الاجتماعية للمنشط:

من خلال تجربة تدريس شعبة التنشيط السياحي في المعهد العالي للدراسات التطبيقية للإنسانيات بالمهدية من 2008 إلى 2011 لاحظت أن أغلب الطلبة ينتمون إلى عائلات متوسطة الدخل وعائلات فقيرة لم تجد الإمكانيات المادية الكافية لتوفير ظروف جيدة لكي يكون أبنائها من المتميزين ويحصلون على شعبة يمكن أن تؤدي إلى الوظيفة العمومية. كما أن معظمهم لم يرغبوا في شعبة التنشيط السياحي في تصنيف الشعب خلال التوجيه الجامعي. فهذه الشعبة تستقبل التلاميذ اللذين لم يتحصلوا على توجيه خلال الدورات الثلاث الأولى واللذين تذيّلوا الترتيب أي المتحصلين على الورقة البيضاء في التوجيه الجامعي. لذلك يجد الطالب نفسه مضطرا للحصول على شهادة جامعية تؤدي إلى عمل لا يعرف شروط العمل فيه والإمكانيات الذهنية والثقافية والنفسية التي يتطلبها. وما يثير الدهشة في هذا الصدد أن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي تقبل الطلبة في هذا الاختصاص الدقيق والخطير والحساس دون القيام باختبار نفسي psychotechnique test وتوضيح المستقبل المهني لهذه الشعبة. فجل الطلبة الدارسين في هذا الاختصاص يحملون بالمشاركة في مناظرات أخرى ولا يريدون الانتماء إلى مهنة التنشيط السياحي خاصة مع انتماء جزء كبير منهم إلى أوساط ريفية محافظة تسخر من العامل في هذه المهن وغالبا ما ترفض عمل المرأة فيها. حتى أن البعض ينعت المنشط السياحي ببعض النعوت السلبية التي تحط من قيمته الإنسانية والثقافية كـ "المهرج" و"الكركوز" و"الطرطور" ويصف المنشطة بالعاهرة والبغي.

ورغم هذه النظرة السلبية، إلا أن جزءا كبيرا من المتحصلين على الشهادة يخوض غمار هذه المهنة خاصة مع سرعة الدخول إلى سوق الشغل إثر قيامه بعدد التبرعات أثناء دراسته. هذا بالإضافة إلى هشاشة الوضعية الاجتماعية لعائلته التي تجعل أفرادها يقبلون بإرادتهم أو رغما عنهم أن يعمل إبتهم في مهنة يرون أنها تتنافى مع مبادئهم عوض التشرّد والبطالة. وعند بداية العمل الفعلي -بعد التبرعات- يكتشف المنشط واقعا جديدا يختلف مع ما كان يعيشه في محيطه الاجتماعي والثقافي وتحصل لديه صدمة ثقافية تقلص تدريجيا، وتتغير معها شخصية المنشط بسبب الإغراءات المادية التي تجعله يضعف ويقبل بالتنازل عن بعض قيمه ومبادئه من أجل الحصول على هبات وهدايا من السياح. فيقبل أن يعيش تجارب عاطفية كثيرة مع السائحات (53.4% من المنشطين المستجوبين) ويشرب الخمر (86% من المنشطين) ويتعاطى المخدرات (90.7% من المنشطين) ليتمكن من الانسجام مع السياح والتواصل معهم أكثر ويرضي المسؤولين. كما يمكن أن يعرض من خلال ذلك بعض الحرمان العاطفي والمادي الذي عاشه خلال طفولته، فيرتقي في ملذات السياحة وإغراءاتها لأغيا كل القيود الثقافية ومتناسيا لها.

إن مكانة المنشط لدى السياح تجعله يجني أموالا تفوق بكثير راتبه الشهري حتى تصبح أغلب معاملاته مع السياح بمقابل حتى أنه يقبل ببيع جسده خلال علاقات "جسدية" لا تمت للعاطفة بصلة. كما أنه لا يخجل عندما يعطيه السياح الهبات والأموال والهدايا حتى دون إسداء أية خدمة. فصفتا الكرامة والأنفة اللتان عرف بهما الإنسان الجنوبي قد قضت عليهما مهنة التنشيط السياحي. فكثير من المنشطين كانوا في بداياتهم المهنية لا يقبلون الأموال والهدايا، ولكن سخرية زملائهم ذوي الخبرة في السياحة من ذلك وحالة الفقر التي يعيشونها تدفعهم إلى الاستسلام للأمر الواقع. هذا بالإضافة إلى قبول بعض الممارسات المستهترّة والمهينة من بعض السياح المستغربين أو المغرورين أو المتصابين والتي لا يمكن أن يقبلها أو يتسامح معها سوى المنشط السياحي. فطبيعة هذا العمل والعروض الجريئة التي تحمل بعض الإيحاءات الجنسية والتعري وتمثيل شخصيات مضحكة أو شاذة أو تقليد الحيوانات قد تقلص من احترام بعض السياح للمنشط الذي يتحول في بعض الحالات محلا للسخرية والتعدي. ويحصل هذا عادة مع السياح غير المتعلمين أو المنتمين لطبقات دنيا في مجتمعاتهم واللذين يمثلون أغلبية السياح نظرا للاعتماد على السياحة الجماهيرية في منطقة البحث والبلاد ككل.

● الإغراءات المادية:

يعيش الشباب في المجتمع المحلي تحت وطأة العديد من المشاكل الاجتماعية كغيره من مناطق المجتمع التونسي رغم ما يوفره النشاط السياحي من انتعاشة اقتصادية ودفع لحركة التنمية في الجهة. وقد أثبتت نتائج البحث الميداني المعتمدة على تقنيات الملاحظة والاستبيان والمقابلة أن هذا النشاط يغير في المجتمع المحلي وخاصة الفئات ذات الدخل المحدود كالتدلاء والخيالة والمنشطين السياحيين وخاصة الشبان منهم اللذين تغريهم أموال السياح لتلبية نزواتهم ورغباتهم التي تتناقض في بعض الأحيان مع مبادئهم وقيمهم. إنها قوة المال.

اهتم عديد علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي بمفهوم "القوة" التي يمكن أن يكتسبها الفرد أو المجموعة للتحكم في الناس، وهي تعني استخدام العنف أو المال أو المعرفة لجعل الناس يسلكون على نحو ما. وهي على هذا الأساس موجودة في كل علاقة إنسانية ومتأصلة في جميع النظم الاجتماعية. وتعتبر قوة المال والثروة من أكثر القوى تأثيرا على الناس والأكثر مرونة لأنه يمكن استخدامه للعقاب والثواب على حد سواء، كما يمكن تحويله إلى مصادر أخرى للقوة.

وفي بحثنا هذا، تؤثر قوة المال في عملية التواصل بين السياح والسكان المحليين. بل لعلها الأكثر تأثيرا في ذلك نتيجة لهشاشة الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للفاعلين الاجتماعيين الذين يتواصلون بصفة مباشرة مع السياح واللذين ينحدرون بنسبة كبيرة من أوساط اجتماعية متوسطة أو فقيرة. فالعائلات الميسورة لا ترضى لأبنائها العمل كمنشط سياحي على سبيل المثال. وهذه الوضعية تجعل الفرد وخاصة فئة الشباب - الفئة الأكثر تأثرا بالقطاع - ينهر بعالم الترفيه والملاذات الموجودة في النزل ويسعى بكل جهده لعيش تجارب تخرجه من حالة الحرمان الاقتصادي والكبت العاطفي.

إن حالة الفقر والبطالة التي يمر بها الشباب التونسي وشباب الجنوب الشرقي بصفة خاصة تجعله أرضية للتغيير الثقافي من خلال تخليه عن مرجع القيم الذي تقوم عليه ثقافته من أجل تغيير حالته الاجتماعية الهشة. ويصبح عنده كل شيء مباحا ما دام ذا مردودية مالية. إنه الوجه الانتهازي والتواكلي الذي يدفعه إلى التفكير في الحلول السهلة التي لا تحتاج إلى مجهود أو عناء.

وظاهرة تزوج الشباب بالسائحات اللاتي يفقهن سنا واستغلال عدم دراية السياح بالمنطقة للتحيل عليهم واستعمال بعض البنزاسة لأجسادهم كمصدر لإغراء السائحات لربط علاقات عاطفية هدفهم من خلالها الربح المادي، مؤشرات عن تمرد الشاب على الواقع الذي يعيشه ورفضه لحالة الفقر والتهميش والبطالة وعدم وضوح المستقبل.

ليس المال وحده الذي يتحكم في تواصل السياح مع السكان المحليين والعاملين في القطاع السياحي بصفة خاصة، وإنما هناك قوة الجسد والجمال التي قد يكون لها تأثير في بعض الحالات أكبر من تأثير المال. وما يكرس هذه القوة ويدعمها الاعتماد على السياحة الشاطئية التي تقوم بالأساس على إمتاع الجسد أكثر من الروح والفكر. كما أنها تظهر القيمة الجمالية للجسد وتجعلها محركا لعملية التواصل خاصة في ظل ثقافة محلية محافظة تعيش في شبه قطيعة وكبت معه أو بطريقة لا تطفئ ظمأ الفرد لهذا العنصر الهام في الحياة النفسية. فالسياحة الشاطئية تكشف الجسد وتجعله وسيلة اتصالية فعالة خاصة مع رغبة كل الأطراف في اكتشاف الجسد الآخر الأجنبي. فيتحول هذا العنصر إلى عامل جذب للآخر واتصال معه، كما يتحول إلى مصدر للقوة يجب استثماره.

ومن المفارقات أن السكان المحليين لا ينظرون إلى تواصل المنشط مع السياح بنفس نظرتهم للتعامل فيما بينهم. وكثير من التناقضات قد تبرز في تقييم هذه التصرفات. فما يكون مرفوضا في تعامل أفراد المجتمع المحلي مع بعضهم البعض قد يصبح أمرا عاديا أو مطلوبا في التعامل مع السياح. ومن بين الحالات التي تتجلى فيها هذه التناقضات ما يقدم عليه الكثير من المنشطين السياحيين وخاصة منهم الذكور من اصطحاب إحدى الصديقات أو العشيقات التي يتعرف عليها أثناء أدائه لعمله إلى منزل عائلته. ومن الغرائب التي نسجلها في هذا الإطار قبول الأسرة وخاصة الوالدين لهذه الاستضافة لسبب وحيد، هو كونها أجنبية. فلو كانت هذه الفتاة أصيلة المنطقة لكان التردد أو الرفض في القبول بهذه الحالة. والغريب أيضا أن بعض النساء المتزوجات تقبل حتى بقيام زوجها بعلاقات عاطفية مع السائحات من أجل المال.¹

● المرحلة العمرية للمنشط

تتطلب مهنة التنشيط مجهودا بدنيا كبيرا وتواجدا مستمرا في النزول وحضورا ذهنيا ونفسيا متميزا. وهو ما يبرر أهم شروط الانتداب في هذه المهنة المتمثل في صغر سن المترشح لها. وبالتالي فإن المسيرة المهنية في هذا القطاع ستكون قصيرة، إذ أن أغلب المنشطين ينهون هذه المهنة في الأربعينيات من عمرهم للتدرج في مهن أخرى في القطاع السياحي أو بعث مشاريع خاصة... لذلك فإن الأغلبية الساحقة من المنشطين هم من الشباب.

وتتميز هذه المرحلة العمرية عن بقية المراحل بكونها فترة النقد والرفض والرغبة الجامحة في التغيير مهما كان المستوى العلمي والاجتماعي للشباب الذي بدأت تبرز معالم شخصيته ونزوعه نحو تأكيد ذاته. هذا بالإضافة إلى رفض الضغط والقهر مهما كان مصدرهما سواء أكانت سلطة أم أسرة، وهذا السلوك جزء من العنفوان الداخلي للشباب والاعتداد بالنفس وعدم الامتثال للسلطة.²

¹ حافظ بن عمر: مرجع سابق، ص 210.

² عزت حجازي: "الشباب العربي ومشكلاته"، سلسلة عالم المعرفة، عدد 6، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985، ص 20.

من ناحية أخرى، يتميز الشباب بالقدرة على الاستجابة للمتغيرات من حوله وسرعة في استيعاب الجديد المستحدث وتقبله وتبنيه والدفاع عنه، وهذه السمات تعكس قناعة الشباب ورغبته في تغيير الواقع الذي وجد فيه. هذا الواقع الذي لا يستطيع أن يرضي اندفاعه وانطلاقه وتحرره وجرأته ويحقق ما يحلم به من مثاليات.¹ كل ذلك يجعل الشاب يلفظ محيطه الثقافي والاجتماعي ويحمل نظرة تشاؤمية عن مستقبل مجتمع يفرض قيم التغيير ويرتاب منه ليبحث لنفسه عن ثقافة بديلة يمارس فيها قناعاته ويمرق فيها عن كل ما هو سائد: إنها الثقافة الفرعية. والمنشط السياحي مطالب بالتفاعل مع هذه الثقافة وتبني قيمها. وما يذكي رغبة المنشط في التغيير ما يجده لدى الثقافات الوافدة من تحرر وانطلاق وجرأة. كما أن تواصله مع الآخر المتقدم يكشف له تشعبه بقيم الحداثة والديمقراطية والمثاليات التي يحلم بتحقيقها - هو - في مجتمعه. لذلك يصبح هذا الآخر مصدرا للتقليد الموجود مسبقا في شخصيته كشاب.

من جهة أخرى يتيح مجال التنشيط السياحي إغراءات مادية متعددة، وهي تأخذ حيزا كبيرا من اهتمام المنشط الشاب. وقد يتمحور هذا الاهتمام حول مسألة الحصول على المال بكل الطرق، حتى وإن اقتضى ذلك التخلي عن مبادئه وقيمه. فقد يمارس المنشط الشاب بعض الأفعال التي تنفرها أغلب الثقافات كتعاطي المخدرات وتعدد العلاقات العاطفية والشذوذ الجنسي وغيرها من الممارسات لكسب المال أو/و لتلبية نزوات الحريف. وهي ممارسات تدخل في باب التقليد الأعمى غير المدروس الذي يأخذ من ثقافة الآخر الغث والسمين دون فرز أو تمحيص. ومن هذا المنظور، تبرز قيمة التكوين العلمي في مجال التنشيط السياحي الذي يوجه المنشط التوجيه الصحيح حتى يتشعب بقيم التنوع الثقافي ويكسبه جهاز مناعة ثقافية لمقاومة وتعديل ميولاته التغييرية المتطرفة في بعض الأحيان.

● ضعف التكوين أو غيابه :

أصبحت النزلة تعتمد على المتكويين في التنشيط السياحي من أصحاب الشهادات الجامعية اللذين يقومون في مرحلة أولى بتريصات ميدانية صلحها ثم يقع انتدابهم في مرحلة ثانية على ضوء تميزهم في تقنيات التنشيط الذي يتماشى مع نوع السياحة المتبع: الجماهيرية. وبالعودة إلى محتوى التكوين الذي يتلقاه طلبة التنشيط السياحي نلاحظ عديد النقائص والهناات التي تحول دون تكوين منشط معزز بهويته وانتمائه الثقافي والحضاري وقادر على تقديم منتج سياحي طريف، مثمر وجالب للسياح. فهو تكوين سطحي لا يعطي قيمة للثقافة بمفهومها الشامل والمفاهيم ذات الصلة بها كالتثاقف والاتصال والاقتراب والتفاعل والحوار والهوية وغيرها من المفاهيم التي تقبل بالآخر كما هو وتجعله يقبل بنا كما نحن دون مركبات نقص أو تعال.

إن محتوى الدروس المقدم لطلبة التنشيط السياحي بمختلف مسوياتهم يركز على تحسين الجانب التقني والفني للطالب من خلال دروس في نظريات وتقنيات التنشيط والمسرح والموسيقى والتعبير الجسماني والرقص والتنشيط الرياضي وتنشيط العروض الفرجوية. وهي مواد مهمة في تكوين المنشط إلا أن محتواها لا يركز على الموروث الثقافي المحلي الذي على المنشط أن يتشعب به مؤمنا بأهمية التنوع الثقافي الذي لا يمثل سببا للإقصاء والتهميش، وإنما هو مصدر للإثراء والتبادل والتثاقف والحوار.

¹ المنجي الزبيدي: "الدخول إلى الحياة"، سلسلة آراء، تير الزمان، تونس، 2005، ص48.

إن الصورة النمطية التي تسم المنشط السياحي لدى المكونين وسلط الإشراف المتمثلة في وزارة السياحة ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي هي نتيجة منطقية لعدم مراهنتهم على الثقافة كمنتوج سياحي قادر على جلب السياح. وانطلاقاً من ذلك فإنهم يساهمون دون قصد منهم في تعميق الفجوة الثقافية بين السياح والمنشطين اللذين يمثلون جزءاً من السكان المحليين وتكوين جيل من أخطر العاملين في المنظومة السياحية اللذين يمثل المادي وانتهاز الفرص هاجسهم الأكبر غير مبالين بمستقبل وديمومة هذا القطاع الحيوي في البلاد. إن المنشط السياحي في حاجة إلى تكوين دسم لأنه السفير الذي يجب أن يمثل بلده وثقافته أحسن تمثيل. فضعف التكوين يجعل لديه شخصية هشّة قابلة للتغيير والدوبان في ظل غياب جهاز مناعة ثقافية قوي قادر على الصمود في وجه الإغراءات الكبيرة التي يمكن أن يتعرض لها.

● اعتماد السياحة الجماهيرية والتركيز على السوق الأوروبية

تتميز السياحة الجماهيرية بتقديم عرض مغر من حيث تدني تكلفته وطريقة تسويقه وعدم الاعتماد على استراتيجيا واضحة لضمان وفاء الحرفاء واستدامة القطاع. فهذا النوع من السياحة سريع التأثير بالأوضاع السائدة في البلد، ليس فقط الأمنية بل حتى بالسياسة الخارجية والعلاقات الدبلوماسية.

وتجلب السياحة الجماهيرية عددا هاما من السياح اللذين ينتمون إلى كل الفئات العمرية والجنسيات والطبقات الاجتماعية والمستويات العلمية. وهم في أغلبهم من الطبقات الاجتماعية الوسطى والدنيا التي لا تجلب عادة عائدات مالية هامة على مختلف مستويات القطاع السياحي. وبالتالي فإنها تحتاج إلى عرض سياحي وبرمجة تنشيطية وترفيهية تتماشى مع إمكاناتها المادية المتواضعة.

إن السياسة السياحية المعتمدة بالدرجة الأولى على السياحة الجماهيرية تلغي الجوانب الثقافية والحضارية أو تجعلها في مرتبة ثانوية وتجعل من العاملين في القطاع وخاصة المنشطين مجرد آلات خالية من الهوية والبصمة الثقافية. فالسائح يجد نفسه دائما في مرتبة عليا وفارضا ثقافته بل يجدها مثمّنة من قبل المستقبلين بجميع أصنافهم: إذ أنهم لا يقدمون منتوجا يثمن الخصوصيات الثقافية ويقدمها بطريقة أمينة تحفظ لها مكانتها دون تزييف أو غش. فالاعتماد على التراث كمصدر للاستثمار والربح المادي أمر مطلوب، ولكن من المعيب أن يقع تقديمه بطريقة مشوهة ومهينة في بعض الأحيان. وكل هذا عائد إلى ضعف التكوين أو غيابها لدى جل العاملين في القطاع السياحي، ومن بينهم المنشطون الذين يقدمون للسياح برمجة ترفيهية لا تعكس ثراء المخزون الثقافي والحضاري للمنطقة. فليس هنالك تجديد وتنوع في المسالك السياحية والخرجات الاستطلاعية. هذا بالإضافة إلى العروض الفرجوية التي تركز على الثقافات الغربية من خلال عروض الرقص والغناء والتمثيل والتي تجعل من الثقافة المحلية، إذا التجئ إلى إدراجها، محل تندر وسخرية واستهزاء. فيصور العربي بالجاهل والمتخلف والأبله والمتعصب والمتطرف وغير المتحضر وغيرها من الصفات التي تعمق دونيته لدى الآخر الذي يسعى جميع العاملين في القطاع السياحي لإرضائه.

وحتى العروض التي يسوق لها على أنها جربية Soirée Djerbienne لا تعكس الصورة الحقيقية للمنطقة، فهي خليط من مكونات ثقافية مختلفة الانتماء. فقد نجد فيها مثلا الرقص الشرقي والموسيقى المصرية وأزياء تقليدية خليجية، وتقدم فيها

أكالات ومشروبات متنوعة لا تراعي خصوصيات المطعم المحلي. إنها مزيج غير متناسق ومتجانس وخال من أي رابط في أو إبداعي. كما أنه يستخف بالمتلقي ولا يعكس حسا ذوقيا للباحث.

إن هذه النوعية من العروض تسيء إلى المنشط قبل أن تسيء إلى الثقافة التي ينتمي إليها. وهو ما يفسر عديد التجاوزات المهيمنة التي تعترضه من قبل بعض السياح والتي يجد نفسه مضطرا لقبولها والتسامح معها للحفاظ على مهنته. وبهذه الصورة نلاحظ أن المنشط السياحي يرسم صورة سلبية عن ثقافته ومجتمعه تجعل منه مجرد مقلد ومتأثر بالآخر الذي رسمه في ذهنه وفي أعماله في صورة المتقدم والمتفوق.

إن الاعتماد على السياحة الثقافية ليس فقط حلا ناجعا لتنمية القطاع واستدامته بل هو أيضا مثنى للثقافة المحلية دون نفي الثقافات الأخرى. إنه يقدم صورة إيجابية للسائح عن المجتمع الذي يستقبله ويجعله ينظر إلى أفرادها باحترام. فالعرض السياحي المعتمد فقط على الرباعي الكلاسيكي (Sun: الشمس، Sex: الجنس، Sea: البحر و Sand: الشاطئ) لا يقدم للسائح متعة استكشاف الجديد والغريب الممتع والمدهش، كما أنه لا يقدم نقاط القوة والطرافة في الثقافات المحلية مثل عادات الأكل وطرق إعداده وطقوس دورة الحياة والاحتفالات الدينية والتي لا تمثل مصدرا للخجل. بل إن هذه المكونات الثقافية تعزز انتماء الفرد لثقافته وتقوي جهاز المناعة الثقافية لديه أمام تحديات التغيير الذي يمكن أن يسببه احتكاكه المتواصل بالآخر.

3- العمل الموسمي للتلاميذ والطلبة في التنشيط السياحي:

يمثل التواجد والعيش في منطقة سياحية فرصة لعديد التلاميذ والطلبة للعمل بصفة موسمية في التنشيط السياحي. وقد تؤثر هذه الوضعية سلبا على بعض التلاميذ والطلبة اللذين يشتغلون صيفا في المقاهي والنزل السياحية. فتراجع نتائجهم الدراسية نتيجة انبهارهم بعالم السياحة وتفكيرهم في استغلال بعض الفرص السهلة للريح وضمان مستقبل جيد وتقليد بعض حالات الزواج بالأجنبيات الناجحة في ظاهرها. أضف إلى ذلك ما ترسخ لدى الشباب من أفكار واهية تتمظهر في بعض الأمثال الجديدة المتداولة بينهم والتي لا تشجع إلا على التواكل والكسل وعدم التعويل على الذات.¹ وهو ما يفسر تصدر "عدم وجود فائدة في مواصلة الدراسة" قائمة أسباب مغادرة المؤسسة التربوية بـ 32.5%² فينحرف التلاميذ عن المسار التربوي والتعليمي القويم ويلتجئون إلى ثقافة التحيل المتمثلة في الغش في الامتحانات وتراجع قيم التعليم في مقابل صعود قيم الانتهازية والريح السريع. وهو ما ينسجم تقريبا مع نتائج الاستبيان التي تؤكد أن 67% من العينة تعرف على الأقل تلميذا أو طالبا انقطع عن الدراسة واتجه للعمل في السياحة.

¹ من بين الأمثال المتداولة يمكن ذكر: "تقرا وإلا ما تقراش الخدمة ما فماش" و "اللي قروا ماتوا واللي ماتوا قراو عليهم" والتي تشير إلى أنه لا جدوى من الدراسة والتعليم.

² www.ins.tn

الجدول رقم 3: الانقطاع عن الدراسة من أجل العمل في التنشيط السياحي

هل تعرف تلميذا أو طالبا انقطع عن الدراسة واتجه للعمل في التنشيط السياحي؟			
لا		نعم	
النسبة	التكرار	النسبة	التكرار
33	30	67	63

وما يعزز توجه الشباب التلميذي والطالبي للعمل الموسمي توأجدهم في منطقة فيها فرص سانحة للشغل جليا في علاقة مباشرة بالقطاع السياحي الجذاب للشباب. هذه الوضعية تدفع الشاب للانقطاع عن الدراسة والتوجه لسوق الشغل لتأمين مستقبله من خلال العمل في المهن السياحية التي يعتبرها بعضهم قادرة على تعليمهم اللغات وتكوين زاد معرفي أكثر من المؤسسات التربوية. وهي وجهة نظر فيها جانب من الصواب، لكن البعد التربوي في المؤسسات التربوية أهم من البعد التعليمي فما تقدمه المدرسة أهم من مجرد التعليم والتلقين. فهي تحت شخصية الشاب في إطار انتمائه الجغرافي والثقافي والاجتماعي الخاص وتعديل سلوكه وتشبعه بالقيم والمبادئ المتفق عليها في مجتمعه.

من جهة أخرى، يقلص عمل التلاميذ والطلبة في السياحة من رقابة الوالدين على الأبناء وصراحتهم وحزمهما في التعامل مع تقاعسهم وإخفاقاتهم المدرسية. فما يجنيه الابن خلال العطلة يجعل الأب يتساهل أو يغض النظر عن إخفاقات ابنه الذي يعوضه عما أنفق عليه في تعليمه وتجعله يعول على نفسه في جل مصاريفه. هذه الوضعية تجعل بعض الآباء والأمهات يعتقدون أن أبناءهم أصبحوا واعين وناضجين، فيمنحونهم ثقة في غير محلها. فحصول الابن على المال بمجهوده الخاص ومنحه حرية التصرف فيه تجعل فكرة الحصول على العمل تبرك في الظهور لديه لتصبح بتكرار العمل الموسمي هاجسا يجب تحقيقه حتى وإن اقتضى ذلك الانقطاع عن الدراسة، ليتحول العمل الموسمي إلى عمل قار أو يحاول الابن الشاب البحث عن عمل أكثر مردودية يجعله يدعم الاستقلالية التي بدأ يستمتع بها. وهذه الطريقة يتحول العمل الموسمي في التنشيط السياحي من نعمة إلى نقمة لقدرته على شد الشاب إليه من خلال اكتشاف عالم مليء بالمتع والإغراءات التي تلبى الحاجيات النفسية لمرحلته العمرية. ويتدعم هذا الانشداد عندما يربط التلميذ أو الطالب علاقة عاطفية مع إحدى السائحات، وهو احتمال كبير في مهنة التنشيط السياحي لما يتميز به المنشطون من خصال إنسانية واتصالية ومهنية لا تتوفر لدى غيره في المهن السياحية الأخرى.

إن قصر المسيرة المهنية للمنشط، وظروفه الاجتماعية الهشة يضطرونه في بعض الحالات إلى خوض علاقات جنسية غير عاطفية حتى مع سائحات مسنات، والأخطر من ذلك فقد تنتهي هذه العلاقة بالزواج من أجل تحقيق حلم السفر إلى أوروبا بطريقة قانونية. وهو ما تؤكدته نتائج الاستبيان. ف 97.4% من المنشطين قد يقبلون الزواج بسائحة أجنبية مسنة من أجل السفر إلى أوروبا. وهو ما تؤكدته نتائج السؤال التالي:

جدول رقم 4 : الموقف من الزواج بسائحة أجنبية مسنة

لو تتاح لك فرصة الزواج بسائحة أجنبية مهما كان عمرها للسفر إلى أوروبا فهل تقبل بذلك؟				
الإجابات المفقودة	لا		نعم	
	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار
15	2.6	2	97.4	76

ويمكن تفسير هذه النتائج بثقافة الربح السريع وانتهاز الفرص والتقليد الأعمى التي أصبحت شائعة لديهم، بالإضافة إلى وضعية البلاد التي سادت فيها البطالة وخاصة عند أصحاب الشهادات العليا مما يجعل التلميذ أو الطالب يتصور الزواج بالأجنبية كالحل أو الاستثمار الذي يخرج من وضعيته الاجتماعية الهشة.

وانطلاقاً من هذا التحليل، يمكن القول بأن للعمل في التنشيط السياحي قدرة تغييرية على فئة الشباب التي تواجه عديد الصعوبات والمشاكل الاجتماعية التي تتفاقم سنة بعد سنة.

3- مكانة الثقافة في العرض السياحي التنشيطي

يجمع الفاعلون في القطاع السياحي على تراجع نوعية السياح القادمين إلى تونس وذلك بسبب السياسة السياحية المتبعة التي تقدم منتوجاً خال من الإبداع والابتكار ومرتكزة أساساً على السياحة الشاطئية وتهتمش الخصوصيات الثقافية للمناطق السياحية. وهذا العرض يستقطب فئة من السياح المحدودة الدخل والتي غالباً ما يتقلص لديها الاهتمام بالثقافة والوعي بالاختلاف الثقافي. كما أن جزءاً كبيراً منها ينتمي إلى فئة الشباب الذي قد لا يأخذ بعين الاعتبار بعض الخصوصيات الثقافية للمجتمع المحلي في بعض ممارساته وتواصله معهم. وفي هذا السياق يرى 75% من عينة البحث أن تأثير ثقافة السائح أقوى من ثقافته.

جدول رقم 5 : موقف السكان المحليين من تأثير ثقافة السائح على الثقافة المحلية

الإجابات المفقودة	المجموع	حسب رأيك أيهما أقوى؟		
		تأثير ثقافتك على ثقافة السائح	تأثير ثقافة السائح على ثقافتك	
5	88	22	66	التكرار
		25	75	النسبة

فالاعتماد على السياحة الجماهيرية يقلص من فرص حوار الثقافات وإبراز النقاط المضيئة في الثقافة المحلية التي يمكن أن تمثل عامل جذب للسياح قبل أن تجلب احترامهم في مرحلة لاحقة. إن هذا النوع من السياحة يضيّق على الثقافة المحلية وينتقل الحوار إلى حصار حين يأتي السائح مشحوناً مسبقاً بمشاعر التفوق الحضاري والثقافي.

الخاتمة:

لمهنة التنشيط السياحي قدرة تغييرية على ممتنها اجتماعيا وثقافيا سواء أكانت قارة أم موسمية. فاللقاء الثقافي أو حتمية "الحوار المأزوم"¹ بين المنشط الذي يمثل المجتمع المحلي والسائح بثقافته المختلفة غالبا ما يجعلان الطرف الأول الأكثر عرضة للتغيير بسبب مسك الطرف الثاني لجل مصادر القوة والهيمنة. هذا علاوة على وجود أرضية ثقافية مستعدة للتغيير وراغبة فيه، وأجهزة مناعة ثقافية هشّة وسريعة الذوبان والانصهار في كل وافد وغريب. أضف إلى ذلك ولعله السبب الأهم، الاعتماد على سياحة جماهيرية لا تركز على الثقافة كمنتوج سياحي قادر على المنافسة واستقطاب الحرفاء. هذه السياسة السياحية قلصت شيئا فشيئا من عدد السياح وخاصة الأوفياء منهم، وسببت تراجعاً في نوعيتهم، وهي النتيجة الأخطر لأنها السبب الرئيسي للانصهار الثقافي أو ما يسمى بالهوياتية والتعايش المهتز. فهؤلاء السياح لا يجدون في العرض السياحي ما يشير إلى هوية متجذرة وثابتة لأنه غير مخلص للمعطيات التاريخية والخصوصيات الثقافية المميزة للبلد المستضيف.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع باللغة العربية

1- حافظ بن عمر: "السياحة والتغير الاجتماعي في تونس دراسة استطلاعية وتحليلية في الآثار الاجتماعية والثقافية لتطور قطاع السياحة بالجنوب الشرقي"، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، تأطير أ. محمود الذواوي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2003.

2- حسين عبد الحميد رشوان: "التغير الاجتماعي والتنمية السياسية في المجتمعات النامية"، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1988.

1 مجدي فارح: "العرب والغرب في مرآة الآخر: الحوار المأزوم"، دار الفكر العربي، القاهرة، 2014، ص 3.

- 3- سعدون حمادي: "الثقافة العربية والتحدي، القومية العربية والتحدي"، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995.
 - 4- عبد الحميد الزنتاني: "مسؤولية التربية اتجاه التغيير الاجتماعي في ليبيا"، اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب، مطابع وزارة الإعلام والثقافة، طرابلس، 1968.
 - 5- عبد الرحمان أبو رباح: "السياحة العربية: أبعاد ومرتكزات"، منشورات الاتحاد العربي السياحي، 1975.
 - 6- عزت حجازي: "الشباب العربي ومشكلاته"، سلسلة عالم المعرفة، عدد 6، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985.
 - 7- فتحي ليسير: "نجع ورغمة تحت الإدارة العسكرية الفرنسية 1881-1939"، أطروحة لنيل شهادة التعمق في البحث في التاريخ، تحت إشراف أ. محمد الهادي الشريف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1991.
 - 8- لوريس الراعي: "التغير الاقتصادي في مجتمع بدوي"، ط1، جروس برس، طرابلس، 1987.
 - 9- مجدي فارح: "العرب والغرب في مرآة الآخر: الحوار المأزوم"، دار الفكر العربي، القاهرة، 2014.
 - 10- محمد فؤاد حجازي: "التغير الاجتماعي"، مكتبة وهبة، القاهرة، 1978.
 - 11- المنجي الزيدي: "الدخول إلى الحياة"، سلسلة آراء، تير الزمان، تونس، 2005.
- المراجع باللغة الفرنسية:

المقابلة أداة لفهم الواقع الاجتماعي الجزائري: ما بين الضرورة الإستيمولوجية ومجال لوجهات النظر؟ د.ناصر بودبزة/جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص:

يعد البحث العلمي في السوسيولوجيا من أصعب البحوث العلمية، وذلك راجع لقواعد البحث التي تتميز بالعمومية لطبيعة الظاهرة الاجتماعية، واجهت العلوم الاجتماعية انتقادات إبستيمولوجية من أمثال: بوبر وكوهن، غير إن المتفحص في هذه البحوث يجد أن أزمتهما في الباحثين الذين يسعون إلى ذاتية الموضوع، وذاتية الأداة، للبعد أكثر عن الموضوعية العلمية، كل هذا دفعنا إلى التفكير في تغيير الأداة وتحييد الذات أكثر، للفهم السوسيولوجي بعيدا عن التفسير الذي تريده الذات الباحثة، من خلال المقابلة بالفهم، والتأويل الموجه بالقراءات الأدبية حول الموضوع، والممارسة السوسيولوجية للباحث بعيدا عن الذاتية. نسعى من خلال هذا المقال إلى مساعدة طلبة علم الاجتماع على الخروج من حدود الذاتية للاستبيان والتحرر أكثر للذات الباحثة نحو طرح موضوعي وتأويل موضوعي.

الكلمات المفتاحية: المقابلة. الواقع الاجتماعي. سوسيولوجيا الفهم. المجال الاجتماعي. وجهات النظر.

تمهيد:

عرفت ولادة علم الاجتماع مد وجزر، حيث كانت مهمة الرواد الضفر بمكانة ما بين العلوم الأخرى، ومحاكاة مناهجها التجريبية وأدواتها، فجاءت أعمال دوركايم مبرزة الأهمية الأكاديمية لعلم الاجتماع، من خلال أعماله الانتحار، والتقسيم الاجتماعي للعمل...، وتطورت السوسيولوجيا وظهرت نظريات وأفلت أخرى، وما يلاحظ هو تنوع المقاربات السوسيولوجية المفسرة سواء على المستوى الكلي أو الجزئي، وما زاد في شك الباحثين هو تعدد مجالات التفاعل التي يعيشتها الأفراد، ما دفع بالباحثين في علم الاجتماع في بناء وحدات تحليل جديدة تتلاءم مع الواقع الاجتماعي المتغير، فكان الاهتمام موجه نحو البحوث الكيفية التي تمكنهم من متابعة ما يحدث في الحياة اليومية من آليات الإنتاج وإعادة الإنتاج، التي يمكن لها فهم تشكل العلاقات والتفاعلات داخل المجالات الاجتماعية، كل هذا دفع بالسوسيولوجيين لتنويع أدواتهم حتى يتسنى لهم الغوص في المجالات ورموزها ومعانيها وعلاقتها بالفاعلين، إن المقابلة كأداة علمية في العلوم الاجتماعية تختلف ما بين المقاربة السيكولوجية الإكلينيكية والمقاربة السوسيولوجية الفهمية، والتساؤلات التي تتبادر للأذهان هو هل المقابلة أداة علمية لميدان السوسيولوجيا؟ وماهي حدودها في فهم الواقع الاجتماعي للحياة اليومية من خلال حوار الذوات، الذات الباحثة والذات المبحوثة؟ وماهي حدود السوسيولوجيا في حديث أكثر منه إكلينيكي عن واقع اجتماعي؟ وإذا سلمنا بها كأداة لفهم الواقع الاجتماعي، هل هي كافية للنزول للميدان المشفر برموز ومعاني متشابكة المعالم؟ كيف يبني الباحث الموضوعية العلمية في ذاته وأداته؟ وكيف يتحرى الباحث السوسيولوجي الموضوعية في التأويل بعيدا عن ذاتيته؟

1- علم الاجتماع من التفسير إلى الفهم:

يرى دور كايم أن من وظائف عالم الاجتماع تشخيص ودراسة وفهم جوانب الحياة المختلفة كجوانب الاقتصادية، والدينية، والأسرية، والثقافية، والتربوية، والسياسية... الخ. إن الحقائق الاجتماعية أشياء خارجية تقيد سلوكية وعلاقات الأفراد، وتمارس عليهم قهر، ولا يبدلون الظواهر الاجتماعية، كاللغة، والدين، والزواج، والعادات والتقاليد الاجتماعية، لان الفرد منذ ولادته يجد نفسه محاط بأحكام وقوانين اجتماعية لا يستطيع تفسيرها أو التقليل من أهميتها، لا يستطيع الفرد انتقادها أو التهجم عليها أو الهروب منها، وعليه طاعتها، والاستسلام إلى أوامرها حتى يكون مقبول في جماعته، ويؤكد دوركايم أن الفرد يكتسب لغته، ودينه، وعاداته، وتقاليد، ومقاييسه، وطموحاته، من الجماعة أو الجماعات التي يحتك بها، ويتعامل معها، واكتسابه لهذه الظواهر والتجارب الاجتماعية، يكون من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية، التي يتلقاها من العائلة والمدرسة، والمجتمع المحلي، وكل هذه المصادر للتنشئة الاجتماعية تثبت في أخلاقه وقيمه، ومقاييسه، أين تتجسد له شخصية المجتمع الكبير، ويصبح ممثلا له تمثيلا حقيقيا، أين يعمل المجتمع من خلال جماعته المرجعية، في صب السمات الأساسية للشخصية للنموذجية لدى الفرد منذ نعومة أظافره، أين ينشأ الفرد وسط الجماعة والمجتمع المحلي، بحيث لا يستطيع التأثير فيهما أبدا، فالحقائق الاجتماعية لا يمكن تفسيرها إلا بالحقائق الاجتماعية¹.

¹ - إحصان عدنان : المدخل إلى علم الاجتماع ، ص ص 152-153

دراسة الواقع الاجتماعي:

هناك أربع مسلمات حددها كل من بوريل Burrell ، و مورقان Morgan وهي:

أولاً: يسأل الكثير من الباحثون، هل الواقع الاجتماعي خارجي عن الفرد، أي انه يفرض نفسه على ضمير الإنسان، و وعيه من الخارج، أم أنه نتاج وعي و ضمير الفرد؟ هل الواقع ذو طبيعة موضوعية أم نتيجة معارف الفرد؟ هل شيء موجود في العالم أم هو اختلاق عقل الفرد؟

ثانياً: هل من الممكن تحديد طبيعة المعرفة؟ المعرفة ليست جامدة، بل هي أكثر ليونة، ومرونة، و أكثر ذاتية، وروحانية، أو حتى أكثر غموضاً، و أنها تبنى على خبرة، و بصيرة ذاتية وفردية؟

ثالثاً: مسلمات خاصة بالعلاقة بين الإنسان وبيئته، حيث إن الإنسان بالنسبة للعلوم الاجتماعية هو هدف الدراسات، وهو وسيلتها، وهناك صورتان، الأولى أن الإنسان يتجاوب آلياً مع بيئته، والثانية ترى أن الإنسان له المبادرة لما يأتي من أفعال.

ومنه فالإنسان وخبراته نتيجة لتفاعله مع بيئته، أو أنه موجه بالظروف الخارجية، وبذلك من يأخذ بالمدخل الموضوعي، يدرس الظواهر على أنها مجموعة من الظواهر الطبيعية، جامدة، خارجة عن الفرد، أما إذا ركز على المنظور الذاتي في التكوين العالم الاجتماعية، وهناك يكون الفرد هو من يفهم ويفسر العالم الذي نعيش فيه.¹

الاجتماعي عند الاتجاه الفينومينولوجي:

يفرق "هرسل" بين الواقعي والمثالي في المعرفة، ولذلك داعي إلى استخدام الأدوات النقدية الممكنة، حتى ولو لم تكن منسقة مع أرائه الايجابية. كما يحدد "كترا" الاتجاه الاجتماعي في المنطق على أنه محاولة علم الاجتماع لجعل المنطق جزء منه، أو فرعاً تابعاً له، وهو بذلك يفرض على الفرد ويلقنه آراء و أحكام لها وظيفتان، فهي تكيفه من جهة لان يكون عنصراً في المجتمع، ومن جهة أخرى للتكيف مع الطبيعة وأحوالها، أي تقديم المجتمع للفرد أسلوب تكيف، كما تعتبر معتقدات الفرد هي نفسها معتقدات اجتماعية، وحتى الاستقلال الفردي والتفكير السليم ظاهرتان اجتماعيتان.²

إن الوجود نسيج من الواقع والإمكان يحاك على مر الزمان، سواء كان وجوداً مطلقاً أو وجوداً معيناً، وبذلك فغاية الوجود هي أن يجد ذاته وسط الوجود، ومن هنا وجب التساؤل حول ماهية الوجود وجوهره؟ وما هي الأشياء التي تنتمي إلى مجاله؟

- إن الوجود هو كون الشيء حاصلًا في نفسه مع أنه لا يكون معلوماً لأحد.
- إن الوجود هو الحقيقة الواقعية الدائمة أو الحقيقة، التي نعيش فيها، وهو بهذا المعنى مقابل للحقيقة النظرية.³

¹ - لويس كوهين ولورانس مانيون: مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ترجمة: كوثر حسين كوجك وليم تاووضروس عبيد، الدار العربية للنشر والتوزيع، ط1، مصر 1990، ص 25 إلى 27

² - يوسف سليم سلامة: الفينومينولوجيا (المنطق)، دار الفارابي، ط1، بيروت، لبنان، 2007، ص 279

³ - إبراهيم أحمد: إشكالية الوجود والتقنية عند مارتين هيدغر، الدار العربية للعلوم-ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2006، ص 22

ومن أجل البحث في الأصل نجد في الوعي الذاتي، الذي يمكن أن نقترح لفظ بين الفرد والمجتمع، من خلال أفق قادر على وضع تصنع موضوعي وتصنيف ذاتي، ومن أجل تحقيق هذه الخطوة، قام المؤلفون بتوسيع مفهوم علم الاجتماع المعرفة، وهذا ما دعى إليه "لكمان Lukmann" "بيرغر Berger" من خلال التوجه نحو البناء اليومي للواقع عبر معارف اعتيادية، في كل فرد يقوم بممارستها في المجتمع. إن الحياة اليومية تقدم على أنها واقع مترجم من طرف الناس، ويمثل لهم طريقة أو أسلوب ذاتي ونموذج متماسك، إلى جانب أنه يمثل عالم رمزي يساهم في بناء الإنسان، ومن أجل هذا يعيش الناس في عالم يتقاسمون فيه التصنيفات، التي تسمح لهم ببناء علاقات مع الآخرين عند التبادل من قريب أو بعيد.¹

الواقع الاجتماعي ما بين منهج التفسير ومنهج الفهم:

رفض بعض من علماء الاجتماع و جهة نظر الوضعيين القائمة على أن السلوك الإنساني تحكمه قوانين عامة، و أنه يتصف بقواعد قياسية و رقمية، و يؤكدون على أنه لا يمكن فهم العالم الاجتماعي إلا من خلال وجهة نظر الأفراد الذين يشكلون جزءا من الظاهرة المطلوب دراستها، لأنه كل إنسان مستقل بذاته و ليس نسخة بلاستيكية كما يراه الوضعيون. إن النظر إلى الإنسان من خلال ملاحظ موضوعي(خارجي) سمة التصقت بالبحوث التقليدية، و من أجل فهم الإنسان فهما جيدا، يجب على الباحث مشاركة هذا الإنسان ظروفه ومرجعياته، إن فهم كيفية تفسير الفرد للعالم من حوله، لا بد من أن يأتي من داخله وليس من خارجه.²

إن هدف علم الاجتماع هو فهم الواقع الاجتماعي كما يراه الناس على اختلافهم، وأن يبين كيف أن رؤيتهم لهذا الواقع تشكل أفعالهم، وحيث تغوص إلى ما وراء هذا الواقع، ومع القوانين والقواعد التي اخترعها ليسايرها كما يراه هو وكما يعنيه هو، ومع أن علماء الاجتماع لا يكتشفون الحقيقة المطلقة، غير أنهم يساعدوننا على فهم العالم المحيط بنا.³

ويمكن حصر الاتجاهات الفكرية المناهضة للوضعية في ثلاث اتجاهات وهي:

- مدرسة علم الظاهرات.

- مدرسة الطريقة العلمية في دراسة الفئات.

- مدرسة التفاعلية الرمزية.

وتشترك في اهتماماتها بالظواهر، أي بالأشياء التي يمكن إدراكها مباشرة من خلال الحواس أثناء حياتنا العادية اليومية، والتركيز على الطرق الكيفية في تفسير الظواهر أكثر من الطرق الكمية.⁴

¹ - Peter Berger et Thomas Lukmann: *La Construction Sociale de réalité*, ARMAND COLIN édition , paris ,2008,p69

² - لويس كوهين و لورانس مانيون: *مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية* ، الدار العربية للنشر و التوزيع ، ط1، لبنان، 1990، ص46.

³ - لويس كوهين و لورانس مانيون ، مرجع سبق ذكره ، ص48.

⁴ - المرجع السابق، ص51.

- إن اهتمام علم الظواهرات بسلوك الإنسان الذي يتحدد بخبراته، وليس بحقيقة موضوعية مادية خارجة عنه، ويمكن تلخيص النقاط التي يتفق أصحاب الاتجاه حولها: "كيرتس"
- الإيمان بأهمية وأولية الشعور والوعي الداني.
 - فهم الوعي على أنه هو الذي يمنحنا المعنى.
 - الادعاء بأن هناك تركيبات معينة أساسية للوعي.

ومن دراسة الظواهرات يجب التحرر من الأفكار المسبقة، وذلك من خلال ثلاثة عناصر تتداخل في هذه العملية وهي: الأنا الذي يفكر، والنشاط العقلي خلال تلك النظرة الفاحصة، والهدف وهو محاولة تذكير تركيبية الأشياء، والأحداث بطريقة متحررة عن المدركات السابقة والثابتة عن العالم.

أما شوتز اهتم بدراسة السلوك الاجتماعي دراسة علمية، واهتم بمشكلة تركيب فهمنا للعالم من خلال حياتنا اليومية، وفهم ما يدور حولنا من أحداث حيث يقول أن أصل المعاني يترسب في مجرى وعي الإنسان المستمر طوال حياته، وبطريقة أخرى يمكن القول بأن المعاني تظهر من خلال مفهوم انعكاس المعنى يتوقف على تحديد الفرد لما يسعى إليه من أهداف. وفي رأيه أننا نفهم سلوك الآخرين بناء على عملية تصنيف، أين يحاول الملاحظ أن يستفيد مما لديه من مفاهيم تمثل أنواع مختلفة للسلوك و في ضوءها يفهم سلوك الناس، وهي تتكون عند الفرد من خلال خبراته في الحياة اليومية، وبناء عليها نصنف ونرتب حياتنا اليومية.

كما يضيف كل من بوريل ومورقان أننا نتعلم التصنيفات من خلال ظروفنا الاجتماعية، بمعنى أن معرفتنا بالحياة اليومية موجهة بعوامل مجتمعية، و تمثل عملية تراكمية وميزة لعالمنا اليومي.¹

أما الاتجاه الاثنومثودولوجي فيرى ضرورة التشكيك في العالم الاجتماعي المدروس، كما أن فكرة الحقيقة الاجتماعية هي من ابتكار علماء الاجتماع الوضعيين و ليس لها علاقة بالواقع، لذلك يجب الاهتمام بالبحث في كيفية فهم الناس لعالمهم اليومي، وذلك من خلال فهم الآلية أو الطريقة التي يتصرف بها الفرد أو يتفاعل بها في محيطه الاجتماعي، وبذلك فهي تهتم بفهم الانجازات الاجتماعية للأفراد، و تقوم بدراسة الظاهرة من داخل الأفراد لا من خارجهم.

وفي دراسة موقف الأفراد تؤخذ بعض الأمور كواقع، وهي تلك المواقف التي يقوم بها الفرد ولأينا قشها ويعتقد الآخرون على أنها أفعال منطقية، ويستخدم أصحاب الاثنومثودولوجيا أساليب مؤشرات وانعكاسات، فالمؤشرات هي الطريقة التي تربط بها الكلمات والسلوك مع الظروف المجتمعية، والتي تتسبب في إحداث تلك الكلمات، وهذا السلوك، واتفاق المشاركين في الموقف الواحد على معاني تلك الكلمات والسلوكيات حتى و إن لم يعبر عنها بألفاظ محددة، أما الانعكاسات فهي العلاقات التبادلية بين كل مكونات الموقف الاجتماعي، سواء ظهر ذلك بالوصف أو التحليل أم النقد أم غيرها.

¹ - لويس ولورانس: مرجع سبق ذكره، ص 53.

ودراسة الفئات نوعان: الأول يهتم باللغة و تراكيب الجمل و العبارات في الحوار و المناقشات اليومية بين الأفراد، والثاني يهتم بالمواقف من خلال تحليل المحاورات و المناقشات و الكشف عن مضامينها، وهي تحاول فهم الطرائق أو الوسائل التي يتعامل لها الأفراد مع المواقف الاجتماعية، التي يتواجدون فيها، وكيف يتفهم الناس بيئتهم، وكيف ينظمون علاقتهم.¹

أما المدرسة التفاعلية الرمزية و التي تنطلق من مسلمات ثلاث و هي:

- 1- يسلك الأفراد اتجاه الأشياء حسب فهمهم معناها، لان الإنسان يسكن عالمين، عالما طبيعيا يعيشه بغرائزه و دوافعه ومحيط مستقل عنه، و عالما اجتماعيا، حيث توجد الرموز، كاللغة التي تعطيه صفة البشرية و الاجتماعية.
- 2- ربط المعاني بالأشياء هو عملية مستمرة، ليست سيكولوجية داخلية، ولا اجتماعية خارجية، بل هو نتاج مستمر لربط المعاني بالأشياء، والتي تتصف بالتغير وعدم الاستقرار، لان الإنسان يقوم بالمفاضلة بين ميزات و عيوب.
- 3- تتم عملية التفاعل الرمزي في إطار اجتماعي، والموائمة بين أعماله وأعمال غيره، من خلال توقع ردود أفعال غيره، وما ينبغي سلوكه في كل حالة، إلى جانب محاولة التحكم في انطباعات الناس عنه، من خلال التظاهر بصورة معينة ومحاولة التأثير في فهم غيره للظروف المحيطة بما يتفق مع فهمه لها. ولذلك يرى أصحاب هذا الاتجاه أنه بدل من التركيز على الفرد وخصائصه الشخصية أو تأثير البنية الاجتماعية على سلوك الأفراد، يجب التركيز على التفاعل كوحدة للتحليل والدراسة، لان المجتمعات تتكون من أفراد متفاعلون.²

إن قدرة الباحث على كشف الطريقة التي ترتبط بمقتضياتها المفردات التاريخية وتربط، وإدراكه القاعدة العامة التي تعد المفردات التاريخية حالات مماثلة لها، إن استخدام المفردات التاريخية بهدف الوصول إلى الدرجة القصوى من التعميم والتجريد، والتحرر من قيد الزمان والمكان، فلا تدرس المفردات لذاتها، وإنما يجري تناولها من حيث هي أمثلة لما هو عام، وللوصول إلى التعميمات، فالتعميمات تنتظر إثباتها على محك الزمن، أي في ضوء الأبعاد التاريخية. وعلى هذا الأساس فالتفسير التعاقبي وإن كان يستند إلى الشواهد التاريخية الملموسة، فهو يحرف معالمها، ويركز على إبراز الصور التاريخية المتطرفة، والتفسير التعاقبي وإن كان يتضمن الخصائص الجوهرية، فهو لا يعكس النسب والروابط الواقعية بهما، والتفسير التعاقبي يملك المستندات والوثائق المكتوبة، التي تؤكد صحة واقع تاريخي ما أو حدث تاريخي ما فهو ينحرف عن الخبرة الملموسة، ويحوي تضخيمها، ومبالغة في إظهار بعض الخواص، على حساب غيرها، ولا يملك أن يكون صادقا صدقا تجريبيا.

إن الحاضر نقطة الانطلاق التي يعتمد عليها، وأن يخرج المجتمع من خط التطور التاريخي، وتدرس الوقائع على أنها مفردة وفريدة، وكل هذا يؤدي إلى استخدام الأساليب الإحصائية، وعقد المقارنات الحسابية، وتحديد المتوسط الحسابي للخصائص المميزة لوحدة الدراسة، دون تضخيم أو تحريف أو تطرف، وتنظيم المعطيات المستندة إلى أسس واقعية من المشاهدة للواقع الاجتماعي، ومعالجتها، وتحليلها، وقياسها في ضوء القواعد المنطقية والرياضية و وضع التفسير الناتج عن هذه المعطيات.³

¹ المرجع السابق، ص 54.

² -المرجع السابق، ص 55-56.

³ -عبد الله ابراهيم: علم الاجتماع(السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب، 2006، ص 177-178.

أما التفسير التزامني يستند إلى درجة التكرار في الأنماط المشاهدة، التي يمكن أن يتكشف وجودها في الواقع الاجتماعي، ويتجه إلى تنقيح المشاهدات الحسية ضمانا لدقتها بواسطة أساليب حسية، ويعالج معطياتها ويحدد العلاقة بين المعطيات وعواملها ومتغيراتها، وينتهي باختبار حسي للتنبؤ التفسيري.

إن التفسير عند مستوى الملموس والواقعي والمعاش هو احتماليا فالمحددات لا متناهية والتفسيرات مختلفة ومتنوعة وكلها صحيحة لأنها موجودة بالفعل في الواقع الاجتماعي الملموس. أما الضروري في التفسير فيفترض منذ البدء حسم الإشكالية التالية: هل المجتمع هو عبارة عن جمع من الأشخاص الأحرار يتصرفون وفق دوافعهم الداخلية أم أن المجتمع بأشكاله وظواهره وتجمعاته وأفراده وجماعته هو نتاج لروابط بنيوية ضرورية مستقلة عن دوافع الأفراد والجماعات؟ يؤكد علماء الاجتماع على مبدأ الحتمية، هذا المبدأ أصبح اليوم أمرا مسلما به في العلوم الفيزيائية والبيولوجية، ولم يصل إلى هذه المرتبة بالنسبة إلى علوم الاجتماع، فهو يواجه بالتصورات التقليدية لعالم اجتماعي محكوم من قبل قوى غيبية لا تتغير، لكن هذه التصورات فقدت من فعاليتها في البلاد التي نمت فيها الرأسمالية، لان لها اديولوجياتها، فالمجتمع عبارة عن جمع من الأفراد الأحرار الذين لا يتعرضون إلى ضغوط بنيوية ويتصرفون بتأثير من دوافعهم الداخلية.¹ ما يسميه "الكوت بارسونز" بالمعايير، فالعلاقة بين الوقائع الاجتماعية والروابط في علاقة متميزة تتم على مستويات مختلفة وبهذا المعنى، يمكن لتفسيرات معينة على مستوى من مستويات المعالجة (الثقافة، الدين، الدخل، العمل،...) أن تشكل ظواهر على مستوى آخر تتطلب التفسير بدورها، وبهذا المعنى أيضا تخترق الروابط الضرورية مستويات الواقع الاجتماعي، وتوجه الرؤية في اتجاه تفسيرات معينة دون غيرها.² وعلى أساس هذا التحديد للاحتمالي والضروري في التفسير، يبرز الخطأ الكبير الذي يتمثل في الخلط بينهما، ونفي مبدأ الضروري من خلال الاكتفاء بالتفتيش عن معطيات محسوسة يمكن التحقيق منها إحصائيا إن الإحصاءات والأرقام والنسب والمعدلات حل منهجي ملائم، كأن يسعى إلى التفسير عن طريق معرفة درجة التكرار والتعداد في الوقائع والمعطيات المحسوسة، وهنا ينطلق الباحث من فرضية تفسيرية ويصل في الأخير إلى أن التفسير الذي انطلق منه تفسير صحيح والدليل على ذلك معطيات كمية ونسب تؤيد ما توصل إليه³، فتتحول روابط العالم الاجتماعي الضرورية إلى علاقات إحصائية غير كاملة، وضمن هذا الإطار، تتم ملاحظة الإفراط في الاعتماد على القياس الكمي.⁴ تتميز البحوث في علم الاجتماع بأنها بحوث وصفية تفسيرية أو كليهما، وتهدف البحوث الوصفية إلى اكتشاف الوقائع وعرضها أو وصف العمليات الاجتماعية، أما البحوث التفسيرية تسعى إلى تقديم أسباب سوسيولوجية لحدوث شيء ما، وفي بعض الأحيان تصنف مسوح الاتجاهات كنوع ثالث من أنواع المسوح، وذلك لأنها يمكن اعتبارها بحوثا وصفية مع أن ما تحاول وصفه هو الآراء الذاتية وليس الوقائع الاجتماعية العينية.⁵

1 - المرجع السابق، ص 261.

2 - عبد الله ابراهيم، مرجع سبق ذكره، ص 262.

3 - المرجع السابق، ص 263.

4 - المرجع السابق، ص 262.

5 - مصطفى خلف عبد الجواد: قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، د.ط، مصر، 2002، ص 87.

غير أن ماكس فيبر يرى في السوسيولوجيا علم يسمح للمشتغل به بفهم الفرد وفهم العالم وفهم طبيعة الأشياء كما هي وليس كما نريد أن نراها، لذلك اعتمد على منهج الفهم من خلال التفسير، ويعتمد هذا المنهج على فهم الظواهر في إطارها الاجتماعي وبعد ذلك تفسيرها، إن التفسير الفهمي يعني متابعة ومراقبة الدوافع التي تساهم في إنتاج نشاط معين، لذلك يجب متابعة الأفراد المتوقعون في أطر فكرية ودينية، كما يؤكد فيبر أهمية المنهج (الإسناد السببي) في فهم الإطار النفسي وفهم جوهر الظاهرة الاجتماعية، ومن هنا يمكن استخلاص ثلاث نقاط تفسر السوسيولوجيا الفهمية وهي: الفهم التفسيري، والإسناد السببي، وأهمية المعنى. ومن أجل توكي الدقة العلمية استعمل ماكس فيبر النماذج كوسائل وليست غايات، ووظيفتها الإسناد الافتراضي لتطور مثالي، أي جعل الفكر أكثر قرب من المنطق، وتعد النماذج إطار محدد لحركة الفاعلين في الواقع المعاش، الذي يضم آليات تساعد على فهم معنى الفعل الاجتماعي.¹ إن علم الاجتماع الفهم هو علم الاجتماع الذي يهتم بالخصوص بالمعنى الذي يعطيه الناس أو المنظمات لممارساتهم وحضورهم. حيث يهتم علم الاجتماع التفهيمي بفعل الفرد، وهو فعل يكون اجتماعيا بمقدار ما يكون متعلق بسلوك الأخر، وموجها بالقياس إليه في تنفيذه، ومن خلال الدلالة الذاتية التي يعطيها الأفراد لأفعالهم، فالفعل الفردي يأخذ في الحسبان سلوك الآخرين و يتأثر به.

ويرى "ماكس فيبر" أن الفعل هو أن تكون في وضع فريد لم تكن ترغبه داخل وضع اجتماعي ليس في إمكانك أن تتخلص منه، وهكذا يفترض فيبر نظرية في الجمعنة (التنشئة) تتيح فهم علم الاجتماع الفعل، علمه هو، باعتباره علم فاعل مجمعن وعلم ممأسس.⁽²⁾

أعطى فيبر فكرة الفهم بعدا جوهريا، توصل إليها من التصور القائم على الاعتقاد بأن الظواهر الاجتماعية تنتج من النشاط الذي ينطوي على معنى موجه من قبل الفاعلون في عمل معين أو علاقة معينة، (الوعي أمر فردي) لان فهم الدلالات الاجتماعية التي يصنعها ويتبادلها الفاعلون لا يمكن أن يتم إلا من خلال فهم الفعل ذاته. والأفكار المسبقة تعد أحكام موضوعية نهائية تشكل جزء من مصادر التأويل التي لا يمكن التنازل عنها، لأنها تمنح معنى للظواهر الاجتماعية.

إن الفهم يتطلب ثقافة شخصية، مع توظيف مصادر المعرفة الواسعة، لان الفهم يكون من خلال المشاركة، وحتى تفهم كيف يصنع الفاعلون العالم عليك أن تدخل إلى عالمهم، وتحدد المعنى الذي يقصده الفاعل ذاتيا، بعيدا عن استبداله بمعنى يعيد تركيبه المراقب موضوعيا، إن تفسير المعنى المقصود يتطلب نموذجا سماه فيبر بالنموذج المثالي.³ فهمة سوسيولوجيا الفهم ليس وضع القوانين الثابتة والمحددة والنهائية، كما هو في العلوم الطبيعية، بل تفسير الظاهرة الاجتماعية، التي تتصف بسمة

1. اكرام عدني: سوسيولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر، منتدى المعارف، ط1، بيروت، لبنان، 2012، ص 29.

2- لوران فلوري: ماكس فيبر، ترجمة: محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، لبنان، 2008، ص 27.

3- المرجع السابق، ص 30.

واضحة ودائمة قابلة للفهم، ولذلك يتمثل دور عالم الاجتماع في محاولته فهم معاني الظواهر ومدلولاتها في إطار السعي لتفسيرها،¹ إن فهم الفرد المبحوث ما هو إلا أداة، وهدف عالم الاجتماع هو فهم و تفسير الاجتماعي.²

المقابلة أداة للفهم السوسولوجي:

تعتبر المقابلة من أدوات جمع البيانات في البحوث النوعية، فمن خلالها يستطيع الباحث، أن يتعرف على أفكار الآخرين ومشاعرهم، ووجهات نظرهم، ليتمكن الباحث من إعداد بناء الأحداث الاجتماعية، التي لم تلاحظ مباشرة، والمقابلة طريقة جيدة لجمع المعلومات، والبيانات حول المشكلة التي نريد دراستها، من فرد أو عدة أفراد، أو حتى مجموعات وهي نوع من الحديث الهادف، وله غرض محدد، يقوم الباحث بإجراء المقابلة للحصول على معلومات لها علاقة ببحثه، كذلك تهدف للتعرف على ملامح أو مشاعر، أو تصرفات الآخرين في مواقف معينة.

وتعد المقابلة أكثر أدوات جمع البيانات السوسولوجية استعمالاً، لأنها تعتمد على التفاعل اللفظي بين الباحث والمشاركين بالبحث،³ وهي التي تمكن الباحث من أن يسبر أغوار مشاعر فرد معين تجاه ظاهرة اجتماعية معينة، وجوانب تعريفه بها، و كيفية ربطه لها بمجالات أخرى في حياته الاجتماعية، حيث يكشف المبحوثين عن أحكامهم بشأن اتجاهات الآخرين، وكيف تؤثر هذه الاتجاهات على اتجاهاتهم الخاصة، و سلوكهم الخاص، ويمكن التعرف من خلال المقابلة على الذكريات المتعلقة بالأحداث الماضية (بيانات استرجاعية)، وتستخدم المقابلة للحصول على تفاصيل أكثر، لا يمكن الحصول عليها من خلال أسئلة الاستبيان المقننة.⁴

الإجراءات العملية للمقابلة:

1. تحديد الموضوع: ويعني ذلك المواضيع، والأسئلة التي تسمح لنا بجمع البيانات، وتسجيلها، ومعالجتها وفقاً للمنهج الكيفي.
- 2- اختيار الأشخاص المستجوبين: وهم الأشخاص المؤهلين لإعطائنا معلومات حول الموضوع المحدد، والتعرف على وجهة نظرهم وأرائهم، التي يريدون التعبير عنها، أو يستعطفون استحضارها وتجميعها حول الموضوع.
- 3- تحديد شكل المقابلة: بعد تحديد الموضوع، والأشخاص المستجوبين، نقوم بإتباع شكل من المقابلة وفقاً للمؤشرات التالية:
 - أ- درجة الصياغة (البنية) قد تكون في ثلاثة أشكال: بنية - نصف بنية - لا بنية
 - ب- شكل الاتصال يكون: مباشر - بالهاتف - عبر الانترنت
 - ج- إطار المقابلة (مقابلة فردية - مقابلة بالمجموعة)
 - د- العدد الإجمالي للمستجوبين.

¹ -سعید ناصر: نظرية الفعل الاجتماعي لدى ماكس فيبر، مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية، العدد السابع، 2001، ص 368.

² _ Jean Claude Kaufmann : L'enquête et ses méthodes l'entretien compréhensif, ARMAND COLIN, 3 édition , paris , 2011,p24

³ -ماجد محمد الخياط : مرجع سبق ذكره ، ص 260

⁴ -محمد الجوهري : طرق البحث الاجتماعي ، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ، ط 1 ، القاهرة ، مصر ، 2008 ، ص ص 145-146.

هـ- عدد الأشخاص الذين يقومون بالمقابلة (شخص - واحد بعد واحد)

أما فيما يخص درجة البنية (الصياغة)، هناك ثلاثة أنواع:

أ- صياغة: تدرج في المحتوى وعدد الأسئلة، دون تحديد مسبق.

ب- نصف صياغة: وتعد الأكثر عملية في المقابلة، تقوم على أساس دليل، يضم مجموعة نقاط دالة يعتمد عليها الباحث.

ج- دون صياغة: الأسئلة و تدرجها غير محدد¹.

4. بناء دليل المقابلة: تحتاج المقابلة إلى دليل لينظم الباحث ويوجهه ويقوده، وكذلك من أجل التحقق من الأسئلة على أنها قابلة للإجابة، ولا تعجز المستجوبين.

- طلب المشاركة: يشرح فيه الباحث طبيعة الموضوع والأسئلة، وعلى أنها عمل علمي، و تبقى كل أجوبة المبحوثين سرية.

5. تسجيل ومعالجة البيانات: قد يستعمل الباحث جهاز تسجيل صوتي، أو صوتي مرئي، أو حتى عن طريق المشافهة، وذلك من خلال مراجعة وإكمال ما نقص، بعد كل مقابلة مباشرة، وبسرعة، وتحليل المعطيات الكيفية، وقبل ذلك عرضها على المستجوب للتأكيد².

المقابلة محادثة بين الباحث والمبحوث، يعبر فيها المبحوث بكل حرية عن آرائه وتمثلاته حول المحاور المطروحة في دليل المقابلة، تستعمل المقابلة لمعرفة الممارسات المختلفة للمبحوثين السياسية، والممارسات الدينية، والممارسات اليومية، والممارسات الثقافية والتربوية، لكشف التلاحم ما بين الممارسات والآراء³.

وقد تم اللجوء إلى المقابلة شبه الموجهة « semi directif » والتي تعد الأكثر انتشارا في البحوث السوسولوجية المعاصرة، حيث استخدمها بيار بورديو في بؤس العالم، حيث تعتمد على دليل مقابلة يشكل إستراتيجية لسير المقابلة⁴، وتستخدم المقابلة نصف الموجهة عندما لا نمتلك معلومات بالقدر الكافي عن ميدان البحث، ولهذا يتم الاعتماد على قائمة من الموضوعات المتصلة بمشكلة البحث، ونلجأ للمقابلة نصف الموجهة لجملة من الأسباب وهي كالاتي:

1. للإحاطة بتمثلات المبحوثين.

2. لطبيعة العينة المنتقاة، وهي عينة غير احتمالية مناسبة للمقابلة، والتي تهدف بدورها لجمع معطيات نوعية حول الموضوع، ولا تحتاج إلى احتمال التكرار⁵.

¹- Qualitatentwicklungin Pravention und Gesundheits forderung, **Entretien** , quint-essenz , version: 1.6/14-10-2003 P01

²_ Ibid P 02-03

³_Stéphane Beaud et Florence weber: **Guide de l'enquete de terrain**, Editions la Découverte, paris,2010,191_192.

⁴_ Mayer Nonna: **l'entretien selon pierre Bourdieu, analyse critique de la misère du monde**, in: revue francaice de sociologie,1995,p359

⁵ سعيد سبعون و حفصة جرادي: الدليل المنهجي، في إعداد المذكرات والرسائل الجامعية في علم الاجتماع، دار القصة للنشر، الجزائر، 2012، ص175.

3. طبيعة البحث الكيفي الذي يركز على مبدأ التشبع بالمصادر، أي الوصول إلى عدد كافي من العناصر لإنشاء عينته، والتحكم أكثر في مرحلة التحليل، وهناك من يعتمد على حالة أو أكثر حسب طبيعة الموضوع.

إن الممارسة السوسيولوجية تبنى على الجانب المفاهيمي (المقاربة النظرية) والجانب الميداني، من أجل التفسير أو الفهم، وذلك من خلال تفسير الاجتماعي بالاجتماعي، وفهم أفعال الفرد من خلال المقابلة، فبيار بورديو في كتابه "بؤس العالم la misère du monde" تطبق المقابلة شبه الموجهة لمعرفة التمييز الذي يعيشه المجتمع الفرنسي بكافة اثنياته وشرائحه.

إن دور الباحث في علم الاجتماع، يتطلب اليقظة العلمية، وعدم الانجرار وراء الأفكار المسبقة، ورموز مجاله الذي جاء منه، لأن الممارسة السوسيولوجية تقتضي على البحث عن العلاقة بين المعاني والرموز، بين الكل والفرد، بين السلطة والأفراد، بين آليات الهيمنة والمهيمن عليهم، من خلال المقابلة تنتج علاقة بين الباحث والمبحوث، وهذه العلاقة التي لا يمكن توقع مجراها ولا نتائجها، فهي تمثل حقل تأثير وتأثر بين الباحث السوسيولوجي والظاهرة المبحوثة ممثلتا في ما يعيشه المبحوثين، لهذا يدرس الحقل بقطيعة إبستمولوجية وحيادية، كما أن المبحوث يعيش الأزمة في مجاله الاجتماعي، ويصعب عليه التعبير عن ما يراه وما يستطيع وصفه وفهمه، للآخر الباحث، كما أن لغته قد تكون صمت طويل لسبب أو لآخر، يهدد عمر المقابلة، ينتهي بالباحث خارج المجال. لهذا أقام بورديو جملة من الإجراءات المنهجية والعلمية، والأداء الجيد للباحث، الذي يجب أن تتوفر الانعكاسية، وهي ممارسة قواعد الموضوعية على ذاته من خلال تحليل الخطاب تحليلًا انعكاسيًا ذاتيًا، فهي شرط أساسي لموضوعية البحث في العلوم الاجتماعية، وهنا الباحث يكون له رد فعل دائم الحضور، مؤسس على تمرس مهني وعلى نباهة سوسيولوجية معرفية كرقيب يكشف ما هو خفي، لتكون له السيطرة على الحوار عقلا وضمنا تحليل اجتماعي عميق لدلالات الإجابات.

إن العلاقة بين الباحث و المبحوث تتخللها صعوبة ولوح المجال الاجتماعي للمبحوث، وما يزيد تعقد العلاقة هو إن الباحث فردي في طريقة حوار وأسلوبه الذي يريد فردة على المبحوث وهذا يشكل عنف رمزي.

إن اختلاف الرأسمال الثقافي والرأسمال اللغوي والرأسمال الرمزي والذي بدوره يؤدي إلى فوارق طبقية وهوياتية، لذلك وجب على الباحث الفهم الداخلي لمنطق الكلام وإعطائها المعنى الموضوعي في حضور المعنى الذاتي، في حوار موجه، غير متسلط ولا محدد للإجابات.

إن وعي السوسيولوجي بأهمية الحوار يحتم عليه تبنى لغة و خطاب المبحوث، لكي يتمكن من دخول مجال المبحوث لوقت كافي، ويسترس المبحوث في جو من الثقة، وهذا ما يدفعه إلى عدم إظهار الاختلافات بينه وبين المبحوث في رؤوس الأموال، ويفضل بيار بورديو أن يكون الباحث المحاور من أفراد يشتركون في المجال الاجتماعي ويعيشون أوضاعهم، ويبدأ نجاح المقابلة من خلال عمل مضني ومستمر، وعميق الرمزية والمشاعر والدلالات اللغوية والإشارات، حيث يتم تسجيل كل جزئية بحرفية ودقة، باعتبارها حالة تواصلية أصيلة.¹

¹ . http://nuggetsofculture.blogspot.com/2014/12/blog-post_63.html بلوح إبراهيم ، هكذا تحاور بورديو...

ويسعى الباحث لفهم المعاني من خلال محادثة مباشرة، وهذا تحول في البحث السوسولوجي من سوسولوجية التفسير إلى سوسولوجية الفهم، وهذا ما أكده جون كلود كوفمان **jean claude kaufmann** من خلال أداة المقابلة التي تهدف إلى الفهم وعرفها في كتابه (المقابلة الفهمية، 2011) «على أنها مقابلة تجرى من خلال دينامية عكسية: ينطلق الباحث بكل نشاط في الأسئلة، من أجل إثارة المبحوث وتعتمد على تحليل المحتوى لتحليل البيانات»، كما يشير كوفمان أنه يتوجب على الباحث عدم إطلاق أي اتجاهات لها خصوصية لدى المبحوث، والتي تجعله حذر من الدخول في المقابلة، أي إذا كانت الأسئلة شخصية تكون الإجابات شخصية¹.

تعتمد المقابلة نصف الموجهة على دليل مقابلة "Guide d'entretien" وهو مجموعة أسئلة مسجلة قبل بداية المقابلة، تضم المواضيع و المؤشرات الدالة على مواضيع المشكلة، تعالج بكل بساطة ويتم تقسيمها و تدقيقها، بتعابير مفصلة وواضحة، حيث تكون أسئلة الدليل متسلسلة منطقيا، غير أن هذا التسلسل لا يعني تحديدها، لأن المقابلة تتبع دينامية خاصة². ويرى كل من ستيفان بو **Stéphane Beaud** وفلور انس فيبير **Florence Weber** إذا كنا مهتمين بدراسة الممارسات الثقافية، يجب أن نهتم أكثر بالمسار التعليمي للمبحوثين وآبائهم، ذلك من أجل فهم ظاهرة النقل والتخصيص الثقافي³.

6. تحليل المحتوى وتأويل المعطيات: يعرف برسلون تحليل المحتوى على أنه تقنية بحث من أجل الوصف الموضوعي والمنتظم والكمي للمحتوى الظاهري للاتصال، ونستعمل تقنية تحليل المحتوى من أجل المعطيات النوعية، التي تم جمعها عن طريق المقابلة أو الوثائق المكتوبة أو المسموعة⁴.

وحسب نموذج " برسلون " يقسم الفئات إلى قسمين وهما: فئات المحتوى، وفئات الشكل. وقد تم اختيار فئات المحتوى لأنها تجيب عن السؤال ماذا قيل؟ وفئات المحتوى هي ست فئات وهي: فئة الموضوع، فئة الاتجاه، فئة القيم، فئة الوسائل، فئة الهدف، فئة المرجع.

ففي فئة الموضوع يقوم الباحث بتحليل المحتوى المواضيعي **Thématique** بتحليل محتوى المقابلات بالتركيز على موضوع أو مواضيع محورية، مرتبطة بفرضيات البحث في شكل عرض وصفي، من خلال تقطيع نصوص المقابلات، وتكون وحدة التقطيع هي الموضوع الذي يمثل جزء من المقابلة، ويكون التقطيع بكيفية داخلية. إلى جانب ضرورة فهم الاجتماعي بالاجتماعي، أي فهم ظاهرة اجتماعية بظاهرة اجتماعية أخرى، والتأويل يبني على ما يمتلكه الباحث من رأسمال ثقافي مفاهيمي سوسولوجي، وتوظيفه من خلال تحليل البيانات، وإعطاء المعطيات المتحصل عليها معنى، لأن المعطيات لا تتكلم

¹ Jean Claude Kaufmann

: l' ENTRETIEN COMPREHENSIF, Armand Colin , paris,2011,p p18,19

² _ Jean Claude Combessie: **La Méthode en Sociologie**, CASBA ÉDITIONS, Alger, 1998, p 25

³ - _ Stéphane Beaud et florence weber ,Op .sit ,p 228

⁴ . سعيد سبعون وحفصة جرادي: الدليل المنهجي في إعداد المذكرات والرسائل الجامعية في علم الاجتماع. دار القصة للنشر، الجزائر،

وحدها¹. وهذا ما يؤكد أن بلونشي Alain Blanchet، وأن غوتمان Anne Gotman، أن التحليل المواضيعي l'analyse thématique هو تقطيع المقابلات في مجرى موضوعات المقابلة، من أجل إعادة بناء البنية الفردية، إن فردانية الخطاب يتم تقطيعها عرضيا من مقابلة إلى أخرى حسب كل موضوع، ويستبعد المنطق الفردي للمقابلة، ونبحث عن المنطق المواضيعي thématique ما بين المقابلات، واستبعاد العناصر الدالة وفي شكل كيس مواضيع، أين نقضي نهائيا على البنية الإدراكية والوجدانية للأشخاص الفرديين، إن التحليل المواضيعي هو ترابط بين بدء تنفيذ النماذج التفسيرية للممارسات أو التمثلات². وحسب كل من ريمون كوفي و لوك فان كمبهود فإن مناهج تحليل المضمون تستخدم إجراءات تقنية دقيقة نسبيا (كحساب التكرارات النسبية أو المتوارد من العبارات المستعملة)، إلى جانب فهم الدلالات الاجتماعية لعمل اللغة³.

7. قواعد بناء دليل تحليل المقابلة: إن التعرف على المواضيع وبناء دليل التحليل يجسد انطلاقا من فرضيات البحث، والتي يتم تعديلها بعد قراءة المقابلات وإجراء التكرار ما بين الفرضيات والدليل⁴. حسب فليب كونبيسي Philippe combessie أن منهجية تحليل المقابلة، وفق فئة الموضوع، تمر بعدة مراحل أساسية للتحليل وهي: عزل الوحدات الموضوعية. Les unites thématiques

1. اختيار لكل وحدة كلمة مفتاحية أو تعبير دقيق. les mots clefs.

2. ضرورة الكتابة على هامش كل مقطع، وإحاليته بالتدقيق. (رقم المقابلة. رقم الصفحة. رقم السطر). les references.

3. تقطيع الملخصات والتعليق الهامشية، وترتيبها في ملفات مواضيع متصلة. découper.

4. تصنيف مختلف الوحدات إلى مواضيع، ومواضيع جزئية ومواضيع جزئية صغيرة. regrouper.

إجراء هذه المقابلات وسلطة في عملية التفاعل:

للولصول إلى المعلومات، ينبغي على الباحث نهج أسلوب محادثة دون الانغماس في محادثة حقيقية: فالمقابلة هي عمل يتطلب جهدا من الجميع، المخبر يجب يشعر أن كل ما يقوله هو كلام من ذهب للمحقق، وأنه يتابعه بصدق، لا يتردد في التخلي عن دليله للتعليق على معظم المعلومات التي سلمت لفترة وجيزة جدا. ولا يفاجئه فالمخبر يجب أن يشعره بأنه يستمع بعمق وأنه ينزلق بسلاسة ومتعة، وهذا الدور المحوري له: انه لم يتم سؤاله عن رأيه ولكن لأن كلامه يحتوي على قيمة، نعلم أن المحقق لا يسيطر على كامل اللعبة، ولكنه يدير تبادل لإيجاد توازن بين الدورين قويين ومتناقضين. والمخبر يفهم انه إذا كان بغوص أعمق في نفسه، وتمكنت من التعبير عن مزيد من المعرفة، فإنه يعزز سلطته في التفاعل.

إن المتحدث في كلامه لا يقتصر على تقديم المعلومات بل يدخل في عمل حول نفسه، لبناء وحدة هوياتية، وهو مباشرة يواجه الباحث، في مستوى من الصعوبة والدقة يفوق بكثير ما يفعل عادة⁵.

¹ المرجع السابق، ص 268.269

² _Alain Blanchet et Anne Gotman : l'enquête et ses méthodes L'ENTRETIEN, ARMAND COLIN , 2edition, paris,2013,p96

³. ريمون كوفي و لوك فان كمبهود: دليل الباحث في العلوم الاجتماعية، يوسف الجباعي، المكتبة العصرية، لبنان، 1997، ص 265

⁴ _Alain Blanchet et Anne Gotman, Op.cit,p96

⁵ Jean Claude Kaufmann: L'ENTRETIEN COMPREHENSIF Ed. Nathan Université (collection 128)pp48_60

الهدف المرجو من التحليل: يتمثل الهدف النهائي من التحليل في إبعاد المنطق الذي يوحد مختلف المواضيع، والمواضيع الجزئية، والتي تثبت الروابط ما بين:

- ✓ الممارسات (التي يمكن التقرب منها عن طريق ملاحظة ميدان البحث)
 - ✓ الخطابات حول الممارسات.
 - ✓ التمثيلات (التي يبينها عالم الاجتماع انطلاقا من تحليل الممارسات، والخطابات حول الممارسات)
 - ✓ المكانات في المجال الاجتماعي، التي تمت فيها المقابلات، وجمع المعطيات.
 - ✓ المسارات (داخل وخارج المجال الاجتماعي) وكل هذا بالنسبة لكل فرد مبحوث.¹
- التأويل بين الذاتية والموضوعية:

إذا اقتصر الباحث على الأسباب التي ساقه إليها المخبر، وقال انه لا يجب أن يقوم بإجراء عمل نظري. وأنه لا يجب أن يأخذ المخاطرة في التأويل، إن وضعية التأويل هنا تكون متناقضة. بل هو في الواقع مبني على أساس ذاتية الباحث وبعيدا عن الموضوعية، إن بناء موضوع سوسولوجي يكشف عن حدود المعرفة العفوية، غير أنه لا ينبغي اتخاذ هذا التناقض إلى أقصى الحدود، لكي لا يؤدي هذا الاعتقاد بأن خيال الباحث موجود معناه أن العلمية موجودة إلى حد بعيد، لأن التأويل نادرا ما يستند فقط على قناعة شخصية ومحض خيال: بل هي بحاجة لها علاقة بدليل التحليل والفروض. إن الجمل الأكثر معنى سوسولوجي هي الجمل العابرة والتي لها ولوج إلى كل شيء، مثل التعابير المتكررة دائما في إطار عمل وصفي: فهي تشير إلى وضع العلامات الاجتماعية، على الرغم من محدوديتها على مستوى الرأي العام. وبالنسبة للباحث الوسيلة المفضلة للانفعال في سماع قصة جميلة جدا، هو تحديد للتناقضات في الخطأ، أي أنها تبين له وجود منطق مختلف بمجرد تحديدها، سوف يعطيه مجالا واسعا، ومفتاح للتأويل: تستطيع بفضلها، تفكيك قصة وتعطي المعنى الدقيق لمختلف مكوناتها².

1. Philippe combessie : **socio anthropologie du monde contemporain** ; université de paris ouest , nanterre, p 01,02

2. Jean Claude Kaufmann:OP , cit ,pp92_98

في آخر هذا المقال يمكن أن نؤكد على أن استعمال المقابلة في البحوث الأكاديمية في الجامعة الجزائرية قليل، نجده في بعض المذكرات والأطروحات خاصة في جامعة الجزائر، ويغيب في جامعات الشرق والغرب الجزائري، أين نجد استمارة الأسئلة أو صحيفة الاستبيان، أين تنتهج هذه الدراسات البحث الوصفي الذي لازم البحوث العلمية في السوسيولوجية الجزائرية، وهذا ما أثر على طبيعة المواضيع المبحوثة، التي كانت تهتم بالشمولية في الطرح، وغاب عنها الطرح السوسيولوجي للفرد، وهذا ما تم الإشارة إليه في مقال سابق حول وحدة التحليل، وكان بعنوان الممارسة السوسيولوجية في الجزائر: بين سوسيولوجيا التفسير وسوسيولوجيا الفهم، منشور في العدد التاسع بمجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية بجامعة البليدة، لهذا نسعى في مخبر الهوية بجامعة ورقلة إلى إرساء معالم جديدة، من خلال محاكاة أساليب جديدة وتوطينها لفهم الواقع الاجتماعي الجزائري المتغير، لتمكن من بناء نموذج للمحاور في مجتمعنا الذي يصعب ولوج حوار فعال فيه، يعود إلى عدم ضبط المجالات الاجتماعية التي يتفاعل فيها الفرد الجزائري، وخصوصية كل مجال، والأساليب التي تساعد على حوار عقلائي، موضوعي، حيادي بعيدا عن الحياة العاطفية و القرابية، مما يسمح باستقراء الواقع المجتمعي في الجزائر.

قائمة المراجع:

- إحسان عدنان : المدخل إلى علم الاجتماع .
- لويس كوهين ولورانس مانيون : مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية ، ترجمة: كوثر حسين كوجك وليم تاوضروس عبيد ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، ط1، مصر 1990.
- يوسف سليم سلامة : الفينومينولوجيا(المنطق) ، دار الفارابي ، ط1، بيروت ، لبنان ، 2007.
- إبراهيم أحمد : إشكالية الوجود والتقنية عند مارتن هيدغر ، الدار العربية للعلوم-ناشرون ، منشورات الاختلاف ، ط1، الجزائر، 2006.
- ريمون كيبي و لوك فان كمبهود: دليل الباحث في العلوم الاجتماعية، يوسف الجباعي، المكتبة العصرية، لبنان، 1997.
- لويس كوهين ولورانس مانيون: مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، ط1، لبنان، 1990.
- عبد الله ابراهيم: علم الاجتماع(السوسيولوجيا) ، المركز الثقافي العربي ، ط2، المغرب ، 2006.
- مصطفى خلف عبد الجواد :قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، مطبوعات مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية ، د.ط، مصر، 2002.
- اكرام عدني: سوسيولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر، منتدى المعارف، ط1، بيروت، لبنان، 2012.
- لوران فلوري: ماكس فيبر ، ترجمة:محمد على مقلد ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1، لبنان ، 2008.
- سعيد ناصر:نظرية الفعل الاجتماعي لدى ماكس فيبر، مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية،العدد السابع، 2001.
- محمد الجوهري : طرق البحث الاجتماعي ، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ، ط1 ، القاهرة ، مصر.



سعيد سبعون و حفصة جرادي: الدليل المنهجي، في إعداد المذكرات والرسائل الجامعية في علم الاجتماع، دار القصة للنشر، الجزائر، 2012.

. http://nuggetsofculture.blogspot.com/2014/12/blog-post_63.html بلوح إبراهيم ، هكذا تحاور بورديو...

. سعيد سبعون و حفصة جرادي: الدليل المنهجي في إعداد المذكرات والرسائل الجامعية في علم الاجتماع، دار القصة للنشر، الجزائر، 2012.

_ Alain Blanchet et Anne Gotman : **l'enquête et ses méthodes L'ENTRETIEN**, ARMAND COLIN , 2edition, paris,2013.

- Peter Berger et Thomas Lukmann: **La Construction Sociale de réalité**, ARMAND COLIN édition , paris ,2008.

_ Jean Claude Kaufmann : **L'enquête et ses méthodes l'entretien compréhensif**, ARMAND COLIN, 3 édition , paris .

- Qualitatentwicklung in Prævention und Gesundheits forderung, **Entretien** , quint-essenz , version: 1.6/14-10-2003 .

_Stéphane Beaud et Florence weber: **Guide de l'enquete de terrain**, Editions la Découverte, paris,2010,191_192

_ Mayer Nonna: **l'entretien selon pierre Bourdieu, analyse critique de la misère du monde**, in : revue francaice de sociologie,1995.

.Jean Claude Kaufmann: **l' ENTRETIEN COMPREHENSIF**, Armand Colin , paris,2011.

_ Jean Claude Combessie: **La Méthode en Sociologie**, CASBA ÉDITIONS, Alger, 1998 .

. Jean Claude Kaufmann: **L'ENTRETIEN COMPREHENSIF** Ed. Nathan Université (collection 128).

. Philippe combessie : **socio anthropologie du monde contemporain** ; université de paris ouest , nanterre.

الأمراض الاجتماعية في البلاد التونسية في الفترة الحديثة : الصراع بين الساحل والداخل (المركز والتخوم)

د. عبد القادر سوداني/جامعة صفاقس ، تونس

ملخص:

كشفت الصراعات الدامية التي اندلعت بين العروش عقب الأحداث التي عرفتها البلاد التونسية في نهاية 2010 و بداية 2011 عن الكثير من المشاكل الاجتماعية التي تخفت حيناً لتظهر أحياناً أخرى، فقد أدى ارتفاع منسوب الحرية في الإعلام ومنصات التواصل الاجتماعي إلى تجلي ذلك العداء بين المكونات السكانية، ومن بينها ذلك الصراع المناطقي بين الساحل والداخل والذي عبّر عن حجم التناقضات الاجتماعية لسكان البلاد التونسية، هذه التناقضات ذات أبعاد حضارية ومعيشية، والتي أُلقت بتداعياتها على بناء السلطة وتوزيع الثروة وكذلك مسألة الانتماء إلى وطن جامع. لذلك وللإحاطة بهذه المسألة ارتأينا العودة إلى جذور هذه القضية خلال القرن 19، هذا القرن الذي حدد الملامح الكبرى للتراتبية الاجتماعية لصالح العناصر البلدية والساحلية والتي استحوذت على السلطة والثروة.

الكلمات المفتاحية: السلطة، المجتمع، الصراعات الاجتماعية، الثروة.

مقدمة:

بفضل الثورة أصبحت البلاد التونسية مكان مشترك للإنسانية قاطبة جراء تشابه هموم البشرية ووحدة التطلعات، وقد أكدت الثورة على أن الإنسان البسيط الذي غبن حقه ردحا من الزمن قد استعاد قدرة الفعل والتغيير. باندلاع الثورة في تونس سقطت أصنام مثلت حجابا أمام قيم كونية كالحرية والعدالة، وعاد المؤرخون إلى الاهتمام بالأثر الآخر ذلك الفاعل المهمّش الذي اسقط من متون الباحثين.

لا مندوحة أن التاريخ الرسمي في تونس عكس رؤية لفيف السلطة والنخبة العاملة، في المقابل حضر أصحاب الهيئات والثورات حضورا باهتا سلبيا في الفكر السياسي، ولم يفصح الخارجين عن الركب السلطاني عن روايتهم لأحداث التاريخ في تونس. بقي حضور البدو في الذاكرة الرسمية صنو الأعراب الجفاة الهمج المدبرين عن الحضارة، وكان هذا الحكم القيمي وليد ذهنية مترسبة تحقّر من شأن البدو، وتمظهرت من خلال تناقضات هيكلية شقت الأركيولوجيا الإجتماعية كالانطواء والتماثل والانتماء والإقصاء والأصيل والدخيل، وكلها مفارقات ساهمت الرابطة السياسية للحسينيين في شحذها.

طفت على السطح في الفترة الأخيرة (بعد 2011) جملة من الأمراض الاجتماعية التي تجسدت من خلال الانشقاقات بين التكوينية الاجتماعية و التي أبانت عن حجم الانقطاعات بين سكان البلاد في تونس وقد حجبت حيننا من الزمن بفضل سطوة المركز لكن ما إن تراخت قبضة السلطة حتى عادت تلك الفواصل السكانية إلى البروز فبات المجتمع أشبه بكتنونات ذات خلفيات حضارية متمايضة، ولعل ذلك العدا بين سكان الساحل والداخل كان أبرز مثال على الاختلافات العميقة بين مكونات المجتمع، لذلك كان حريا بنا البحث عن أسباب ومنطلقات هذه الأزمات الاجتماعية من خلال الرجوع إلى الفترة الحديثة التي عرفت تدفق موجات هجرية ذات خلفيات إثنية و حضارية متنوعة مما خلق فجوات تكوينية بين الأطياف الاجتماعية ما انفك يتزايد بتواصل مبررات وجود هذه الفجوات.

إن تغيب إشكالية الاختلاف الهيكلي العميق بين الفئات الدخيلة في الساحل والعناصر الأصيلية في داخل البلاد، كما أن عدم الإتيان على أمرها من قبل الباحثين لا يعني نفيها من الواقع المعاش، لأن السلطة الحسينية ركنت في تحالفاتها إلى عناصر مستجلبة من خارج البلاد، كما أن المخزن قد طوّق نفسه بحزام بشري من أهل الساحل خصوصا، في حين بقيت القبيلة على هامش الفعل التاريخي وقد تواصل هذا الأمر حتى بعد بناء الدولة الوطنية .

سنسعى في هذا العمل إلى البحث في جذور الأفكار المتراكمة في طبقات ذهنية " الخاصة " وتباين تعامل الطغمة الحاكمة مع " العوام " وخاصة تعامل البايليك مع احتجاجات دواخل البلاد واختلاف حيثيات تمايز الساحل عن الداخل وإستراتيجيات السلطة في التعامل مع كلا الجانبين.

(1) الإبادة الحضارية للبدو

عاصر البدو في تونس مختلف السلالات الحاكمة ورغم ذلك شهدنا تعايشا ولو مضطربا بين المركز والأطراف، لكن ذلك لم يمنع إطلاق فيضا من الخطابات التيولوجية المحقّرة للبدو والتي تخلط عمدا بين العقدي و الابستمولوجي والمعاشي .

وقع حشر المرجعية الدينية من أجل تحديد التراتبية داخل المجتمع التونسي، فتم تجميع العوام داخل سلة بشرية واحدة، فباتوا رديف الهمج والتوحش والمروق عن تعاليم الدين، فالدين الإسلامي وسم الأعراب بالكفر والنفاق مما أعطى المشروعية للفتك بهم من قبل أولي الأمر، جردت سهام الدين ضد البدو لذلك أقتطع من الفيلولوجيا الدينية زحما من الاستدلالات التي تجزم أن البدوي متروك اجتماعيا. في مقابل ذلك وقع تغييب بعض المرجعيات التراثية التي تحض على وجوب الحكم الرشيد مثل " شر الرعاء الحطمة " وهو من يكون عنيفا في رعيه للإبل، كما وقع التشديد على الآيات ذات الدلالة المعيارية في شأن دونية الأعراب وعدم دخول الإيمان إلى قلوبهم. في هذا السياق أفتى بعض علماء المالكية بان المرأة التونسية (البلدية) يحرم عليها الخروج إلى مدن أخرى لان في خروجها معرفة¹ (خوالدية الضاوي، 2008، 104) فلا مشاحة والحالة تلك أن يفتك به السياسي ويؤبده في أدنى المرفولوجيا الاجتماعية. هذا التراث الديني عمق من ذلك التمايز بين الحضر والمدر حسب التقسيم الخلدوني للمجتمع، و الذي طبع أغلب الحقب التاريخية للمشرق ومن بينهم تاريخ البلاد التونسية وخاصة في العهد العثماني. فالوحدة الدينية المزعومة بين عموم سكان الإمبراطورية لم تستطع تجاوز المشكلات النوعية على صعيد الشعب التركي والأخر العربي²(الطيب التزيني، 49). فمعلوم أن الأتراك ومن والاهم من العناصر السكانية المستتبنة في الإيالة شكّلوا ما يسمى "بالبلدية" و الذين مثلوا العصب الرئيس في أجهزة السلطة و استحوذوا على القسط الأكبر من الثروة، في مقابل ذلك بقي البدو قاعا اجتماعيا دافعا للجباية .

لا يملك البدوي - و هو يئن في صمت تحت نير السلطة - غير الإيمان أن السماء قدرت سياسة الحكام الذين يلونهم، فيكل الأعراب أمرهم إلى من يتسمن السلطة دون المخاطرة أو الإقدام على تدويل القبيلة ، لذلك لم يتوثب البدو على السلطة. كان هذا السلوك السوسولوجي وليد تراث ثقافي تم صقله على مر الأجيال، وقد لعبت الزمرة العاملة الذات الحمالة لهذا المعطى الذهني المترسب، فقد أشاعت الانتلجنسيا الرسمية أن البدوي بعيد عن تشرب الروح النظامية، وأن الملك العات كفيل بالانتقال من طور المجتمع الوحشي إلى المجتمع المدجن عبر ضرب تنطع الجماعات البدوية، فمن المعروف أن الأنظمة الديكتاتورية في كل العصور تكتفي عادة بالصلاحية العملية و الفعالية والاجرائية دون أن تلقي بالا لشروط استبطان واجب الطاعة من قبل البشر و أساليبه فسواء أطاعوها عن طيبة خاطر أم لا فهذا لا يهمها³(محمد أركون،، 91) .

نجح التاريخ الرسمي في خلق ذهنية إلتباسية تجاه سكان التخوم القصبة المختلفين في معاشهم عن لنيف السلطة، ففقدت الحياة البدوية احترامها الاجتماعي و قوتها الحربية و بات العالم البدوي رديف التخلف ، العامة هم رعا سفلة يؤمرون و لا رأي لهم و لا صوت⁴(رياض المرزوقي، 1978، 46) .

¹ خوالدية (الضاوي) ، الأسر والنزوات التونسية في القرن 19 من خلال الإتحاف لابن أبي الضياف، مطبعة دنيا، الطبعة الثانية، تونس 2008، ص 104.

² التزيني، الطيب. فصول في الفكر السياسي، ص 49.

³ أركون، محمد. أين هو الفكر الإسلامي، ص 91.

⁴ المرزوقي، رياض. العرب والعربان في إتحاف أهل الزمان، ملتقى ابن أبي الضياف للفكر السياسي والاجتماعي الحديث، الدورة الأولى حول المجتمع و نظام الحكم بتونس في القرن 19، منشورات مجلة الإتحاف، سبتمبر 1978، ص 46.

كرّس التاريخ السلطاني ذلك القالب النمطي حول العربان و تجسّمت هذه الذهنية إلى موجود اجتماعي و سياسي، ذلك أن السلطة السياسية ومن تعلق بركابها قد مارست استحقاتها وفق قاعدة الاخصاء السياسي للذات القبلية و إقصاء القبلي عن دائرة النفوذ الفعلي في القرار السلطوي، فلم يشهد التاريخ الحديث للمغرب - وخاصة في تونس - بروز زعامات سياسية بدوية أو أن قبيلة ما تمكنت من الإستحواذ على السلطة، مما يعني إقصاء سكان الدواخل من الدائرة الأولى للحكم .

لم تنتج النظم الاستبدادية أفكارا بل ركنت في عمومها إلى الأنماط والسلوكيات و طغت العقلية الكليانية على وشائجها، وقد تعددت العلامات الدالة على احتقار السلطة المركزية للبدو، فعند خروج سفن القرصنة كان الأتراك مجهزين بالثياب والطعام و سيفا ومسدسا في حين كان الأعرابي لا يملك غير برنس هو ثيابه وغطاءه بل دون سلاح و يقتصر نشاطهم على التجديف¹ (Courtinant,R.2008,92). أما الافاقيون الذين وفدوا من دواخل البلاد والذين استوطنوا حول المدن في إشارة إلى تدنهم عن البلدية² (ben Salem ,Lilia.1984 ,16)

خلقت هذه السياسة جفوة بين الحاكم و المحكوم و فجوة بين أعلى الهرم الاجتماعي و قاعه. وقع فرز التشكيلات الاجتماعية إلى شقين جمهور الطائعين و عماده سكان المدن وذوي الطاعة الممرضة من البدو، و يعكس هذا التصاف تلك الثنائية التي طبعت تاريخ البلاد التونسية وهي ثنائية الأصيل والدخيل، فقد خيرت الفئات الأصيلة و المتبدية الانزواء في دواخل البلاد حيث الطبوغرافيا العصية من الجبال و الصحاري التي تسمح لهم بهامش من الاستقلالية³ (محمد نجيب بوطالب،،115)، و تركت الحزام الساحلي حيث السهول و الانبساط إلى العناصر الوافدة و المستجلبة من خارج البلاد .

أعلى الأتراك في تونس من قيمة المدينة و ضربوا القبيلة، و بقيت دواخل البلاد خاضعة لأحكام المنتصر و من فتحها عنوة، و قد يقول قائل إن في " المخزنة " تسفها لهذا الزعم، ولكن هذه السياسة لم تتجاوز حسابات المنفعة التي قد يغنمها هذا الجانب أو ذاك، و لم تصل إلى طور الالتحام الهيكلي بين البلاط و القبيلة، فقبيلة الهمامة وهي قبيلة ديوان كانت كثيرا ما تعلن تمردها في وجه البلاط فشاركت في أغلب الاحتجاجات الاجتماعية، فالتغالب و حسابات المنفعة كانت من العوامل المحددة لعلاقات المركز بالتخوم .

في سنة 1735 هاجمت الهمامة الباي حسين بن علي ثم نشطت بشكل حثيث في تمرد 1864 قبل أن تجد سبيلا للتسوية مع الوزير مصطفى خزندار و تلتحق بمناصري البايليك، و تواصل صدام هذه القبيلة (المخزنية) مع أجهزة السلطة حتى بداية

¹ Courtinant ,R.la piraterie barbaresque en méditerranée, préface d'elyne joyaux,dulapha édition, paris 2008, p 92.

² ben Salem ,Lilia. Hypothèses a propos des hiérarchies sociales. Cahiers de Tunisie .N 129-130.p16. يتفق الرحالة موسكاو مع

ما هذا المذهب و يرى أن سكان المدن يعتبرون أنفسهم ارفع من البدو شانا و يعاملونهم بازدراء.....بوكلير، موسكاو.سميلاسو في إفريقيا رحلة أمير ألماني إلى الإيالة التونسية سنة 1835، تقديم منير الفندري و الصحي الثابتي، بيت الحكمة، تونس 1989، ص 413.

لعبت الأسباب الجيو سياسية دورا في تفسير استقلالية المجموعات السكانية تجاه المخزن فالمنطق الجبلية و المناطق المتاخمة للصحراء لم تخضع بشكل دائم أو كامل حتى أواسط القرن 19بوطالب(محمد نجيب)، سوسولوجيا القبيلة، ص 115.³

العصر الكولونيالي¹ (حفاوي عميرية، 21، 1996) ، مما يكشف ضعف تحالفات السلطة السياسية باعتبار أن الهامة كانت من القبائل الديوان أي الأكثر تحالفا مع المركز.

فطوال الفترة الحسينية عرفت تونس نوعا من الفصام المعلن بين الطغمة الحاكمة وبين الجماعات البشرية في النواحي الغربية والجنوبية للإيالة، فخرطة تحالفات المركز كانت متماهية مع التوزع الإثني للسكان. فمنطقة الساحل و الشمال الشرقي للإيالة كانت مجالا لاستيطان المماليك والأتراك والأندلسيين والغرابة وكانت هذه العناصر منطقة داعمة للمركز في مقابل استئثارها بالعمل في أجهزة السلطة .

فقدت السلطة الحسينية جاذبية الفعل وقوة القيادة فتم التعويل على اصطناع زمر اجتماعية يربطها مبدأ التخاوف والتغالب، و لبثت السلطة المركزية بعيدة عن واقع السكان لاستناد كيانها إلى مماليك غرباء طارئین مما أدى لضعف الوشائج العضوية للبناء الاجتماعي، وحبا البلاط الفئات الدخيلة بالتجلة الاجتماعية، فقد حددت "فالنسي" التراتبية الاجتماعية كالاتي الأتراك ثم الكورغلية ثم الأندلسيون ثم المماليك ثم أبناء البلاد ثم اليهود² (فالنسي لوسات، 36، 1994-37) ، وخلال القرن 19 تراجع دور الأتراك لصالح المماليك الذين تبؤوا رأس الهرم الاجتماعي، وقد كشفت المحلات الموسمية للبايليك باعتبارها فسطا اجتماعيا متنقلا عن ذلك التمايز بين التكوينات الاجتماعية، فأثناء تجوال المحلة سريعا ما تحدث المناوشات بين عناصرها ويتصافون حسب الانتماء الاثني، حتى بتنا أمام كونتات اجتماعية متميزة يعمل الجهاز السياسي على الفصل بينها، والتحالف مع الفئات الوافدة التي تركزت أساسا في الشريط الساحلي، فبعد هزيمة حسين بن علي ضد علي باشا سنة 1735 وجه ابنه محمد باي إلى بلدان الساحل لأجل مساعدته على استعادة ملكه، و لم يطلب دعم القبائل ليقينه بضبابية ولائهم³ (الفونس روس، 183) ، في مقابل بقاء دواخل البلاد مجرد خزان بشري للأجناد زمن الحرب ومناطق تقتطع منها الضرائب .

استنبتت السلطة الفئات الوافدة في الساحل⁴ (احمد الجدي، 8، 1998) ، وتمتع المماليك والأتراك بامتيازات رفقة السلطان وخدمته وغنموا لقاء ذلك العطاءات المادية، وشكّل غلاة القصر من الأتراك والمماليك جهة تمنع الانفتاح على سكان الدواخل،

¹ تواصل صدام الهامة القبيلة الديوان مع المخزن طوال الحقبة الحسينية و قد عبرت أشعار أولاد عزيز عن مدى الفجوة الحضارية بينهم و بين السلطة السياسية:

" نجع أولاد عزيز تسمع ليه دريز "

ما يحملش الذل ها الباي الطحان ناوي يغز البل " عميرية (حفاوي)، في تشكّل الوعي الحديث بالريف التونسي: من القبليّة إلى الوطنيّة، مجلة الحياة الثقافية، السنة 21، العدد 73، مارس 1996، ص 21.

² لوسات (فالنسي)، المغرب العربي قبل إحتلال الجزائر 1790-1830، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس 1994، ص 36-37.

³ روسو (الفونس)، الحوليات التونسية، ص 183 .

⁴ لئن كان سكان المدن في القرن 19 لا يتجاوزون 15 من مجموع السكان الجدي (احمد)، وثائق تنشر لأول مرة عن قبيلة ماجري في القرن 19، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات ، تونس أفريل 1998، ص 8..... فان الأتراك و المماليك تمتعوا بالمناب الأوفر من الثروة، ففئة الحنفية في المهديّة و يقدرّون ب 90 نفرا يملكون 52 من أصل زيتون الجهة زيادة على الإدارة المحلية للمدينة.... الأرقش (دلندة)، التطور اللامتكافئ و الهيمنة الخارجية الفئة الحنفية و مكانتها في المهديّة و المنستير في القرن 19، المجلة التاريخية المغربية، السنة 14، العدد 45-46، تونس 1987، ص 9 .

فاختصت نخبة المدن - من الأتراك و الكروغلية - بالعلم واحتكر المماليك الوظائف الإدارية والعسكرية، ولبت أعيان الدواخل مجرد جسر جباية ومراقبة.

خلال النصف الثاني من القرن 19، و لما رامت السلطة القيام بإصلاحات استبدلت الأجناد القبلية بجيش نظامي من أبناء الساحل والحاضرة أساسا فكسرت تلك الرابطة التقليدية التي تربط القبيلة بالسلطة الحسينية، وخلال هذا الطور "الإصلاحي" رفض أعيان الساحل أن يطبق عليهم القانون مثل العوام، و وقع تغيب كلي لسكان الدواخل في المجلس الأعلى الذي هيمن عليه المماليك .

لم يقم نظام الحكم بالفهم الأصيل لطبيعة البناء الاجتماعي و ذهنية جموع الناس، وغاب عن البلاط ذلك الفكر الإنسيابي القمين باحتواء الاستياء الشعبي لأن الرعية لم تلمس في الحكم المركزي سوى الجانب العنيف، فكان الصدام بين دواخل البلاد و بين البلاط الحسيني أمرا لا محيص عنه .

2) السلطة المركزية وتكريس الإقصاء الاجتماعي

توالدت عن السلطة كل الرسائل و الرموز المفعمة بالقوة ولبتت علاقاتها بالمجموعات القبلية رهينة لعبة التسالم والتغالب واستخدام الموارد في الخطط الاحترازية، وكان من الحتمي أن تنخرط دواخل البلاد في الحركات الاحتجاجية وأن تنحو نحو المسلك العنفي في الدفاع عن هويتها وأن تدفع بغي الحكام وأعاونهم لا سيما بارونات الجباية، فقد مثلت الضرائب الداخلية 75,56 % من جملة موارد البايليك ثم تراجعت سنة 1813 إلى 66,16 % ثم عاودت الارتفاع إلى 87,1 % . تحملت الدواخل الوزر الأكبر من القيمة الضريبية، ولم يراع البايليك في تحديدها الفاقة والأزمات الدورية التي تعصف بالبدو أساسا، بل وقع هيكلة الضرائب وفق الولاء السياسي، فبين 1705 و 1824 أكثر المجموعات عرضة للردع هي قبيلة ماجر¹ (جمال بن طاهر، 1995، 119).

تبعاً لذلك لم يجد سكان الدواخل غضاضة في رفع راية العصيان أمام حكام المركز، فعند التجاء علي باشا إلى وسلات في فيفري 1728 كتب الباي إليهم يحذرهم شر الفتنة و يرغهم خير الصلح على أن يسلموا إليه ابن أخيه، اعتمد الباي على تقنية المخاتلة في حسم أمر الثائرين لكن الكثير من القبائل ارتأت نصرة المتغلب الجديد، فعندما حاول علي باشا تمتين تواصله مع دواخل البلاد وسلك سياسة تعلي من شأن القبائل كان هذا الإجراء احد الأسباب التي أدت إلى تفتيت حكمه وخذلان الأتراك له سنة 1756، وعند تعيينه إمامة جامع الزيتونة فقيها من الكاف مما اثار استياء أشرف مدينة تونس² (فاطمة بن سليمان، 2009، 202)، لتنقسم البلاد إلى جمهور السلطة و عصيها من الأتراك و المماليك و سكان الساحل و في الجانب المقابل شيعة علي باشا الذي عول على القبائل لتقوم بدعوته .

¹ بن طاهر (جمال)، الفساد و ردعه: الردع المالي و أشكال المقاومة و الصراع بالبلاد التونسية 1705-1840، تقديم محمد الهادي الشريف ، منشورات كلية الآداب منوبة ، تونس 1995 ، ص 119.

² بن سليمان، فاطمة. الأرض والهوية نشوء الدولة الترابية في تونس 1574-1881، منشورات edusud ، تونس 2009 ، ص 202.

عبرت نصرة أغلب القبائل لعلي باشا عن مدى الحيف الذي مارسه المخزن تجاه سكان الدواخل، كما كشفت الفتنة الباشية الحسينية عن تعارض إستراتيجيات الفاعلين في البلاط ففي حين كان حسين بن علي يميل إلى العناصر الدخيلة كان علي باشا يعتمد على القبائل كأحد رافعات الحكم، و معلوم أن نشوء الباشا في دواخل البلاد (جهة الكاف) ثم اضطراره بباي الأمحال جعلته يدرك أهمية القبيلة في بناء السلطة و عمل أجهزتها، وهذا ما قد يفسر كذلك اصطفاة البلدية وراء حسين بن علي باعتباره ممثل الارستقراطية الحضرية التي عوّل عليها منذ توليه الحكم سنة 1705 خاصة أن سكان الدواخل لم يأهوا كثيرا بصراعاته من أجل الاستحواذ على الحكم، لذلك مثلت الفتنة الباشية الحسينية صراعا بين سكان الساحل والداخل .

في فترة لاحقة ساندت القبائل إسماعيل بن يونس في ثورته سنة 1759، فبعد فشل وساطة الفقيه أحمد الاصرم القيرواني رسول علي باي وتهديد الغوغاء له، انظم إلى الثائر أولاد سعيد والسواسي والمخازنية وأولاد مناع علاوة على ماجر وأولاد عيار، و قد التجأت السلطة أمام انتصارات الثائرين واتساع أنصار الثائر من القبائل الغربية إلى استعمال المدافع و إفساد الزرع و رهن الشيوخ والاستنجاة بمحمد بن سلطان شيخ الحنانشة لوأد هذه الثورة سنة 1762. وغني عن البيان أن دعم إسماعيل بن يونس مثل مواصلة لرغبة الدواخل في الإنعتاق من غلواء الأتراك .

فشل إسماعيل بن يونس في الانقضاض على الحكم و لكنه بين مدى الشرخ الذي يفصل الرابطة السياسية عن القاعدة القبلية، وقد تعاملت السلطة بكل قسوة مع الثائرين، إذ قابلتهم بالمدافع وتعرضت مرابض القبائل التي آزرت إسماعيل بن يونس إلى النهب وامتدت الأيدي إلى الحرم وسلطت عليهم الخطايا واستعمل الأسرى في الأعمال الشاقة، أما في الساحل - فإذا استثنينا جمال التي تعرضت إلى النهب و السلب - فحتى القرى و تخوم المدن التي تشيعت للثائر لم تتعرض إلى الزجر العنيف، فالمتاليث رهن بعض أعيانهم حتى يعودوا إلى الطاعة أما بقية عروش الساحل فقد صودرت مكالمهم.

يظهر الجانب العنفي للسلطة تجاه سكان الدواخل كذلك سنة 1795 أثناء ثورة عرش أولاد مساهل بقيادة حامد بن شريفة وهو من عائلة مرابطة مخزنية ورفض الأعيان دفع الخطايا التي سلطها عليهم حمودة باشا عقب صراعاتهم مع الهمامة والفراشيش، فبعث لهم الباي بخمس مائة جندي انكشاري مجهزين بالأسلحة النارية لقمع هذه الحركة، وتمكن الكاهية رجب بونمره من القبض على رأس الثورة وأوثقه كتافا وطاف به في الحاضرة مجردا من الثياب و قال للباي " يا سيدي عربي من أجلاف البادية جن و أتى به سعدك و هو الآن في محبس باردو"¹ (احمد ابن أبي الضياف، 1979، 49)، ثم عاود محمد بن عمار الفرجاني ثورة ثانية سنة 1812 انتهت بفراره نحو الجزائر و قمع أولاد مساهل و تشتيت بعضهم.

أبان خطاب السلطة عن تلك الذهنية الاستعلائية للفيف الحضري و التي ترى في البدو أجلاف و شذاذ أفاق مساعير الحروب و مواقيد الفتن.....، كما شاع بين الترك ذلك المثل القائل " العربي خذ ماله و إقطع رأسه " ، و لبثت كلمة " عرب" صنوا لكل ما هو سلوك همجي في امتداد للتحقير الذي تعرض له سكان الداخل / العرب من قبل لفيف السلطة.

¹ ابن أبي الضياف(احمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان، ج 3، طبعة تونس 1979، ص 49.

و قد بان العسف في منطوق أعوان السلطنة¹ (أرشيف وطني تونسي، 1850) ، الذي يعكس ذهنية ترى في "شذاذ الأفاق" كما بشريا يكفل الاستجابة لنزعات السلطنة و لفيها، وتم ربط الاحتجاج و ليد الاحتجاج بالفعل البربري الموجب للزجر العنيف.

قد تبدو انتفاضة 1864 أوضح بيان على إشكالية الساحل والداخل و المفارقات الأصيلة التي تفصل الطغمة الحاكمة عن السكان، فقد انطلقت إرهابات الثورة منذ 1861 عندما رفض سكان الجريد دفع المجبي ثم رضخوا قسرا تحت عنف المحلة، ثم أحجم سكان جبال خمير سنة 1862 عن الاستجابة للعسف الضريبي فلم يجد الباي غضاضة في الاستنجاد بفرقة من الجند الفرنسيين لجبر الأهالي على دفع الضرائب، لتأخذ الانتفاضة أبعادها الشاملة سنة 1864 عندما قام علي بن غداهم بتأطيرها والإشراف على هيكلتها و مطلبيتها، و ما يجدر تسجيله في هذه الحركة هي المشاركة النشطة لأهل الساحل، رغم أن بعض المجالات الساحلية امتنعت عن الالتحاق بركب الثائرين، ففي أكتوبر 1864 دامت الحرب بين سكان القلعة الكبيرة و متمردي الساحل 6 ساعات بيد أن المدينة أبت الالتحاق بالحركة الاحتجاجية .

انخرط أعيان الساحل في الحركة الاحتجاجية لسنة 1864 لان " الإصلاحات " أردتهم خارج الفعل السياسي و أفقدتهم امتيازاتهم الاقتصادية التي ألفوها، و لم يقبل أهالي سوسة على مساندة المنتفضين إلا بعد قدوم الدهماني البوجي من مساكن و تيقن برجوازية الساحل أنها باتت تحت وطأة العامة و كذا رغبتهم في الحد من تغول الممالك الذين قطعوا أمامهم سبل الترقى الإداري و المالي² (Bice slama, 1967، 137)، فيمكن الجزم إن أهل الساحل قد دفعوا قسرا إلى الاستجابة لدعوة الثوار بعد الضغط الذي سلط عليهم من قبل المثاليث و اكودة و جمال، رغم النضج الذي فرضه علي بن غداهم على المنتفضين باحترام الأموال و الأشخاص حرصا اجتناب كل ذريعة لتدخل أجنبي³ (أرشيف وطني تونسي، 1864)، فان ردة فعل السلطنة اتسمت بالشطط في العنف.

عقب الانتفاضة قام احمد زروق بحملته على الساحل و اعتصر الجهة ضريبيا لكن حراب آلة القمع توجهت أساسا نحو سكان الدواخل، فقد تسلطت أيدي العدوان على الأهالي بسلب الأموال والقتل والضرب بالسياط المؤدي إلى القتل، لان الوزير مصطفى خزندار اشتد حنقه عليهم حتى دخل عليه احد الأعيان يوما و هو يقول طلبوا دمي فلا أرضى إلا بدمائهم طلبوا مالي

بدا منطوق السلطنة مفعما بالعبارات الدالة على دونية الأعراب ، الفراشيش فرقة ضالة لم يكن لها قهر أو زجر، أ- و- ت ، المصدر نفسه، س ت، م 199، ص 18، و 15912، ت 1850..... الفراشيش شردمة ضالة خلو افريقية ، المصدر نفسه، م 200، ص 18، و 15461، ت 1850.¹

slama. Bice. l'insurrection de 1864 en Tunisie .M T E. Tunis 1967. P 137.²

³ ردد الأهالي أن " الباي باع البلاد للروامة " في دلالة على تيقض الوعي الجمعي و رفعتة،..... فعند قبول علي بن غداهم الصلح بعث له فرج بن دحر برسالة يذكره فيها أن قيامهم كان أولا لله و انه سيبقى كذلك، الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة تاريخية، صندوق 184، ملف 1049، وثيقة 49، تاريخ أوت 1864... و في مراسلة للقنصل الانقليزي إلى الباي بتاريخ افريل 1864 يشدد على انه لم يوجد في تواريخ تونس مثل سيرة العروش في هذا الزمن بما لهم من الشكايات و هم متسلحون على عادتهم السابقة في سالف الأزمان، لكن لا يتعرضون بسلاحهم إلا للاحتماء من أداء ثقيل فوق طاقتهم...المصدر نفسه.

فلا أرضى إلا بأموالهم¹ (محمد بيرم الخامس، 171، 1999) وسامت زبانية السلطة الثائرين بأبشع ألوان التعذيب والتنكيل لمجموعات طالبت بالحد من الغلواء الضريبي للأتراك و المماليك.

واصل الملك العات في تونس الحسينية حكم الحديد و النار و اجتثاث كل نفس احتجاجي، وجبر الأهالي إلى أن يدفعوا ثمن التهاوي الاقتصادي والسياسي حتى زمن السنوات العصيبة² (أرشيف وطني تونسي، 1867).

خاتمة:

لم يقدم التاريخ الحديث نموذجا لحكم البدوي للدولة، نتيجة لذلك لبثت المجالات الطرفية حبيسة مفارقة الانطواء والتماثل، فيمكن أن نعزو تمايز العنصر الدخيل عن الأصيل وما انجر عنه من هيمنة مجال على آخر إلى الاختلاف الهيكلي العميق بين الحضر و البدو، و التغالب الذي طبع علاقة المركز بالأطراف فكان لكل منهما صولة في ثوب شعوبية جديدة، فسعت الاوليقارشية التركية في تونس إلى أن تدفع العامة ثمن التهاوي فتزايد البون الحضاري بين فئة مستحوذة على السلطة والثروة و بين فئة أخرى لم تترد في انتهاج الحراية و الاحتجاج سبيلا للمنافحة عن كيانها.

اغتنم الفرنسيون إفلاس السلطة و وهنها و ضعف القبائل و تشتتها و صمت المدن و غربتها ليمروا مشروعهم دون عناء، ثم كان السعي لبناء وحدة وطنية دون محاولة تجاوز و توحيد الاختلافات ليصطدم هذا التمشي بسيطرة الحكم الراقلي - و هو النظام السياسي الذي تحركه الأطماع و الشهوات و الجشع و امتطاء السلطة لإشباع نهمه - و لم يراع الاختلاف في البناء الاجتماعي التونسي .

ثم عبرت الثورة عن مرحلة الخواء الحضاري و القيعي للبلاد التونسية، فكان من الضروري إعادة دراسة جانب من التاريخ الاجتماعي التونسي دراسة متأنية رصينة و وجوب إعادة تركيب الأحكام والمفاهيم .

قائمة المراجع:

¹ خوالدية (الضاوي) ، الأسر و الذوات التونسية في القرن 19 من خلال الإتحاف لابن أبي الضياف، مطبعة دنيا، الطبعة الثانية، تونس 2008.

² التزييني، الطيب. فصول في الفكر السياسي.

³ أركون، محمد. أين هو الفكر الإسلامي.

¹ الخامس، محمد بيرم. القطر التونسي في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار، تحقيق علي الشنوفي و عبد الحفيظ منصور، بيت الحكمة، تونس 1999، ص 171.

² تكشف مراسلات القيادة عن الضنك الذي يجابهه سكان الدواخل ، فقد هاجر بعض أنفار من أولاد وزاز من الفراشيش و عاشروا الطرابلسية و امتنعوا عن دفع المجرى، ا و ت، نفس المصدر، س ت، م 201، ص 18، و 15531، ت 1867..... و خلال السنة الشهباء مول الفراشيش الخزينة بما يزيد عن 817'295 ريالاً و 239 جملاً و 28 حصاناً. الجدي(احمد)، قبيلة الفراشيش في القرن 19، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات ، تونس 1996، ص 45.

⁴ المرزوقي، رياض. العرب والعربان في إتحاف أهل الزمان، ملتقى ابن أبي الضياف للفكر السياسي والاجتماعي الحديث، الدورة الأولى حول المجتمع ونظام الحكم بتونس في القرن 19، منشورات مجلة الإتحاف، سبتمبر 1978.

يتفق الرحالة موسكاو مع ما هذا المذهب و يرى أن سكان المدن يعتبرون أنفسهم ارفع من البدو شانا و يعاملونهم بازدراء.....بوكليز، موسكاو. سميلاسو في إفريقيا رحلة أمير ألماني إلى الإيالة التونسية سنة 1835، تقديم منير الفندي والصحبي الثابتي، بيت الحكمة، تونس 1989، ص 413.

لعبت الأسباب الجيو سياسية دورا في تفسير استقلالية المجموعات السكانية تجاه المخزن فالمنطق الجبلية و المناطق المتاخمة للصحراء لم تخضع بشكل دائم أو كامل حتى أواسط القرن 19....بوطالب (محمد نجيب)، سوسيولوجيا القبيلة، ص 115.

⁸ تواصل صدام الهامة القبيلة الديوان مع المخزن طوال الحقبة الحسينية و قد عبرت أشعار أولاد عزيز عن مدى الفجوة الحضارية بينهم و بين السلطة السياسية:

" نجع أولاد عزيز تسمع ليه دريز

ما يحملش الذل ها الباي الطحان ناوي يغز البل " عميرية (حفاوي)، في تشكّل الوعي الحديث بالريف التونسي: من القبيلة إلى الوطنية، مجلة الحياة الثقافية، السنة 21، العدد 73، مارس 1996، ص 21.

لوسات (فالنسي)، المغرب العربي قبل إحتلال الجزائر 1790-1830، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس 1994، ص ص 36-37.

⁹ روسو (الفونس)، الحوليات التونسية.

¹⁰ لأن كان سكان المدن في القرن 19 لا يتجاوزون 15 من مجموع السكان....الجدي (احمد)، وثائق تنشر لأول مرة عن قبيلة ماجري في القرن 19، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات، تونس أبريل 1998، ص 8..... فان الأتراك و المماليك تمتعوا بالمناب الأوفر من الثروة، ففئة الحنفية في المهديّة و يقدرّون ب 90 نفرا يملكون 52 من أصل زيتون الجهة زيادة على الإدارة المحلية للمدينة. الأرقش (دلندة)، التطور اللامتكاف و الهيمنة الخارجية الفئة الحنفية و مكاتها في المهديّة و المنستير في القرن 19، المجلة التاريخية المغربية، السنة 14، العدد 45-46، تونس 1987، ص 9.

¹¹ بن طاهر (جمال)، الفساد وردعه: الردع المالي وأشكال المقاومة و الصراع بالبلاد التونسية 1705-1840، تقديم محمد الهادي الشريف، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس 1995، ص 119.

¹² بن طاهر (جمال)، الفساد وردعه: الردع المالي وأشكال المقاومة و الصراع بالبلاد التونسية 1705-1840، تقديم محمد الهادي الشريف، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس 1995، ص 119.

¹³ بن سليمان، فاطمة. الأرض و الهوية نشوء الدولة الترابية في تونس 1574-1881، منشورات edusud، تونس 2009، ص 202.

¹⁴ ابن أبي الضياف (احمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان، ج 3، طبعة تونس 1979، ص 49.

¹⁵ بدا منطوق السلطة مفعما بالعبارات الدالة على دونية الأعراب ، الفراشيش فرقة ضالة لم يكن لها قهر أو زجر، أ- و- ت ، المصدر نفسه، س ت، م 199، ص 18، و 15912، ت 1850..... الفراشيش شزيمة ضالة خلو افريقية ، المصدر نفسه، م 200، ص 18، و 15461، ت 1850.

¹⁷ ردد الأهالي أن " الباي باع البلاد للروامة " في دلالة على تيقض الوعي الجمعي ورفعته،..... فعند قبول علي بن غدام الصلح بعث له فرج بن دحر برسالة يذكره فيها أن قيامهم كان أولا لله و انه سيبقى كذلك، الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة تاريخية، صندوق 184، ملف 1049، وثيقة 49، تاريخ أوت 1864..... وفي مراسلة للقنصل الانكليزي إلى الباي بتاريخ افريل 1864 يشدد على انه لم يوجد في تواريخ تونس مثل سيرة العروش في هذا الزمن بما لهم من الشكايات و هم متسلحون على عاداتهم السابقة في سالف الأزمان، لكن لا يتعرضون بسلاحهم إلا للاحتماء من أداء ثقيل فوق طاقتهم...المصدر نفسه.

¹⁸ الخامس، محمد بيرم.القطر التونسي في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق علي الشنوفي وعبدالحفيظ منصور، بيت الحكمة، تونس 1999، ص 171.... هم متسلحون على عاداتهم السابقة في سالف الأزمان، لكن لا يتعرضون بسلاحهم إلا للاحتماء من أداء ثقيل فوق طاقتهم...المصدر نفسه.

¹⁹ تكشف مراسلات القيادة عن الضنك الذي يجابهه سكان الدواخل ، فقد هاجر بعض أنفار من أولاد وزاز من الفراشيش و عاشروا الطرابلسية و امتنعوا عن دفع المجبي، ا و ت، نفس المصدر، س ت، م 201، ص 18، و 15531، ت 1867.....و خلال السنة الشهباء مول الفراشيش الخزينة بما يزيد عن 817'295 ريالاً و 239 جملاً و 28 حصاناً. الجدي (احمد)، قبيلة الفراشيش في القرن 19، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات ، تونس 1996.

.ben Salem ,Lilia. Hypothèses a propos des hiérarchies sociales. Cahiers de Tunisie .N 129-130, Tunis 1984

slama. Bice. l'insurrection de 1864 en Tunisie .M T E .Tunis 1967. P 137.

Courtinant ,R. la piraterie barbaresque en méditerranée, préface d'evelyne joyaux, dulapha édition, paris 2008



جميع الحقوق محفوظة

لمركز جيل البحث العلمي © 2018